

# الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى الفاطميين

تأليف

عبد الرزاق حميدة

# بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

## مقدمة

جاء العرب إلى مصر فاتحين ، ثم وفدوا عليها مقيمين ، فعلا شأنهم بها ، وانتشر دينهم ولغتهم فيها ؛ وعرف أدبهم طريقه إليها . فجاءها زائراً ، أو نشأ فيها وليداً وحاول أن ينمو ويحيا حياة طيبة ، حتى يضارع غيره من الآداب العربية في البلاد الأخرى .

وبقيت البلاد تابعة للحجاز أو الشام أو العراق بعد الفتح ثلاث مئتين وأربعين من السنين ، حتى جاءها الفاطميون سنة ٣٥٨ هـ فأصبح استقلالها تاماً ، وسيادتها في شؤونها كاملة .

وكان أدبها قبل الطولونيين ضعيفاً ، والعناية به قليلة ، ورجالها مغمورين ، إلا في فترات متباعدة كان يزدهر فيها بنجوم تلمع في آفاقه من الشرق ، مثل نصيب وابن قيس الرقيات وأبي نواس وأبي تمام والمتنبى .

وكان هذا الأدب الزائر ، في جملته ، خاصاً بالدح والهجاء . وما تأثر شعراؤه بالبلاد إلا قليلاً . ولكنه على الرغم من ذلك صار جزءاً من أدبها ، لأنه نشأ فيها أو ارتحل به منشئوه إليها ، وقيل من أجلها ، فلا يذكره ذاكر إلا متصلاً بها ، ولا يتحدث عنه متحدث إلا نسبه إليها باعتبار الباعث عليه ؛ وإن عد رجاله في أدباء بلادهم الأولى : فنصيب شاعر حجازي لا مصري ، وأبو نواس عراقي من بغداد جاء إلى مصر زائراً ، وكثير غيرها كذلك . ولكنه لا يمكن

أن تغفل رحلتهم إلى مصر وأثرها في أدبهم .  
أما الأدب الذي أنشأه بعض الأدباء من أهل البلاد والمقيمين فيها فقليل :  
وكثير منه ضعيف .

والكنه استطاع ، على الرغم من هذا الضعف ، أن يثبت وجوده واستقلاله في  
أكثر من ناحية ، وعلى الأخص ناحية الموضوعات التي طرقتها ، وأرى من مظاهر  
هذا الاستقلال أنه تبع تاريخ البلاد فكان سجلاً لكثير من حوادثها ، وكانت  
فيه صور صادقة لأحوالها وعاداتها .

وإذا قارناه بأدب الشرق والغرب تخلف وراءهما كثيراً إلى منتصف القرن  
الثالث ؛ فإن أدب الحجاز والشام والعراق كان أقوى منه ، وأعلى منزلة . وكان أدب  
الأندلس أرق أسلوباً وأوضح بياناً ، ورجاله أكثر عدداً . أما مصر التي كانت ملتقى  
الشرق والغرب ، وكان من حقها أن تكون واسطة العقد ، فلم تصل إلى منزلة  
مذكورة في هذا الزمن .

وأغلب الظن أن وجود الخلافة في الشرق طول هذا الزمن هياً لأدبه مكان  
الصدارة ، وأن استقلال الأندلس (من سنة ١٤١ هـ) ، وقيام خلافة أموية بها تعادى  
العباسيين سياسياً ، وتنافسهم علمياً وأدبياً ، نهض أيضاً بالأندلس . وقد أتاحت  
هذه الفرصة لمصر عندما استقل بها ابن طولون ثم الإخشيديون .

هذا الأدب الوطني الذي نبت في البلاد قليلاً أو هزيباً نما شيئاً فشيئاً حتى  
استوى على سوقه أدباً مصرياً مستقلاً تتنوع عوامله الفعالة في تكوينه ، ويستمد  
كثيراً من وحيه من البلاد التي نشأ فيها ؛ وإن كان لا ينسى أنه أدب عربي  
له من قيود اللغة ، وماضي الأدب ، وتقليد الأدباء أو مجاراتهم في البلاد العربية ،  
ما يقربه من الآداب العربية الأخرى كأدب الشام والعراق والأندلس . وكان  
للمرحلة بين هذه الأقطار آثارها في ذلك .

ويجد الباحث في هذا « الأدب العربي بمصر » مجالاً للقول ، وفرصة للحديث منذ أن صحب الفاتحين الأولين .

وقد زاد الاهتمام بهذا الأدب في كل عصوره ، وانصرفت جهود كثيرة إلى الكتابة فيه وإلقاء المحاضرات عنه ، وإنشاء الكراسي الجامعية من أجله ، وأذكر من الكتب القيمة في العصر الأول كتاب « أدب مصر الإسلامية » للدكتور محمد كامل حسين ، فقد نفعني قراءته . وإن كنت تخيرت طريقاً آخر . وهذه محاولة أتكلم فيها عن هذا الأدب ، في الزمن الذي خضعت فيه مصر لتخلقة الإسلامية في الشرق .  
والله ولي التوفيق .

القاهرة | يونيو سنة ١٩٥١  
| رمضان سنة ١٣٧٠

عبد الرزاق حميدة

# الفصل الأول

## الفتح الإسلامي لمصر

معرفة العرب بها :

كان العرب يعرفون مصر من قديم الزمان ويتبادلون معها التجارة ، وكانت جيوش المصريين تجتاح شمال الجزيرة العربية في حروبها المتعددة في الشام وما وراءها فتعلم شيئاً عن هذه البلاد وأهلها وتعود منها بأسرى ، وكانت بعض الأمم الآسيوية تغزو مصر ، وتمر في طريقها بهذه البلاد ، وتستعين بأبنائها في غزواتها لمصر ، ومن هؤلاء أمة الفرس التي غزت مصر في عهد قمبيز سنة ٥٢٥ ق . م ، وفي أواخر الدولة الرومانية سنة ٦١٧ م . وقد يستقر بها بعض هؤلاء العرب الذين يجيئون أسرى أو مع الغزاة ، وقد يرجعون إلى قومهم فيجدونهم بما رأوا وما علموا عن مصر ، ومن المؤرخين من يجعل ملوك الهكسوس ( الرعاة ) عرباً ، وقد حكموا البلاد زمناً قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً ، بل إن زنوبيا ملكة تدمر قد غزت هذه البلاد سنة ٢٦٨ م وقاومها الرومان ، ولكنها هزمتهم ، وحكمت البلاد عامين ثم أخرجوها منها .

وصلة النسب بين مصر والعرب موجودة من قديم ؛ فقد تزوج إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر ، فولدت له إسماعيل عليه السلام ، وذهب بها إلى الحجاز فأسكنها<sup>(١)</sup> هي وابنها بواد غير ذي زرع ، ودعا الله أن يجعل أفئدة من الناس

(١) النجوم الزاهرة ص ٢٣ ، ص ٢٩ .

تهوى إليهم . فاستجاب الله دعاءه وبارك في ذريته ، وكانت العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام .

والقرآن الكريم قص على العرب شيئاً من تاريخ مصر ، في قصة يوسف وفي قصة موسى عليهما السلام ، فعرفوا في عهد الرسول بعض تاريخها القديم من مصدر سماوي . وعرفوا أن التجارة كانت متصلة بين الشام ومصر في عهد يوسف عليه السلام كما كانت في غيره من العهود ، وأن السيارة وجدته فأسروه بضاعة ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ، وعرفوا أن « فرعونَ علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً » و « استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق » ، « ونادى فرعونُ في قومه قال : يا قوم أليس لي مُلكُ مصرَ وهذه الأنهار تجري من تحتي » ، إلى غير ذلك من الأخبار التي حدسهم بها القرآن الكريم .

وكانوا يستوردون القباطى من مصر قبيل الإسلام وهي ثياب رقيقة من الكتان تنسب إلى قبط مصر ، وقيل إنهم كتبوا عليها المملقات<sup>(١)</sup> .

وأشهر ما كان من اتصال في مبدأ الإسلام : أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى المقوقس ، عظيم القبط في مصر ، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة سنة ست من الهجرة ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٩١ .

ولم يسلم المقوقس ، ولكنه رد على النبي صلى الله عليه وسلم يقول (١) :  
« أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وقد علمت أن نبياً  
بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رُسُلك ، وبمشت إليك  
بجارتين لهما مقام في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ،  
والسلام » .

وكانت إحدى الجاريتين مارية القبطية ، التي تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم  
وولدت له ابنه إبراهيم عليه السلام ، وماتت (٢) سنة ٦٣٣ م فلم تشهد فتح  
العرب لمصر .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم تنبأ بفتح العرب لمصر وأوصى الفاتحين  
بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً .

وهناك قصة رواها الكندي (٣) والقريزي عن قدوم عمرو بن العاص إلى مصر  
في الجاهلية ، واشترأكه في حفل سنوي خاص بأولاد الذوات ، ووقعت في حجره  
كرة مخصوصة ، وكان من وقعت في حجره يحكم البلاد يوماً من الأيام ، وسوف  
نذكرها عند الكلام على القصص .

وهذه القصة الأدبية الطريفة لها دلالتها على وجود الصلة بين العرب ومصر .  
وهي صلة طبيعية كانت تسمح بها — أو تفرضها — ظروف الجوار ، وشهرة مصر  
فيما جاورها من البلاد بالخصب والثروة والحبوب والصناعة . فلما فتح الله للمسلمين  
بيت المقدس فكر عمرو بن العاص في فتح مصر . كي ترفرف عليها راية الإسلام ،  
كما رفرقت من قبل في الشام .

---

(١) صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٦٧ — وهناك صورة أخرى للرد في الصفحة نفسها يظهر  
المقوقس فيها حسن استعداده للإيمان ، وحسن ظنه بالرسول .  
(٢) فتح العرب لمصر ص ١٢٦ عن حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٣ .  
(٣) الولاة ص ٦ وفي خطط القريزي ج ١ ص ١٥٨ .

## مسير عمرو إليها :

يحدثنا المؤرخون أن عمرو بن العاص كان صاحب الفكرة في فتح مصر لسابق معرفته بها ، وأنه قد وصفها لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وحدثه عن ثروتها وسهولة غزوها . وأن عمر وافق على ذلك<sup>(١)</sup> ، وأرسله في أربعة آلاف مقاتل ، وقال له : « سيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله تعالى ؛ فإن أنت أدركت كتابي أمرت فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك ، واستعن بالله ، واستنصره<sup>(٢)</sup> » .

وسار عمرو ففتح البلاد . واختلف المؤرخون في سنة دخوله ، وفي كتاب عمر إليه وفي عدد رجاله ، ولكنهم لم يختلفوا في أنه منفذ تلك الفكرة الجريئة ، وأن الله قد نصر فئته القليلة ، وأيده في خطواته ، وكانت مخوفة بالأخطار .  
دخل عمرو مصر في أواخر سنة ١٨ هـ ، فسار على بركة الله ، وقاومه الروم في الفرما وبلبيس وأم دنين ( عند عين شمس ) ، ثم حاصر حصن بابليون ، وأرسل إلى عمر يستمده وخرج إلى الفيوم فلم يقلح في الاستيلاء عليها ، ثم رجع فوجد المدد بقيادة الزبير بن العوام ، فاستطاع أن يحاصر بابليون حصاراً شديداً حتى سلم الحصن ، ثم تقدم إلى الإسكندرية ، وفتح في طريقه إليها عدداً من القرى والمدن ، ثم وصل إليها ففتحها بعد حصار شديد سنة ٢١ هـ .

(١) في الولاية والقضاة للكندى ص ٨ أن عمرو بن العاص تقدم بأصحابه إلى مصر بغير إذن ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : « من عمر بن الخطاب إلى العاصي ابن العاصي : أما بعد فإنه بلغني أنك سرت ومن معك إلى مصر وبها جموع الروم ، وإنما معك نفر يسير . ولعمري لو كان تسلك أمك ما تقدمت ، فإذا جاءك كتابي هذا فإن لم تسكن بلغت مصر فارجع » . فخدم عمرو ربه لأنه كان جاوز الحدود وصار في مصر .

(٢) حسن المحاضرة ١ / ٤٦ خطط المقرئى ١ : ٢٨٨ .

وكان في تسليم بابلين والاسكندرية أكبر مشجع للعرب على فتح بقية البلاد؛ وظلت تابعة للخلافة مدة قرنين ونصف من الزمان كانت متأثرة فيها بالبحار أو الشام أو العراق ، ثم استقل بها أحمد بن طولون وبنوه زمنا (٢٥٤-٢٩٢ هـ) فكانت لها شخصية شبيهة مستقلة في عهد الطولونيين ، ولكنها عادت إلى العباسيين . ثم استقل بها الأخشيديون سنة ٣٢٨ هـ حتى سنة ٣٥٨ هـ . ثم قامت بها خلافة فاطمية تنافس خلافة العباسيين ، وحاضرة تدانى بغداد ثم ترشها . وصارت لها مقوماتها السياسية والأدبية والدينية .

### عوامل انتشار اللغة العربية في مصر :

تأثر لسان العرب في مصر بأمرين ساعدا على نشره ، وتعلم الناس له ؛ هذان الأمران هما : الإسلام ، وهجرة القبائل العربية إليها .

سأ أما الأمر الأول وهو الإسلام ، فكان الغاية الأولى من فتح عمرو بن العاص لها ، وكان المسلمون يدعون إلى الإسلام إذا ذهبوا لفتح بلد ، فإذا أبى أهل البلد قبلوا منهم الجزية ، فإذا أبوا قاتلهم حتى يعطوها ؛ وكذلك كان حالهم في مصر . فأسلم كثير ؛ لما في ذلك من مزايا ، كالمساواة في الإسلام والإعفاء من الجزية ، وما تحمله من معنى الخضوع والحماية .

« وليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم منهم إنما كان يقصد الدنيا وزينتها ، فإنه مما لا شك فيه أن كثيراً منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة المسلمين الفاتحين ، حتى يكون له مالهم ، وينجو من دفع الجزية ؛ ولكن هذه الطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية ، وأما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ؛ إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ... ومنذ بدا ذلك

لهؤلاء العقلاء لجئوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بداعته وطمأننته وبساطته<sup>(١)</sup> .

وكان دخول الناس في الإسلام مبكراً ، وكان منهم الروم والقبط وقد أسلم « بعض عظماء الروم الملكانيين مثل « ميناس » حاكم مصر السفلى ، و « شنوده » حاكم الريف ، و « فيلوخينوس » حاكم أركاديا ( الفيوم )<sup>(٢)</sup> .

ومن أقدم من دخل في الإسلام جماعة من القبط ، أخذوا بعد صلح بابليون « يختارون الإسلام ، ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية ؛ فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين في شرف محلمهم ، ويحملهم إخوانهم في كل شيء ، ويسهم لهم في الفيء ، ولا يفرض عليهم الجزاء ، فكان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام ، لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحناً ، وحطم يقينهم باضطهاده . وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم ، بعضهم جنود وبعضهم ممن حل في مصر ... وكان هؤلاء المسلمة يتظاهرون بأنهم من أشد الناس في أمر الدين ، فيدفعهم ذلك إلى مساعدة إخوانهم العرب المسلمين على استصفاء أموال المسيحيين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم ، وصاروا يستبيحون لهم ، ويصفونهم بأنهم أعداء الله<sup>(٣)</sup> .

وأسلم طائفة كبيرة من الأسرى عند مدينة بلهيب ، وقد جاء إلى عمرو وهو يحاصرها رد من الخليفة عمر بإقرار صلح الإسكندرية ، فقرأ عمرو كتاب الخليفة على الناس . وقد جاء فيه أن يخير الأسرى ، فمن رضى الدخول في الإسلام منهم أطلق سراحه ، وصار للمسلمين أخاً<sup>(٤)</sup> .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز كان له وال على مصر كتب إليه يقول : إن

(١) فتح العرب لمصر ص ٣١٤ (٢) ص ٣٨٤

(٣) ص ٢٤٣ (٤) ص ٣٠٣

الإسلام أضر بالجزية حتى لقد نقص عشرون ألف دينار من عطاء أهل الديوان .  
فكتب إليه عمر بن عبد العزيز كتاباً شديداً قال فيه<sup>(١)</sup> :

« أما بعد فقد بلغني كتابك . فقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد  
أصرت رسولى أن يضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عمن أسلم ،  
قبح الله رأيك . فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ، ولم يبعثه جانياً ،  
ولعمري لعمري أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه » .

ويستدل بتلر<sup>(٢)</sup> على كثرة من أسلم بتناقص الجزية ، لأنها كانت في عهد  
عمرو اثني عشر ألف ألف دينار ( ١٢ مليوناً ) وصارت في عهد ابن أبي السرح  
أربعة عشر ألف ألف دينار ( ١٤ مليوناً ) ، ثم صارت في عهد معاوية خمسة آلاف  
ألف ( ٥ ملايين ) ، بعد أن أسلم عدد عظيم من القبط ، وصارت في خلافة  
الرشيد أربعة آلاف ألف ( ٤ ملايين ) .

وهؤلاء دخلوا في الإسلام بلا ضغط ولا إرهاب ، وكان القبط أحراراً في  
عقيدتهم كما يقول مؤرخ منهم اسمه حنا النقيوسي ( وهو لا يتورع عن أن يصف  
الإسلام بأبشع الأوصاف ويتهم من دخلوا فيه بأشد التهم<sup>(٣)</sup> ) ، يقول عن عمرو :  
ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئاً من النصب  
أو النهب .

وخلاصة ما تقدم أن كثيراً من الروم والقبط أسلموا منذ أول الفتح راغبين ،  
وأن عددهم كان يزداد شيئاً فشيئاً ، وأن إيمانهم بالإسلام كان عظيماً ، وأنهم ربحوا  
كثيراً من وراء اعتناق الإسلام .

ويترتب على ذلك انتشار اللغة العربية بينهم ، لأنها كانت ضرورة لازمة لفهم

(١) خطط القرظي ج ١ ص ٧٨

(٢) فتح العرب لمصر ص ٤٠٣

(٣) ص ٣٨٦ المصدر نفسه .

الدين؛ ومن الأئمة من يجعلها فرضاً في بعض العبادات مثل الخطابة والصلاة . وإذا كان هؤلاء المسلمون كما وصفهم « بئتر » ، من رغبة في الإسلام وحب له ، فنتيجة ذلك أن يكفوا على دراسته ، ووسيلتهم الأولى هي تعلم لغته ، يتعلمونها للتفاهم مع إخوانهم المسلمين ، ويتعلمونها ، ويتعلمها غيرهم من القبط لأنها لغة الفاتحين السادة ، والضرورة تدعو إلى التفاهم معهم .

أما الأمر الثاني المهم في انتشار اللغة العربية بمصر فقد كان نزوح العرب بعد الإسلام من جزيرتهم أفراداً وجماعات إلى هذه البلاد وإقامتهم فيها ، ومخالطتهم لسكانها ، وانتشارهم في البلاد من أقصاها إلى أقصاها<sup>(١)</sup> . وخلاصة القول في هذه الهجرات :

١ — أنها ابتدأت منذ الفتح العربي واستمرت بعده قروناً :  
جاء في الولاة والقضاة أن عمرو بن العاص قدم مصر بثلاثة آلاف وخمسمائة ، ثلثهم من « غافق »<sup>(٢)</sup> . وأكثر من ثلث الجند كانوا من « عك »<sup>(٣)</sup> .  
ثم نزلت همدان بالجيزة وكتب عمرو في شأنهم إلى الخليفة ، فرد عليه أن يجمعهم معه ، فإذا أبوا بنى عليهم حصناً ، ففعل ؛ وسكن الجيزة مع همدان نافع وذو أصبح وغيرهم ، وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع<sup>(٤)</sup> . وفي هجرة بيلي يقول القرظي :

---

(١) تشير إلى ذلك كتب الخطط مثل خطط القرظي في « ذكر نزول العرب مصر واتخاذهم الزرع معاشاً وما كان في نزولهم من الأحداث ج ١ ص ١٢٨ » ومثل كتابه « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » وفي « صبح الأعمى » جزء ٣ ص ٣٣١ بيان عن هذه الهجرات من جزيرة العرب واستقرار أهلها في نواحي مصر كما تجد في كتاب « الولاة والقضاة » لاسكندى وغيره حديثاً عن هذه القبائل غير مقصود لذاته ، يذكر فيه منازلها في مصر أو مواطنها الأولى في جزيرة العرب ، أو ظروف هجرتها ، أو تنقلها من مكان إلى مكان في البلاد وهكذا .

(٢) ص ٨

(٣) فتح العرب ص ١٧٦

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٩ وخطط القرظي — القسطنطينية

« وبلى قبيل عظيم فيه بطون كثيرة . وكانت بلى بالشام ، فنأدى رجل من بلى بالشام بالقضاة ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسكتب إلى عامل الشام أن يُسّر تلك قضاة إلى مصر ، فنظروا فإذا « بلى » تلك قضاة ، فسيروا إلى مصر<sup>(١)</sup> ويقول : « وجدنا من قدماء عربان مصر قدموا مع عمرو بن العاص<sup>(٢)</sup> » .

ولما عرض القرزى لقيس قال<sup>(٣)</sup> : « وبنو سليم من قيس . وكان نزول سليم وعدة قبائل من قيس في أرض مصر سنة تسع ومائة ، وأمير مصر إذ ذاك الوليد ابن رفاعه بن خالد بن ثابت الفهمى ، ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من قهم وعدوان ، فإنهما من قيس في جديلة .

وعن الهيثم بن عدى قال حدثني غير واحد أن عبدة الله بن الحبجاب لما ولاه هشام مصر قال : ما أرى لقيس حظا فيها إلا للناس من جديلة — وهم فهم وعدوان — فكتب إلى هشام : إن أمير المؤمنين أطل الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونعمشهم ورفع من ذكرهم ، وإنى قدمت مصر ، فلم أر لهم فيها حظا إلا أبياتا من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ؛ وهى بلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل . فكتب إليه هشام : يترك الأمر إليه ، فبعث إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومائة أهل بيت من بنى عامر بن صعصعة ، ومائة أهل بيت من هوازن ... فأزلهم بلبيس ، وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من المشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلا ، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، فكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر ، ثم أمرهم باشتراء

(٢) ص ٣٣ البيان والإعراب .

(١) ص ٣٧

(٣) ص ٦٤ البيان والإعراب .

الخيول ، فجعل الذي يشتري المهر لا يمكث إلا شهراً حتى يُركب ، وليس عليهم  
مثونة في أعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مراعيهم .  
فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية فكانوا على  
مثل ذلك . فأقاموا سنة فأتاهم نحو ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس ، حتى إذا كان  
زمن مروان بن محمد ، وولى الخوثر بن سهيل الباهلي مصر ، مالت إليه قيس ، فمات  
مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالتوا . وقدم عليهم من البادية من قدم ،  
فأحصوا في ولاية محمد بن سعيد ، فوجدوا خمسة آلاف ومائتين ، ما بين صغير وكبير .  
ويمين زمن قدوم أولاء الكنز فيقول<sup>(١)</sup> أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون  
اليمامة وقدموا أرض مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين  
في عدد كثير ، وانتشروا في النواحي ، ونزل طائفة منهم بأعلى الصعيد ، وسكنوا  
بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها . وكانت « البجة » تشن الغارات على  
القرى الشرقية في كل وقت حتى أخربوها ، فقامت ربيعة في منعهم من ذلك حتى  
كفوم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب العلابي ، فكثرت أموالهم  
واتسعت أحوالهم ، وصارت لهم مرافق ببلاد « البجة » واختطوا قرية تعرف  
بالتامس ، وحفروا بها آباراً .

وسننيس من طي ، نزلوا بالبلاد سنة ٥٤٤٢هـ ، وثلثة وطائفة من جرهم جاءوا  
إلى هذه البلاد زمن صلاح الدين . وعدة القبائل التي كانت بمصر عند مجي الغز  
مع أسد الدين شيركوه كثير<sup>(٢)</sup> .

٢ — وزح المهاجرون من أماكن متفرقة في بلاد العرب . فقيس وبيلي من  
الشام ، ورهط كلب بن عدى من الحجاز ، وقريش من الحجاز من مكة ، والأنصار

(١) البيان والإعراب ص ٤٨

(٢) ص ٣٣

من المدينة ، ولحم وجذام وبنو هلال بن عامر وجهينة من اليمن<sup>(١)</sup> ، وأولاد الكثر أصلهم من اليمامة<sup>(٢)</sup> وهكذا .

٣ - أما منازلهم بأرض مصر فهي كثيرة كذلك ، وتكاد تشمل البلاد كلها من أسوان إلى البحر الأبيض ، مثل سنبس الذين نزلوا بالبحيرة في ديار بني قرة<sup>(٣)</sup> ، والعمريين الذين نزلوا البرلس<sup>(٤)</sup> ، وجذام الذين سكنوا بالحوف<sup>(٥)</sup> ، وسعود جذام الخمسة الذين نزلوا من منية عمر إلى زفيتا<sup>(٦)</sup> .

ونزل ببلاد الصعيد عدة قبائل من العرب : ففي بلاد أسوان وما تحتها بنو هلال ، وفي بلاد إخميم وما تحتها بلي ، وفي بلاد منفلوط وأسيوط جهينة ، وفي بلاد الأشمونين قريش . وكانت دور بني سهم حول جامع عمرو بن العاص من الفسطاط إلى أن دثرت<sup>(٧)</sup> . وكانت عيذاب لبني يونس من ربيعة ، ملكوها عند قدومهم من اليمامة ، فجرى بينهم وبين بني بشر حروب أنهزموا فيها ، ومضوا من عيذاب إلى الحجاز<sup>(٨)</sup> . ثم وقعت حروب بين بني بشر قتل فيها اسحق بن بشر . فأحضروا إليها من بليس الشيخ أبا عبد الله محمد بن علي<sup>(٩)</sup> فنزل إلى أسوان وأنشأ مكانه المعروف بساقية شعيان .

وكانت للعرب عدة إقطاعات منها هريبط وتل بسطه وغير ذلك . وكان إقطاع ثعلبة جميعه في مناشير جذام . وإنما السلطان صلاح الدين وسع لثعلبة في بلاد جذام .

ونزل بالصعيد طائفة من الأنصار منهم بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحرى منفلوط .

---

(١) البيان والإعراب ص ٣٨	(٢) ص ٤٨	(٣) ص ٢٥
(٤) ص ٢٦	(٥) ص ٢٩	(٦) ص ٣٢
(٧) ص ٤٨	(٨) ص ٤٩	(٩) ص ٤٩

٤ - وبعضهم نزل في أكثر من جهة من مصر ، وقد تشمل القرية الواحدة عدداً من البطون : فجذام نزلت في أما كن متفرقة وامتزج من كان منهم مصر بولد زيد ، وهم بحرى الخوف إلى ما يلي أشموم ، وكانت قرارة بنى سعد تل طنبول إلى نوب طريف ، ومنهم بدقدوس ودمريط ، وضواحي القاهرة إلى أطراف الشرقية ، وبالإسكندرية جماعة من لحم وجذام<sup>(١)</sup> .

وكان بنو هلال أهل بلاد الصعيد إلى عيذاب . وبأخميم منهم بنو قرة ، وبساقية قلته بنو عمرو . وبأصفون وإسنا بنو عقبة وبنو جميلة ، ومن بنى غافق بطن يعرفون بالقرافة ، سكنوا سفح المقطم ثم تركوا أما كنهم . وتفرقوا في البلاد المصرية ، وصار مكانهم مقبرة للمسلمين فسميت المقبرة في مصر بالقرافة ، نسبة إليهم<sup>(٢)</sup> .  
وجهية نزلت في أما كن متفرقة<sup>(٣)</sup> وقريش كذلك .

وبنو الليث من كنانة سكان ساقية قلته وناقهم فيما يليها<sup>(٤)</sup> . وعوف بن سليم في بلاد الصعيد ، وفي الفيوم والبحيرة<sup>(٥)</sup> . وفزارة قيس منها جماعة بالصعيد وجماعة بضواحي القاهرة في قليوب وما حولها<sup>(٦)</sup> ، ولحم نزلت أما كن متعددة<sup>(٧)</sup> وفي الدقهلية والمرتاحية عرب كثيرون وبنو سهم منهم أشقات بالصعيد<sup>(٨)</sup> .

٥ - بل إن بعضهم كان يلحق بالقبائل لقلة عدده ثم تأتي ظروف فيستقلون ؛ يقول الكندي<sup>(٩)</sup> :

ولما رأى بشر بن صفوان افتراق قضاة كتب إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الإذن له في استخراج من كان منهم في القبائل فيجعلهم دعوة منفردة ، فأذن له

(١) ص ٣٥

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٨ الأدب المصدر الإسلامى ص ١٨

(٣) ص ٣٨ (٤) ص ١٥ (٥) ص ٥٢

(٦) ص ٥٣ (٧) ص ٦١ - ٦١ (٨) ص ٤٧

(٩) ص ٧١ الكندي

يزيد بن عبد الملك بذلك ، فأخرج مهرة من كندة ، وأخرج تنوخا من الأزدي ، وأخرج آل كعب بن عدى التنوخي من قريش ، وأخرج جهمينة من أهل الرابية ، وأخرج خشينا من لحم فجملهم مع سائر قضاة دعوة منفردة<sup>(١)</sup> .

وتدوين بشر هذا هو التدوين الرابع ، لأن الأول تدوين عمرو بن العاص ، والثاني تدوين عمرو بن عبد العزيز ، والثالث تدوين قرّة بن شريك ، والرابع هو هذا ، ولم يكن بعد هذا في الديوان شيء له ذكر إلا ما كان من إلحاق قيس فيه زمن هشام . وأشياء أحدثها المسودة من أرباعهم التي أحدثوها منه<sup>(٢)</sup> .

٦ — وأما أعمالهم في مصر فكانت متعددة ، وأول عملهم كان الحرب والمرابطة ، ثم تملكوا وزرعوا ، أو اشتغلوا بغير ذلك .

كأولاد الزبير — رضى الله عنه — صاروا أكثرهم صاحب معايش وأهل زرع وفلاحة وماشية وضرع<sup>(٣)</sup> .

٧ — وكانت هناك هجرة من الغرب أيضاً من لواتة ، ومن أشهر قبائلها هواة ، وقد نزلت منازل متفرقة ، فنزل بعضهم بالبحيرة ، ونزل بالصعيد جماعة ، أنزلهم الظاهر سنة ٧٨٢ هـ وذلك أنه أقطع إسماعيل بن مازن ناحية جرجا وكانت خراباً فعمرها وأقام بها<sup>(٤)</sup> . وفي المنوفية من لواتة وأحلافهم كثير .

### كثرة العرب بمصر :

ومما يدل على كثرة العرب بمصر أن أعدادهم كانت كبيرة في الحوادث والحروب ، فقد جاء عمرو إلى مصر ففتحها بأربعة آلاف ، واستمد أمير المؤمنين عمر

(٢) ص ٧١ الكندي

(٤) ص ٦٠

(١) ص ١٠٢ الكندي

(٣) ص ٤٧

فأمده بالزبير بن العوام على اثني عشر ألفاً<sup>(١)</sup> وتنابت الجنود بعد ذلك كلما احتاج إليهم ، وكانوا مرابطين حتى مات عمر رضى الله عنه ، وكان من سياسة عثمان ألا يمنع الناس من تملك الأراضي فاستقر قوم من العرب في مصر ، ولكنهم كانوا بالفسطاط وما حولها والإسكندرية وما يتلوها<sup>(٢)</sup> ثم كثرت العرب حتى أن عتبة عقد لعقمة بن يزيد العطيفي على الإسكندرية<sup>(٣)</sup> في اثني ألفاً من أهل الديوان يكونون بها رابطة ، فكاتب عقمة « يشكى » قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم<sup>(٤)</sup> .

وبلغ من قوتهم أن انتصروا على الروم في ذات الصواري وهي أول حرب بحرية لهم ، ثم غزوا بعد ذلك في البحر فغزا عقبة بن نافع رودس<sup>(٥)</sup> فكم كان عدد جند المسلمين في تلك الغزوات ؟ .

ومن قصيدة عبد الرحمن بن الحكم التي قالها في فتح مروان لمصر ترى أن كثيراً من القبائل كانت بمصر مع عدوه بن حجندم والى مصر لابن الزبير وقد قتل يومئذ خلق كثير من الجانبين ، يقول عبد الرحمن :

وجاشت لنا الأرض من نهم بحبي تجيب ومن غافق  
وأحياء مذحج والأشعرين وحسير كالهلب المحرق  
وسدت معافر أفق البلاد بمرعد جيش لها مبرى<sup>(٦)</sup>

وفي قتل الأكدري بن حاتم على يد مروان يقول الكندي<sup>(٧)</sup> : « وتنادي الجند قتل الأكدري ! فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه ، فحضر باب مروان منهم .

(١) ص ٩٠٨ الكندي عن ابن وهب عن لبيعة عن يزيد ابن أبي حبيب أن عمرو ابن العاص قد بثلاثة آلاف وخمسمائة نلهم من غانق ، ثم مد بالزبير بن العوام في اثني عشر ألف .

(٢) الكندي ص ٣٦

(٣) البيان للمقرئ ص ٤٧

(٤) ص ٣٨ الكندي .

(٥) خطط المقرئ ج ٢ ص ٨٧

(٦) ص ٤٦ .

(٧) الولاية والقضاء .

زيادة على ثلاثين ألفاً» وكان الأكدري سيد نخم وشيخها ، فإن كان هذا العدد من أنصاره فهو كثير ، وإن كان من نخم وحدها فهو دليل أقوى على كثرة العرب بمصر ونحن ما زلنا في سنة ٦٥ هـ . ثم إن امرأته كانت معه فهذا دليل الإقامة والاستقرار .

وعبد العزيز بن مروان ينشئ مدينة أخرى غير الفسطاط هي « حلوان » ويحيطها بأبهة الأمانة ، وينزل بها معه كثير من الناس (١) .

وأدل من ذلك على كثرة القبائل بمصر ما يرويه الكندي (٢) عن كرم عبد العزيز بن مروان قال : وكان لعبد العزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره ، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل ، تحمل على العجل إلى قبائل مصر وقد استأذن الحر بن يوسف من هشام في أن يبني الناس في أرض انكشاف عنها النيل ليست لمسلم ولا لمعاهد ، وهم مضطرون إليها ، فأذن له في بناء قيسارية هشام ، فابتدأ فيها في رجب سنة ١٠٧ هـ ، وهذا أيضاً دليل الاستقرار والعمل عليه وضيق البلاد بالناس .

وقد انتجع العرب ريف مصر من أول الفتح (٣) فكان إذا جاء الربيع تفرق العرب في البلدان فيذهب آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد إلى منوف ووسيم ، وكانت هذيل تذهب إلى بيا وبوصير ، وتذهب عدوان إلى بوصير . وكانت فهم تذهب إلى « إتريب » وعين شمس ومنوف الخ وفي عهد العباسيين في سنة ١٦٧ خرج من الحوف قيس واليمن على موسى بن مصعب (٤) ، ونسمع بقيس في ثورات كثيرة بالحوف منها ثورتهم التي أدت إلى مقتل عمير بن الوليد سنة ٢١٤ هـ (٥) .

(٢) ص ٥١ .

(١) ص ٤٩ .

(٤) ص ١٢٥ الكندي .

(٣) خطط القرظي ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٥) ص ١٨٦ الكندي .

ونسلم بلخ في ثورة الجرّوى حوالي سنة ٢٠٠ هـ ، وفي ثورة الصوفية  
والأندلسيين بالإسكندرية فقد عاضدوا هذين في ثورتيهما على عمر بن هلال<sup>(١)</sup> ، ثم  
فسد أمر لخم والأندلسيين ووقعت بينهم حرب انهزمت فيها لخم<sup>(٢)</sup> .  
ونسلم بمدج تحارب الأندلسيين<sup>(٣)</sup> ويُفكّبون وينفيمهم الأندلسيون من  
الإسكندرية ونسلم بهم بمدون القبط بسخا في خروجهم على الجرّوى سنة ٢٠٢ هـ  
وفي ثورة على الأفشين سنة ٢١١ هـ<sup>(٤)</sup> .

ونسلم في هذا التاريخ الطويل بحروب وانتقالات جيوش ، وثورات من  
أهل البلاد في أنحاء مختلفة . ويذهب الجند لإخادها وقيمون بين الناس لحفظ  
الأمن ، وقد يتصلون بهم في البيع والشراء ويشاركونهم في الدور والغلات  
ويجمعون منهم الخراج والجزية ، ويقضون بينهم بالعدل في الخصومات ، ويحدثونهم  
بلسان عربي ، ويخاطبهم هؤلاء بهذا اللسان ، لأنه لسان الدين ، ولسان الحاكمين .  
ومما شجع العرب على الاستيطان أو دفعهم إليه دفعا أن المعتصم قطع إعطياتهم  
وأسقطهم من الديوان وأرسل بذلك إلى كيدر<sup>(٥)</sup> واليه على مصرفئار عليه يحيى بن  
الوزير الجرّوى في جمع من لخم وُجذام ، وقال : هذا أمر لا تقوم في أفضل منه  
لأنه منعنا حقنا وفيتنا ، فهزمهم مظفر بن كيدر في تنيس سنة ٢١٩ هـ<sup>(٦)</sup> .

ونحسن باشتراك المصالح بين القبط والمسلمين ونصرة بعضهم لبعض ، فقد  
نصرت مدج القبط في ثورة سخا سنة ٢٠٢ هـ ، ولما ثار المصريون على المأمون  
سنة ٢١٦ هـ كان القبط والمسلمون جنبا إلى جنب<sup>(٧)</sup> .

### أثر هذه الهجرات في اللغة

وكان من هذه الهجرات ، والتنقل بين الريف والحضر ، وفي السلم والحرب

---

(١) ص ١٦٢ الكندي . (٢) ص ١٦٣ (٣) ص ١٦٤  
(٤) ص ١٩١ (٥) ص ١٩٣ (٦) ص ١٩٤ (٧) ص ١٩٠

واختلاط القبائل المختلفة اللهجات بعضها ببعض ، وبأهل البلاد مسلمين وغير مسلمين :

١ — أن صارت العربية لغة البلاد في حديثها وأدبها وعلماها ؛ وإذا كانت القبطية ظلت أزماناً تستعمل في بعض الجهات لغة حديث وكتابة وعبادة ، فإن مغالبة العربية لها ، واستماتة هذه بكثرة المهاجرين ، وكثرة من أسلم من أهل البلاد أضعفتها شيئاً فشيئاً حتى خلا الميدان للغة القرآن الكريم . وكانت مزاحمة العربية مبكرة ، فإن ساويرس ابن القفح كتب كتابه « عن تاريخ حياة البطارقة » حوالي القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) ، وقال في مقدمته التي كتبها بنفسه إنه كان يلجأ إلى بعض القبط ليترجموا له الوثائق اليونانية والقبطية إلى العربية ؛ إذ أن اللغتين المذكورتين كانتا ، حتى عند ذلك الوقت ، غير معروفتين لأكثر المسيحيين ، ومنه يظهر مدى الاضمحلال الذي أصاب اللغتين (١) .

والحق أن اليونانية التي كانت لغة علم ودولة ، قد ضعفت بدخول الإسلام مصر ، وإن ظلت مستعملة قليلاً في بعض المدارس بالإسكندرية وفي بعض الأديرة المملكانية .

وأما السريانية فكانت لغة العلم وبخاصة الطب ، وظلت مستعملة حتى جاء عهد العباسيين ، فارتحلت إلى مدارس شمال العراق والشام وفارس وأودعت العربية ذخايرها الأصلية والمنقولة ، وبخاصة ما كان عن اليونانية .

٢ — وحلت بالبلاد لهجات عربية متعددة مع هؤلاء النازحين تشبه لهجاتهم في موطنهم الأول ، وتأثرت في وطنها الجديد بما جاورها من اللهجات العربية ، وباللغة المحلية التي كانت قبلها في ذلك الوطن . أما مدى تأثيرها فيختلف على قدر الاختلاط بغيرها ، وكثرة من يجاورها .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٩ — ٣٠

٣ — ولم تتأخر العربية عن استخدام بعض الألفاظ والكلمات المحلية أو اليونانية إذا دعت إليها حاجة ، ولا عن الإكثار من كلمات عربية يكثر مدلولها في مصر مما يتصل بالنيل والخضب والزراعة والحصاد والقيضان والمقاييس والخلجان والترع وغير ذلك .

ثم هؤلاء القوم الذين ورثوا البلاد من بعد أهلها ، وبدلوا دينها ولفتها ، وصاروا أصحاب تاريخها وحضارتها قد مهدوا للأدب العربي سبيلا إليها ، حتى صار الأدب الوحيد فيها بعد حين . وقد تنوعت فنونه ، وتعددت رجاله ، وكثرت الرحلة به ، وعظم الجزاء عليه ، وهذا حديثنا عنه في الفصول التالية .

# الفصل الثاني

## الخطابة والوصايا في مصر

### (١) الخطابة :

كان من الطبيعي أن ينتقل البيان العربي إلى مصر مع الفاتحين ، وأن يكون استخدام هذا البيان بقدر ما تدعو إليه الضرورة أولاً .

وكانت حاجة العرب في أول هذا الفتح شديدة إلى خطابة يثبت بها القائد قلوب جيشه ، ويبعث بها الحمية والإقدام في جنوده ، ويهون بها شأن أعدائهم ، ويذكّرهم بما خرجوا من أجله وهو النصر أو الشهادة .

وكانت الجمعة فرصة مواتية يخطب فيها كل أسبوع ، فيتحدث في الشؤون العامة التي تشغلهم ، فإذا دعت الضرورة إلى خطابة في أي وقت آخر كان القائد أو أحد أعوانه أسرع إليها ، وأقدر عليها ، وكانت استجابة الجند وغيرهم سريعة إليها .

وروى أن المسلمين كانوا في يوم الجمعة قد اجتمعوا للصلاة ، فسار بينهم عمرو بن العاص يحرضهم على القتال ، وكان ذلك في أثناء حصار « بابلين » ، فرآهم ريثة القوم ، وحمل إلى قومه في الحصن خبر اجتماعهم ، فلما انتهى عمرو من خطبته نزل عن منصته الساذجة التي كان يخطب عليها ، وأم المسلمين في الصلاة .

وفي هذا دليل على أن خطبة الجمعة كانت تدور حول ما يشغل المسلمين من أمرهم ، وأهم ما كان يشغلهم يومئذ فتح الحصن ، فكانت خطبة عمرو في التحريض على القتال .

وكان قائد الفتح عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أول خطباء العرب بهذه الديار وقد كان قائداً منصوراً ، وخطيباً فصيحاً ، ورسولاً معروفاً بالكياسة والدهاء .

وكان له في مصر صفة القائد والحاكم والإمام ، فتنوعت خطابه بين الحرب والسياسة والدين ، وكثرت هذه الخطب وتمددت ، ولكن ما بقي منها قليل إذ كان التدوين قليلاً ، وكان حفظ الخطب عسيراً . وإن ما بقي من هذه الخطب يدل دلالة كبيرة على بلاغة قائلها ، ووضوح عقله وصراحته . فتراه في إحدى خطبه يقرر العلاقة بينه وبين أهل البلاد في إيجاز وصراحة .

روى أنه رضي الله عنه خطب مرة على المنبر فقال : « لقد جلست مجلسي هذا في هذا البلد ، وليس لأحد فيه على عهد ولا عقد ، إن شئت قتلت ، وإن شئت سبيت » .

وفي صفات عمرو أنه كان فصيحاً فصاحة جعلت سيدنا عمر رضي الله عنه يذكره لما رأى رجلاً يتمتر في كلامه ، فيقول « أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو ابن العاص واحد » ، ومعنى ذلك أن الله خلق الفصيح مثل عمرو : والتمتام مثل ذلك الرجل ، وأن عمراً كان معروفاً بهذه الفصاحة حتى كان أقرب من يخطر ببال عمر عندما أراد المقارنة .

ومما يدل على اهتمامه ، واهتمام الناس جميعاً بالقول ، ما ورد عنه بعد فتح الإسكندرية ، فقد أراد أن يرسل معاوية بن حديج إلى الخليفة يبشره ، فطلب منه رسالة مكتوبة : فقال له عمرو : ألسنت امرأاً عريباً تقدر على وصف ما شهدته !

### خطبة لعمرو :

وتبدو حكمة فاتح مصر في خطبته التي قالمها في مسجده ، في يوم جمعة<sup>(١)</sup> ، بعد أن استقرت الأمور .

قام عمرو فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم أمر الناس بالإحسان

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٣ .

والصدقة وطاعة الوالدين : وأمرهم بالقصد ، ونهي عن الإفراط والفضول ، وقد قال فيها :

« يامعشر الناس إياي وخلالاً أربماً ، فإنها تدعو إلى النَّصَب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذل بعد العز : إياي وكثرة الغيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، في غير دَرَك ولا نوال . إنه لا بد من فراغ يؤول المرء إليه في توديع جسمه والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وشهواتها ، فمن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم ، فيكون من الخير عاطلاً ، وعن حلال الله وحرامه عادلاً .

يامعشر الناس قد تدلت الجوزاء ، وارتفعت الشَّعْرَى ، وأقلعت السماء : وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى حسن النظر ، كَفَى بكم على بركة الله إلى ريفكم ، فتناولوا من خيره ولبنه ، وخرافه وصيده ، وأرْبِعُوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها ، فإنها جنتكم من عدوكم ، وبها تنالون مغامكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتكم من القَبْط خيراً ، وإياكم والسومات والمسولات فإنهن يفسدن الدين ويُقصرنَّ المهيم .

حدثني أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله سيفتح عليكم بمصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ؛ فإن لكم فيها صهراً وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم : وغضوا أبصاركم .

فلا أعلننَّ ما أتى رجلٌ أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال . فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم ، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة .

« حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا فتح الله عليكم مصر فأتخذوا فيها جنداً كثيراً فكثيراً فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقال له أبو بكر : ولم يارسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فإذا يبس الزرع ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، فحى إلى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحدٌ منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفةٌ لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته . أقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم » . (١)

هذه الخطبة من أطول الخطب التي حفظت لنا من تاريخ الولاية بمصر ، وأشملها ؛ فقد جمعت بين الموعظة والتحذير ، وبين الآداب العامة والخاصة ، ودعت إلى الراحة بعد النصب ، وإلى متابعة العلم في وقت الفراغ ، وإلى تمتع المرء بالشهوات مع القصد والاعتدال .

ثم دعت المخاطبين إلى أن يذهبوا إلى الريف ، وأن يحسنوا الاستمتاع بخيره ، وأن يرعوا خيلهم حق رعايتها . ثم وصاهم عمرو بالقبط خيراً وذكر وصية النبي صلى الله عليه وسلم فيهم . ثم عاد إلى العناية بالخيول ، وما قاله صلى الله عليه وسلم في جند مصر : وأصرهم بمسد ذلك بالعودة إلى الفسطاط ومع كل منهم ما قدر ، تحفةً لعياله .

وإذا كان هناك ما يؤخذ عليها فهو ترك الكلام قبل أن يكتمل ، والحديث في نقطة ثم العودة إليها ، بعد الكلام في مسألة أخرى ، كالوصية بالقبط والحديث عن الخيل . وهذا اضطراب لا يتفق مع ما عرف به عمرو من حضور البديهة ، ولباقة الحديث . وربما كان جمعها من السنة الرواة عند تدوينها سبباً في هذا القلق البادى فيها

فإذا نظرنا إليها مجزأة وجدنا في معانيها ما يباهه الطبع العربي ، فكيف ينهى عن كثرة العيال والله هو الرزاق . ثم إن العرب يفخرون بكثرة الولادة . وإذا كانت حاجتهم إليها في الجاهلية شديدة فخأجتهم إليها في زمن الفتوح أشد . لكنها كانت في جملتها دستوراً طيباً لو سار عليه العرب لحفظوا لأنفسهم هيبتها ، وغرسوا في قلوب جيرانهم من القبط محبتها ، وأخذوا للطوارىء عدتها ، وكان من الطبيعي أن تثير أحداث هذه الفترة روح الخطابة في الجانب الآخر أيضاً ، ومن أشهر خطبائهم « قيرس » المقوقس بطريق المذهب الملكاني ومبعوث الإمبراطور . ومن أشهر خطبه خطبة ألقاها في كنيسة « القيصر يون » ، وقد أقيمت فيها صلاة التحية بمناسبة عودة هذا البطريق من القسطنطينية يوم الاحتفال بعيد الصليب . وفي حديث بتلر<sup>(١)</sup> عن قيرس « إنه رب البيان والبلاغة » وكان موضوع خطبته تذكيراً للناس بجهاد هرقل في سبيل الصليب حتى استرده من الفرس وأقامه في بيت المقدس .

ويرى بتلر في هذه الإشارة إلى بيت المقدس غرضاً خفياً ، وهو تذكير السامعين بأن بيت المقدس قد صار الآن في يد المسلمين ، يريد بذلك أن يوهن قلوبهم والمسلمون على أبواب الإسكندرية .

وهناك خطيب آخر من رجال الدين الأقباط وهو البطريق بنيامين الذي ذهب لمقابلة عمرو بعد فتح الإسكندرية فخطب بين يديه « خطبة جليلة » ، وكان عذب المنطق في تؤدة ورزانة ، ولاشك أن عمراً لم يفهم منها حرفاً واحداً كما يقول بتلر ، ولكنه عندما عرف ما يقصده ، وفهم مرامييه ، أحسن تلقيها وقبولها ، وجعله أميراً على قومه . ولاشك أن خطبة بنيامين قد ترجمت له فمرف منها ما يقصده<sup>(٢)</sup> .

(٢) ص ٣٨٤ المصدر نفسه .

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٧٢

## الصلح بين عمرو والمقوقس:

خرج المقوقس ليلا من الحصن ، والاسلمون محاصرون له ، وعبر النيل إلى جزيرة الروضة ، ثم أرسل إلى عمرو جماعة ، كان منهم أسقف بابليون ، فلقبهم عمرو وأكرمهم ، فأدوا رسالتهم ، فقالوا : « إنكم قد ولجتم في بلادنا وألحتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عسبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجلا منكم نسمع من كلامهم ، فلعلمه أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تنشأكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا تقدر عليه ، ولعلمكم أن تدموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجلا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء » .

فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به ، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين ، إذ أبيض لهم أن يسيروا في العسكر ويروا ما فيه ، ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال : « ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا : وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين . (١)

وعاد الرسل وقد وقع في نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان فقالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب . وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١١

منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغفلون أطرافهم  
بالماء ، ويخشمون في صلاتهم » (١)

فأقسم المقوقس : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على هؤلاء  
أحد ، ولئن لم نقتم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيئونا بعد اليوم  
إذا أمكنهم الأرض وقوا على الخروج من موضعهم .

وأرسل المقوقس إلى عمرو كي يرسل إليه وفداً للمفاوضة فأرسل إليه جماعة فيهم  
عبادة بن الصامت ، وكان أسود شديداً ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيب  
الروم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الحصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى الروضة ، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال :  
« نحوا عني ذلك الأسود وقدموا غيره يكلمني » فقال العرب جميعاً : « إن هذا  
الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى  
قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . ثم قالوا ،  
فكان قولهم عجيباً عند المقوقس : إن الأسود والأبيض سواء عندهم لا يفضل أحد  
أحداً إلا بفضله وعقله وليس بلونه ، فدعا المقوقس عبادة أن يتكلم برفق حتى  
لا يزعجه ، فقال له عبادة :

« إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود ، كلهم أشد سواداً مني ...  
وإني ما أهاب مائة رجل من عدوي نو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ؛ وذلك  
إنما رغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب  
الله لرغبة في دنيا ، ولا طلب للاستكثار منها ... لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة  
ياكلها ، يسد بها جوعه ليله ونهاره . وشملة يلتحفها ... لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ،  
ورخاؤها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء في الآخرة » .

فوقع هذا القول في نفس المقوقس وقال لأصحابه : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل ! إن هذا وأمثاله قد أخرجهم الله لحراب الأرض » ثم أقبل على عبادة فقال : « أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقاتلتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغت ما بلغت إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لطلبهم للدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مما لا يحصى عدده : قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ما يبالي أحدكم من لقي ولا من قاتل ، وأنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضغفكم وقتلكم ... ، ونحن تطيب نفوسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتم ألف دينار ، فتقبضونها ، وتنصرفون إلى بلادكم ] قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به [

فقال عبادة :

« يا هذا ، لا تفرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما نخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا تقوى عليهم ، فلمعري ما كان هذا بالذي نخوفنا به ، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرعب ما يكون في قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا ، إذا قدمنا عليه ؛ إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شئ أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنما منكم حينئذ لعلي إحدى الحسينين ، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الحصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة ، والأ يرد به إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا . . . فانظر الذي تريد ، فليس بيننا وبينك

خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك في الباطل ؛ بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا .

جرت هذه المفاوضة بين العرب وعلى رأسهم عبادة ، وبين الروم وعلى رأسهم المقوقس ، وقد كان طابع هذه المفاوضة أدبياً سياسياً دينياً من جانب العرب ، تتجلى فيه صراحة الحق ووضوح البيان وقوة التمييز ، كما تتجلى فيه قوة الإيمان ، واليقين بالنصر ، والثقة فيما وعد الله به ، والرغبة فيما عنده من عاجل الثواب وآجل النعيم . ولا أدري كيف خوفهم المقوقس بكثرة العدد ثم عرض عليهم مالا لينصرفوا ألم يكن يعلم مواقفهم في الشام ، وكيف يخاف من سواد عبادة وما جاءه إلامفاوضاً ، وما شأنه برياسة وفد المسلمين ، ربما كان ذلك كله فرصة استطاع فيها عبادة وزجاله أن يقدموا للمقوقس صورة من المساواة والإخاء مع اختلاف اللون ، وأن يبينوا له ما في الإسلام من مثل عالية في معاملة العدو والصديق . أما دستورهم الذي ثبتوا عليه فهو دستور الإسلام : واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

ومن أحسن ما يعجبك في هذه المفاوضة لباقة هذا البدوي الأسود وهو يرد على الرومي الأبيض . فقد حسب المقوقس أنه ينفذ إلى شجاعة العرب إذ يذكر لهم كثرة العدد ، وحسب أنه يفريهم بالمال فيصرفهم عما قصدوا إليه ، فكان رد عبادة على هذا التخويف والإغراء رداً صريحاً بعبارة عن المخادعة والمداورة وملزماً له وللمقوقس إذ يقول له : « أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم . . . . . فلمعمرى ما كان هذا بالذي تخوفنا به » . ثم يبين له أن ذلك ادعى للإقدام على الروم فإن هزمهم العرب كثرت الغنيمة ، وإن ماتوا في سبيل الله ففي رحمته ورضوانه خير الجزاء ، وتلك أحب الخصلتين إليهم ، ويمثل هذا الإيمان ثبت في نفس المقوقس أن هؤلاء لو استقبلوا الجبال لأزالوها .

وقد كان العرب عند حسن ظنه فأزالوا ملك الروم وثبتوا أركان الإسلام في البلاد .

توات على هذه البلاد أحداث بعد عمرو بن العاص ، فقد عزله عنها عثمان رضى الله عنه ، وثارت فيها الفتن ، ونشطت الخطابة في هذه الفتن ، ثم قتل عثمان بيد المصريين كما يقال ، وأرسل على كرم الله وجهه والياً من قبله هو قيس بن سعد بن عبادة . فلما بلغ مصر صعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين قريء على أهل مصر<sup>(١)</sup> . وقد ذكر في هذا الكتاب فضل الإسلام والرسول الكريم ، وأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قاما بأمر الإسلام بعد الرسول وعملا بالكتاب والسنة ، « ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثم تقوموا عليه فغيروا ، ثم جاءوني فبايعوني ، فأستهدى الله عز وجل بالهدى ، إلا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنة والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » . وأخبرهم أنه بعث إليهم قيس بن سعد أميراً . وختم الكتاب بتاريخه صفر سنة ٣٦ هـ .

ثم إن قيس بن سعد قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال<sup>(٢)</sup> :

« الحمد لله الذى جاء بالحق ، وأمات الباطل وكبت الظالمين . أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . قوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » . فقام الناس وبايعوا واستقامت له الأمور زمناً حتى

(١) ص ٤٢٥ تاريخ الإسلام « التجار » ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٩٧

(٢) تاريخ الإسلام ص ٤٢٤ - ٤٢٧ .

أوقع معاوية به عند علي فمزله . وتحركت جيوش معاوية بعد ذلك إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص فاستولى عليها وظل بها حتى مات سنة ٤٣ هـ .

### خطبة عتبة :

ثم وليها عتبة بن أبي سفيان من قبل أخيه معاوية سنة ٤٣ هـ . وكان عهده على قصره كثير الخطب ، وهو أكثر من روى له التاريخ خطباً في ولاية مصر ، وقد روى ابن عبد ربه في العقد الفريد<sup>(١)</sup> له ست خطب . يصرح في خمس منها بأنها كانت في مصر ولأهل مصر ، ويتحدث في السادسة حديث الوالي القادر إلى الرعية العاصية ، ولم نسمع بأنه ولي ولاية أخرى غير مصر . وهذه هي نصوصها كما أوردها ابن عبد ربه ، مع خلاف في الترتيب :

#### ١ — خطبة عتبة بن أبي سفيان :

بلغه عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم فقال<sup>(٢)</sup> بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا أهل مصر إياكم أن تكونوا لل سيف حصيداً ، فإن الله فيكم ذبيحاً لعثمان أرجو أن يولينى الله نسكه ! إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطه ، وأصفحكم — بعد القدرة — عن حقه ؛ نعمة من الله فيكم ، ونعمة منه عليكم . وقد بلغنا عنكم نجم قول أظهره تقدم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة السنة ، فأطأكم الله وطأة لا رمق معها ، حتى تنسكروا منى ما كنتم تعرفون ، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .

(١) ج ٢ من ص ٣٨٩ — ٣٩١ .

(٢) ص ٣٨٩ العقد الفريد ج ٢ .

٢ — وخطبة لعتبة :

قدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر: إن قبلك قوماً يطعنون على الولاية، ويعيبون السلف، فخطبهم فقال (١) :

يا أهل مصر؛ خفّ على ألسنتكم صدع الحق ولا تفعلونه، وذم الباطل وأنتم تأتون، كالحمار يحمل أسفاراً أثقله حملها: ولم ينفعه ثقلها، وأيم الله، لا أدأويكم بالسيف ما صلحتم على السوط، ولا أبلغ السوط ما كفتني الدرة، ولا أبطىء عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. وإياكم وقال ويقول، قبل أن يقال: فعل ويفعل! وكونوا خير قوس سهماً، بهذا اليوم الذي ما قبله عقاب، ولا بعده عتاب.

٣ — وخطبة لعتبة بن أبي سفيان :

سعد القصير قال: وجه عتبة بن أبي سفيان، ابن أخت أبي الأعور السلمي إلى مصر فتموه الخراج، فقدم عليه عتبة فقام خطيباً فقال (٢) :

يا أهل مصر، قد كنتم تمتدرون لبعض المنع منكم ببعض الجور عليكم، فقد وليكم من يقول ويفعل، ويفعل ويقول، فإن رددتم ترادكم بيده، وإن استصعبتم ترادكم بسيفه، ثم رجا في الآخر ما أمل في الأول. إن البيعة متتابعة، فلنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدل. فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عقدت عليها قلوبنا، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز، ومن حذر كمن بشر.

قال: فنادوه: سمماً وطاعة، فناداهم عدلاً عدلاً.

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١.

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١، الولاية والقضاء ص ٣٥، النجوم الزاهرة ج ١

٤ — وخطبة لعتبة :

العتبي ، قال سعد القصير : احتبست عنا كتب معاوية بن أبي سفيان حين أرجف أهل مصر بموته ، ثم قدم علينا كتابه بسلامته ، فصعد عتبة المنبر والكتاب في يده ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهل مصر قد طالت مُعَاتِبَتَنَا يَا كُمْ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَظُبَاتِ السِّيُوفِ ، حَتَّى صَرْنَا شَجَى فِي لَهَا كُمْ مَا تَسِيغُهُ حُلُوقُكُمْ ، وَأَقْدَاءُ فِي أَعْيُنِكُمْ مَا تَطْرَفُ عَلَيْهَا جَفُونُكُمْ ، أَلْحِينَ اشْتَدَّتْ عَمْرَى الْحَقِّ عَلَيْكُمْ عَقْدًا ، وَاسْتَرَحْتَ عَقْدَ الْبَاطِلِ مِنْكُمْ حَلَا ، أَرْجَفْتُمْ بِالْخَلِيفَةِ ، وَأَرَدْتُمْ تَهْوِينَ الْخِلَافَةِ ، وَخَضْتُمْ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ . وَأَقْدَمَ عَهْدَكُمْ بِهِ حَدِيثٌ ، فَأَرِيحُوا أَنْفُسَكُمْ إِذْ خَسِرْتُمْ دِينَكُمْ . فَهَذَا كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَبْرِ السَّارِ عَنْهُ وَالْمَهْدِ الْقَرِيبِ مِنْهُ . وَاعْلَمُوا أَنَّ سُلْطَانَنَا عَلَى أَبْدَانِكُمْ دُونَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْلِحُوا لَنَا مَا ظَهَرَ ، وَنَكَلِكُمْ إِلَى اللَّهِ فِيمَا بَطَنَ ، وَأَظْهِرُوا خَيْرًا وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ شَرًّا ، فَإِنَّكُمْ حَاصِدُونَ مَا أَنْتُمْ زَارِعُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ أَتَوَكَّلُ وَبِهِ أَسْتَعِينُ . ثُمَّ نَزَلَ .

٥ — وخطبة لعتبة بن أبي سفيان في أهل مصر :

يا حاملي الأم أنوف ركبت بين أعين ! إنما قلت أظافري عنكم ليلين مسى إياكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم راجعاً عليكم ، فأما إذ أبيتهم إلا الطعن على الولاية ، والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن على ظهوركم بطون السياط فإن حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة ، إذا جدتم لنا بالمعصية ، ولا أؤيسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى (١) .

٦ — خطبة لعتبة بن أبي سفيان :

لما اشتكى شكاه التي مات فيها تحامل إلى المنبر فقال :

(١) في صبح الأعشى ج ١ ص ٢١٦ والأمل ج ١ ص ٢٤٥

يا أهل مصر ، لا غنى عن الرب ، ولا مهرب من ذنب ، إنه قد تقدمت منى إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنياى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم وآتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شفى من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم ، سلام من لا ترونه عائداً إليكم .

قال : فلم يمد .

تعليق على هذه الخطبة :

فالخطبة الأولى قد بدأت بالتحذير من السيف ، ضحّت أن لهذا السيف ثأراً في رقابهم بما قتلوا عثمان ، وأن الأخذ بهذا الثأر قربة إلى الله يتمناها . ويعود فيذكر أمير المؤمنين وفضله في جمع الشمل ، وأهم من ذلك عنده وعندهم « العطاء » ، ثم يصل إلى ما كان حقه أن يبدأ به وهو ما بلغه عنهم ، ثم يحذر وينهى عن الخروج على الطاعة . وكأنه يلمس ناحية حساسة في قلوبهم إذ يشهد عليهم الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ومما قدمت تظهر قوة خطبته من حيث ترتيب معانيها وعلاقتها بالسامعين . فإذا أضيف إلى ذلك جمال الأسلوب ، وحسن التصوير وبديع الزخرف بلا تكلف ولا تعمل زادت قوة . ففيها سجع لا تكلف فيه : وطباق في وحشة الباطل وأنس الحق ، وإحياء الفتن وإماتة السنن ، والإنكار والمعرفة ، ويستخشنون ويستلينون . ويقوى الخطبة ويترك لها آثاراً في النفوس إستناده إلى الحق ، وأنه إن وطئهم وطأة لا رمق معها فذلك « لله » .

وليس من العقول أن يحلل السامع كل هذه تحليلاً دراسياً ، ويفعل ما نفعله نحن : ولكن هذه الآثار تسرى إلى نفسه على هذا النحو الذى قدمته فترك فعلها

في قرارتها ، وتصل به إلى الإذعان رغبا ورهبا ، وهذا هو سر قوتها .  
« الخطبة الثانية : أقرب إلى اللين من السابقة ، وفيها تنديد قبل التهديد ،  
تهديد مشوب بروح العدل ، فهو لن يبدأ بالشدة ، ولن يلجأ إليها ما استقاموا  
على سبيل الهدى : ولن يتأخر عن أداء الحق إلى من يلزم حدود الله ، ولعله يقصد بما  
أمرهم الله به طاعة أولى الأمر المطلوبة في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا  
الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »<sup>(١)</sup> ، وتشبيهم بالحار يحمل أسفارا تشبيهه  
غامض ، وإن فصله بعد ذلك ، والمراد به أن علمهم بالحق والباطل لم ينفعهم ، وهي  
في جملتها أضعف من الخطبة الأولى تركيبا .

أما الخطبة الثالثة فلها ظرف خاص جاء به الكندي إذ يقول إن عتبة بعد  
إقامته في الولاية أشهراً ، « وفد على أخيه من أشرف أهل مصر ، واستخلف  
على مصر عبد الله بن قيس بن الحارث بن مسعود ، وكانت أمه أخت أبي الأعور السلمي ،  
وكانت فيه شدة على أهل مصر ، فكرهوا ولايته وامتنعوا منها ، فبلغ ذلك عتبة  
فرجع إلى مصر » .

وفي رواية : « فكتب إلى عتبة ، فقدمها فدخل المسجد وقرأ القرآن فحمد الله  
وأثنى عليه » وقال الخطبة وفيها المعاني المكررة في الخطبتين السابقتين تقريبا ،  
فهي تهديد مشوب بالترغيب في الطاعة ، وكأنما كانت سياسته معهم قوله تعالى :  
« وإن تنهوا فهو خير لكم ، وإن تمودوا نُعدُّ »<sup>(٢)</sup> .

وكانت عاقبة الخطبة خيراً ، فقد نادوه من جنبات المسجد سماً سماً ، فناداهم  
عدلاً عدلاً .

أما الرابعة ، وهي خاصة بما أرجفوا به من مرض أخيه وموته ، فظاهر فيها .

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

(٢) سورة الأقال آية ١٩ .

السخط على طول عصيانهم ، وعدم إيمانهم بحق الخلافة القدس ، وفيها إشاعة روح اليأس في نفوسهم ، ورغبة ملحة في أن يستريح من ثوراتهم وأراجيفهم ، وإن أضرموا شراً ، فلا شأن له بالضمير .

وروح الخطبة الخامسة تهديد ووعيد وسباب وشم . وختامها دعوة إلى الطاعة ووعد بالثوبة عليها إن حدثت . وهي كالأولى في زخرفها وزينتها وبخاصة الطباق في « ظهور وبطون » والبخل والجود ، ثم حسن التقسيم ، واتساق الفواصل وقوة النغم .

وكل خطبة من هذه الخطب الخمس مثال واضح لعتبة ، وإذا كان هناك ما تجتمع فيه من الصفات فهو دورانها حول التحذير والإنذار بالمعذاب الشديد ، والدعوة إلى الطاعة ليجزيهم خيراً بخير ، والإكبار لحق الخلافة وبيان فضلها ، وفي أسلوبه قوة ، وفي عباراته رنين ، وفي ألفاظه انسجام ، وفي زخرف جملة بُعد عن التكلف .

أما خطبته التي لم يعد بعدها إلى المنبر ، فهي خطبة التوبة والندم ، وهي خطبة النفس التي تحس بما قدمت ، وتخشى ما هي مقدمة عليه ، ففيها معنى الحسرة على ما فرط في جنب الله ، وعلى ما يحتمل من ظلمه لعباد الله ، ولكنه واسع الرجاء في المغفرة .

وهذه كلها خطب سياسية ، طابعها الشدة والتحذير والوعيد ، لأنها كانت في عهد تكوين الدولة وتأسيس الملك الأموي ، والناس قريبو عهد بثورة ، ولكنها تتسم بسمة معاوية أخيه ، من اختلاط الوعد بالوعيد ، ومزج اللين بالشدة ، والإغراء بالمغو والجزاء .

ولا يفرقها عن غيرها من خطب هذا العهد في قوة الأسلوب وحسن التصوير إلا أنها مصرية الموطن ، ولو قيلت في العراق أو الشام لما اختلف إلا المخاطبون ،

وهذا يؤيد ما نكرره من أن أدب هذه اليهود أدب عربي الصبغة ، صادف أن قيل في أرض مصر فنسب إلى هذه الديار واتصل بأدبها .

### كلمة عامة عن الخطابة :

وكان عتبة آخر الخطباء الذين حفظ لهم الأدب خطباً من ولاية مصر ، ولكن الخطابة لم تمت بموته ، فدواعيها ظلت موجودة ، وولى أمر الناس رجال ذوو لسان وفصاحة ، ولكن النصوص التي تؤيد هذا القول غائبة ، وإن كانت أدلتها شاهدة فن الأحداث الهامة التي حدثت بمصر ثورة محمد بن أبي حذيفة على عتبة بن عامر ، وإخراجه من الفسطاط ، والدعوة إلى خلع عمان . ومثل هذه الثورة على عمان لا يمكن أن تثور بلا مثير ، ومن أهم وسائل الإثارة أن يخطب الساخطون ، بالطمع على عمان ، وبيان ما يأخذونه عليه ؛ وكانت لابن أبي حذيفة طريقة ماكرة في التفرير بالناس ، فقد كان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم ، فيجعلهم على ظهور البيوت ، فيستقبلون الشمس بوجوههم لتلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، وأن يرسلوا رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم ، وأمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر في الكتب ثم يخرج محمد بن أبي حذيفة والناس للقائهم ، كأنه يتلقى رسل أزواج النبي عليه السلام ، فإذا لقوهم قالوا : لا خبر عندنا ، عليكم بالمسجد ، فيجتمع الناس في المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير ، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبي ، ثم يقوم القارىء بالكتاب فيقول : إنا لنشكوا إلى الله وإليكم ما عمل في الإسلام وما صنع في الإسلام . . . ثم يقول ، ثم ينزل عن المنبر ، وينفر الناس بما قرئ عليهم (١) .

وبعث إليهم عثمان بسعد بن أبي وقاص يعطيهم ما سألوا ، فبلغ ذلك ابن أبي حذيفة فخطبهم ، ثم قال : ألا إن الكذاب - كذا وكذا - قد بعث إليكم سعد بن مالك ليُقلِ جماعتكم ، ويشتمت كلمتكم ، ويوقع التخاذل فيكم ، فانفروا إليه . فخرج إليه منهم مائة أو نحوها ، فلقوه بمرحلة بني سعد وقد ضرب فسطاطه وهو قائل ، فقلبوه عليه ، وشجّوه وسبوه ، فركب راحلته وعاد راحلا من حيث جاء (١) .

هذه مرة أشير فيها إلى المنبر والخطبة في ثورة ابن أبي حذيفة ، ولا بد أن المنبر والخطبة كانا وسيلتهم لإيقاظ الفتنة وإشعالها .

وكيف يمر النزاع بين علي ومعاوية بلا خطب ، وقد كان لكل منهما أنصار بمصر ؟ وكيف يمر ما كان بين ابن الزبير وبني أمية بلا خطب ، وقد كثر مثيله في الحجاز والعراق والشام !

ونسمع مرة أخرى بالخطابة في عهد عمر بن عبد العزيز (٢) ، فقد طلب أن يدلوه على رجل من أهل مصر له شرف وصلاح يوليه صلاحها ، فدلوه على أيوب بن شرحبيل ، فكتب إليه بولايته ، وأمر البريد أن تكون موافاته يوم الجمعة ، ففعل . فراح أيوب إلى المسجد فركع قريبا من المنبر : فلما أذن المؤذن صعد أيوب المنبر ، فخطب الناس وصلى بهم الجمعة وانصرفوا .

وهناك موقف ثور فيه العاطمة وتنطلق الألسنة ، كان المنبر أظهر وسائل البيان فيه ؛ فإنه لما قتل زيد بن علي زين العابدين رضي الله عنه قدم أبو الحكم بن أبي الأبيض العبسي إلى مصر سنة ١٢٢ خطيباً رأسه ، واجتمع الناس إليه في المسجد الجامع ، ولعله رثاه وبكاه ، واستنمّص الناس للقيام بثورة علي قاتليه ، وبين لهم عيوبهم وسيئاتهم ، ولكن نص خطبته أو شيء منها ليس مذكورا (٣) .

وقد يشير الراوى إلى هيئة الخطيب ، ويسترعى انتباهه ملبسه وهندامه ، فيذكر ذلك ولا يذكر خطبته ، قالوا ، كان والى مصر سنة ١٢٤ هـ حنظلة بن صفوان ، وكانت له ربطة مثنية يلبسها ويصلى فيها ، فإذا كان يوم الجمعة احتزم بها على قباء أبيض ، وتقلد السيف ، ثم يصعد المنبر فيخطب<sup>(١)</sup> .

وقد يكون المنبر سلم ضراعة ودعاء : روى أن حفص بن الوليد استسقى بالناس في إمارة هشام بن عبد الملك ؛ قال بكر بن مضر فرأيتُه رقى المنبر ، واستقبل الناس بوجهه يخطب ، ودعا ، ثم حول ظهره إلى الناس ، واستقبل القبلة يدعو . وحول رداءه ودعا الله ، ثم حول وجهه إلى الناس ، ثم نزل فصلى ركعتين<sup>(٢)</sup> .

ولا بد أنه كان يدعو بالمأثور في الاستسقاء ، يسأل الله أن ينزل الغيث عمياً ، وأن يجعله حول الناس والدور لا عليهم ، وأن يجعله كثيراً الخ .

وفي عهد مروان بن محمد كان ثابت بن نعيم ممن خالف عليه ، وقدم مصر ومعه نفر من اليمانية ، نخطبوا في مسجد مصر ، ودعوا الناس إلى خلع مروان . فموضوع الخطبة ظاهر ، وهي خطبة سياسية بلا شك<sup>(٣)</sup> .

ولما ولي حوثره بن سهيل الباهلي مصر سنة ١٢٨ ، أرسل الخليفة كتاباً بشأنه يقول فيه : قد بعثت إليكم رجلاً أعرابياً بدوياً فصيح اللسان . فاجمعوا له رجلاً فيه مثل فضاله « لعلها خصاله » يسدده في القضاء ، ويصوبه في النظر .

فأجمع الناس كلهم على الليث بن سعد وفيهم معلماء يزيد بن أبي حبيب وعمرو ابن الحارث ، وجمع الجند إلى المسجد فخطبهم الحوثره بشعر بليغ<sup>(٤)</sup> ومنه :

دعوت أبا ليلى إلى الصلح كي يبو  
دعاني لشبّ الحرب بيني وبينه  
برأى أصيل أو يرد إلى حلم  
فقلت له مهلا هـلم إلى السلم

(٢) ص ٨٢

(٤) ص ٨٨

(١) الولاة والقضاة ص ٨٢

(٣) ص ٨٥

ولما وليها عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، من قبل مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ ، أمر الناس بأخذ النار في الكور ، ولم تكن قبله ، وإنما كانت ولاية الكور يخطبون على العصي إلى جانب القبلة (١) .

فهذا الاهتمام بالأشياء المتصلة بالخطابة كرجالها ومنابرها وموضوعاتها يدل على وجود هذه الخطابة ، ومن البديهي أن تكون موجودة ، ولكن النص الأدبي الذي نحتكم إليه عند ما نريد أن نحكم على قوتها أو ضعفها ، أو اتجاهاتها العامة والخاصة ، أو تنوعها ، أو غير ذلك من صفاتها ، ليس بين أيدينا .

والظاهر مما تقدم أنها كانت قوية ، وكانت متنوعة ، فكان منها السياسي كخطبة أيوب بن شرحبيل ، ومنها الديني كخطبة حفص بن الوليد ، ومنها الثوري كخطبة ثابت بن نعيم ، ومنه الهادي كخطبة الحوثة .

أما الخطب الحربية فكان لها موضعها في أول الفتح ، وفي عهد النزاع بين علي ومعاوية ، وعند هجوم مروان على جند ابن الزبير بمصر ، وفي عهد زحف العباسيين عليها سنة ١٣٢ هـ .

وقد تشمل الخطبة أكثر من موضوع ، كخطبة عمرو المتقدمة (٢) .

وعند كتب التاريخ من أخبار الفتن والثورات والأحداث إلى قيام العباسيين ما يجعل المؤرخ للخطابة يرجع وجودها وقوتها بسبب هذه الدواعي كاضطراب الأمر على بني أمية ، وهرب مروان بن محمد إلى مصر ، وقدم جيوش المسودة وراءه .

فقتضى هذه الثورات والفتن والأحداث أن يكون للخطابة شأنها لقلة شأن الكتابة عندئذ ، وعدم غنائها في مثل هذه الظروف ، وعدم غناء الشعر في مناقشة

(١) الولاية والقضاة ص ٩٣ .

(٢) أنظر ص ٢٠ من هذا الكتاب .

آراء ، أو بيان حق ، أو دعوة إلى نصره ، أو ما شابه ذلك . ولكنها كانت أقل عدداً ورجالاً منها في العراق والشام والحجاز .

وما حفظه التاريخ من هذه الخطب قليل نادر ، وليس هناك نص كامل لخطبة من هذه الخطب . وأسباب قلة المروي من الخطابة العربية تلخص فيما يلي :

١ — كانت بيئة الفصاحة والبيان في جزيرة العرب مهد الفصحى ، والشام والعراق مهاجرها في عهد بني أمية ، فخرج في هذه البلاد مشاهير الشعراء ، كما ظهر فيها مشاهير الخطباء من الخلفاء ، كماوية ، وعبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشام ، ومن فصحاء الولاة كزياد والحجاج وخالد القسري ، ومن زعماء الغاضبين على بني أمية ، كالحسين وابن الزبير وابن الأشعث ، وزعماء الخوارج كنافع بن الأزرق ، وقطري بن الفُجاءة ، وأبي حمزة .

٢ — جد من الحوادث والفتن في تلك البلاد ما جعل الخطابة تشتعل مع هذه الثورات المشتعلة ، وكان بنو أمية في شغل بأمر ولاية العهد ، ولكل منهم هوى في ابنه بدلا من أخيه أو ابن عمه مثلا ، ويبدأ ذلك من عهد معاوية . فتشغل الخطابة في بيعة يزيد طويلا . وابن الزبير يفض لهذه البيعة وتسنع الفرصة لخروجه بعد معاوية ، ويستولى على أكثر البلاد الإسلامية ، وتشغل الخطابة مؤيدة ومعارضة ، وبخاصة في الحجاز والعراق .

ويفضب الشيعة لما يصيبهم من محن ، فتثور ثوراتهم ، وتعلو منابرهم . ويخرج الخوارج ، ويشغلون بني أمية ، ويكادون يذهبون بملكها ، فيكثر فيهم أعيان الخطباء ، وتشغل الدولة بهم أكثر مما تشغل بغيرهم .

ولا ينال آل البيت على ضيقتهم ، فكانوا كلما أصيبوا في ثورة نهضوا الأخرى ؛ وكان البيان من أقوى وسائلهم لنشر دعوتهم ، وبخاصة في بلاد المشرق ، فهضت هناك خطابة مثيرة ، ولكنها كانت تحاول أن تكون منطقية أيضا . وفي هذه

البلاد الشرقية ، ظهر دعاة بني العباس من الفرس ، وعلت أصواتهم كما لمت سيوفهم .

٣ — كان للبيان منزلته عند الخلفاء ، وكان منزلة من مزايا الولاية . فإذا ظهر وال من ولايتهم بحسن الإدارة ومعالجة الفتن مثل الحجاج ، كانت الخطابة من مزايه أيضا ، وكانت الحاجة إلى هذا النوع شديدة في العراق لافي مصر ، كما كانت ولاية العراق جزاء وفاقا لإخلاص هؤلاء الولاية وجهودهم ، إذ كانت أهم ولاية في الدولة من حيث الأعباء الملقاة على عاتق واليها ، ومن حيث المنزلة العالية التي لها .

٤ — ثم إن الرواة الذين يتحملون الخطب وينقلونها كانوا كثيرين في العراق والحجاز والشام ، حيث يكثر الأدب وتروج سوقه عند الأمراء والولاية والأعيان . فرووا ما كان حولهم من هذا الأدب القوي خطابة وشعراً .

٥ — وتدوين التاريخ الأدبي فيما بعد كان له أثر في إهمال الأدب المصري ، فقد عني بالشام لأنها مركز الخلافة ، وبالحجاز لأنها موئل العربية ومنبعها ، وبالعراق لأنها مركز حركة أدبية وثورات سياسية أنبتت أدبا عظيما .

### في عهد العباسيين :

قامت دولة بني العباس على أكتاف الدولة الأموية ، واتخذت البيان سلاحاً واعتمد رجالها على البلاغة — بين ما اعتمدوا عليه — ليكسبوا عطف الناس وقلوبهم ، وليثيروا النفوس على أعدائهم حتى إذا مكن الله لهم في الأرض ولوا من أمور المسلمين ما كان يليه الأمويون ، وصارت لهم الإمامة وخطبة الجمعة وقيادة الجيوش ، فقويت دواعي الخطابة في أيامهم وظهر فيهم خطباء مصاقع كما ظهر من ولايتهم ورجال دولتهم من يذكروهم تاريخ الأدب كلما عرض لهذا النوع من البيان . وتوحي ظروف مصر في القرن الثاني وأوائل الثالث بنشاط الخطابة وقوتها

بسبب الأحداث والفتن الكثيرة . وتؤيدنا كتب التاريخ في الإشارة إلى هذه الخطب ورجالها ، لكننا نفتقر إلى نصوص أدبية يجعلها عمادنا في الحديث عن الخطابة المصرية زمن العباسيين .

ومن خطباء الولاية موسى بن كعب<sup>(١)</sup> ، والى المنصور عليها سنة ١٤١ ، ويؤثر عنه أنه كان يقول في خطبته : « من كان يريد جارية فارهة أو غلاماً فارهاً فليرفع يديه إلى الله » وقال في خطبته « هذا أخوكم عبد الغفار الأزدي كان معكم منذ ثلاث سنوات ثم مات . فلا تغفلوا عما نزل به » .

ولاشي في خطبته يشير إلى مصر ، ولكنه خطبها في مصر وعلى منابرها . وهو في هذا الأمر المأثور عنه يوجه الناس إلى باب الكريم ، ويأمرهم أن يدعوا الله لغناهم ، ولعله كان ضيق الصدر برغبات المحتاجين . وعبارة الكندي تدل على أنه كان يكرر النص الأول ، أما النص الثاني فهو أقرب إلى الوعظ . وكان المنبر للطعن في الأعداء وشفاء النفس من المنافسين :

يروى أن محمد بن بجير كان والياً على الشرطة لمحمد بن الأشعث والى مصر سنة ١٤١ وكان في نفسه ثورة على أبي عون والى مصر قبل ذلك . فكان ابن بجير يصعد المنبر ويقول : النخاس ، الكذاب<sup>(٢)</sup> .

ووليها للمنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب<sup>(٣)</sup> (سنة ١٤٤ - ١٥٢) وفي ولايته ظهرت دعوة بني حسن بمصر ، وتكلم بها الناس ، وباع كثير منهم لعل بن محمد بن عبد الله بن حسن ، وهو أول علوي قدم مصر ، وإن دعوة كهذه

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٥ .

كان موسى من نقباء بني العباس وقد اتهم بأنه من المسودة في أيام الأمويين ، فأمر به أسد ابن عبد الله البجلي فأجلم بلجام ، ثم كسرت أسنانه ، فلما صار الأمر إلى بني هاشم أمالوا على موسى الدنيا ، فكان يقول : كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز ، ولما جاء الخبز ذهبت الأسنان .

(٢) الولاية والقضاء ص ١٠٩ . (٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١ .

لتحتاج إلى بيان وخطابة ، ومن طبيعة اجتماعاتها أن يكون فيها مناقشة وجدل ،  
وحجج تؤيد بعض الآراء وأخرى تدحضها وهكذا .

وقدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن في سنة ١٤٥ ،  
فنصبوه في المسجد الجامع ، وقامت الخطباء فذكروا أمره ، ومنهم شبة بن عقال<sup>(١)</sup> .  
وربما أغرب بعض الخطباء في ملابسهم فروى الثورخ ذلك وأهل الخطبة ،  
فقد روى أن عكرمة بن قحزم كان على شرطة أبي عون فخطب وعليه رداء نارنجي ،  
وكان ابن بجير على شرطة ابن الأشعب يخطب في قيص وساج . وأول من خطب  
في السواد عبد بن الله عبد الرحمن بن معاوية بن حديج<sup>(٢)</sup> .

ومن التلميحات السريعة عن الخطابة ما روى أن أبا يحيى الصدفي<sup>(٣)</sup> قال :  
« رأيت موسى بن علي بن رباح والي مصر لأبي جعفر يخطب على منبر صغير خارج  
من القصورة » .

وفي عهد موسى بن مصعب<sup>(٤)</sup> ثارت القيسية واليمانية ، وكتبوا أهل مصر  
فانفقوا عليه ، وانهزم عنه أصحابه وقتل ، ولم يتكلم أحد من أهل مصر لأجله كلمة  
واحدة . وكان موسى هذا ظالماً غاشماً . سممه الليث بن سعد يقرأ في خطبته : « إنا  
اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها » فقال الليث : اللهم لا تقه منها .

وقال ابن عفير<sup>(٥)</sup> : ما رأيت أحداً على هذه الأعواد أخطب من إسماعيل بن  
صالح ( والي الرشيد على مصر سنة ١٨١ - ١٨٢ ) . وشهادة ابن عفير لها قيمتها ؛  
لأنه أديب ومحدث ثقة ، فشهادته مقبولة .

ولما مات موسى الرضا وانخزل إبراهيم بن المهدي ، كتب المأمون إلى السري

(١) الولاة والقضاة ص ١١٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧ . (٣) الولاة والقضاة ص ١١٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٤ . (٥) الولاة والقضاة ص ١٣٨ .

بذلك وبغسل المنابر التي دعى عليها لعلى بن موسى <sup>(١)</sup>.

### من الطولونيين إلى الفاطميين :

استمرت الخطابة ولكنه لم يعد يذكر عنها شيء إلا ما كانت تشتمل عليه من دعاء للخلفاء ومن يشار إليهم في سلطانهم . وقد يكون ذلك بصيغ خاصة تدون ثم تتلى في كل خطبة .

روى أن الموفق سجن أخاه المعتمد سنة ٢٩٦ وكتب ابن طولون بذلك إلى نائبه في مصر ، ووصف في كتابه بؤس المعتمد وبكائه مما صار إليه حاله ، نحط الخاطب يوم الجمعة فذكر ما نزل بالمعتمد ، وزاد في خطبته ( اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه <sup>(٢)</sup> ) .

وكان يدعى على الموفق في مصر ، فلما صالح خمارويه دعى له على المنابر بدلاً من الدعاء عليه .

وانتهى أمر الدولة الطولونية ، وأحرقت القطائع ، ونهبت الفسطاط سنة ٢٩٢ وأطلق من في السجن . وأمر محمد بن سليمان ، الوالي الجديد ، بأن يدعى على المنابر لأmir المؤمنين المكتفي بالله وحده . وهكذا حتى وليها محمد بن طغج <sup>(٣)</sup> وفي سنة ٣٢٧ زيد في لقبه الإخشيد ودعى له بذلك على المنابر .

ثم استبد كافر بأمر البلاد ودعى باسمه على المنابر سنة ٣٥٥ .

وانتهى أمر الطولونيين سنة ٣٥٨ بدخول القائد جوهر فاتحاً باسم المعز لدين الله وخطب له على المنابر ثم جاء المعز نفسه سنة ٣٦٢ هـ .

ولاشك أن الخطابة قد ضعفت في عهد العباسيين ، وكانت بمصر أضعف ، وبخاصة

(١) الولاة والقضاة ص ١٧٠ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٢٦ .

(٣) الولاة والقضاة ص ٢٨٨ .

في القرن الثالث ، وذلك لقيام الكتابة مقامها ، وعدم الاطمئنان إلى الخطابة في  
المواقف التي تحتاج إلى الدقة ، ووزن الكلمات ، والحذر من عثرات اللسان ، كالأمر  
السياسية . فإذا أضيف إلى ذلك ضعف ولاة الأمور والناس عامة في اللغة ، عرفنا  
أن الخطابة قد صار أمرها إلى الضعف ، وأن الكتابة أغنت غناءها ، وصارت  
الكتب تعد بعناية وتتلَى من فوق المنابر ؛ ففي خلع الموفق كتب أحمد بن طولون  
كتاب الخلع على نسخ ، وأنفذ إلى كل عمل من أعماله نسخة تقرأ على المنبر في  
جميع الأمصار (١) .

ويقول ابن عبد كان (٢) : لقد أمرني أحمد بن طولون يوماً بإنشاء كتاب  
يقرأ على المنبر ، فأنشأته ، ودفعته إلى محبوب ليقراه . وفي رسالة ابن طولون إلى  
ابنه العباس تهديد من الأب إلى ابنه بأن يرسل إلى الأقطار التي يحكمها  
كتباً تقرأ على المنابر فيها لعن العباس والبراءة منه يتناقلها آخر عن أول ،  
وتنجد في بطون الصحف ، وتحملها الركبان ، ويتحدث بها في الآفاق (٣) .  
وفي كتاب ابن طولون هذا ، بيان لفضل الكتابة على الخطابة بأنها أبقى  
على الزمن ، وأذيع في الآفاق ، وأدق عند الانتقال من بلد إلى بلد ، أو من جيل  
إلى جيل .

ومع هذا فن المسير أن نسلم بفناء الخطابة أو ذهاب رجالها ، وإنما الذي  
نعنيه هو قلة دواعيها وضعف الناس في اللغة ضعفاً يقعدهم عن بديهة الخطابة ،

ولكن ورد في سيرة ابن طولون أن محبوب بن رجا كان فصيحاً ، وأنه ذكر في  
مجلس ابن عبد كان يوماً فقال عنه : إنه كان بين الفضل ، فصيح اللسان ، وإنه لما

(١) سيرة ابن طولون ص ٢٩٥ .

(٢) سيرة ابن طولون للبلوي ص ٢٩٥ (٣) صبح الأعشى ج ٧ ص ٥

تسلم الكتاب المشار إليه قريبا ، وهو الذي كتبه ابن عبدكان ليقرأ على المنابر ، دفعه إلى صاحب دواته ليسلمه إليه في الجامع ، ففسى الغلام وحمل شيئا آخر ، وهو يظن أنه الكتاب ، وركب الأمير إلى الجامع ، وصعد محبوب المنبر ومعه ذلك الشيء الآخر الذي حمله إليه الغلام . فلما نشره محبوب علم أن الغلام أخطأ . فاندفع محبوب ، ومضى يقرأ ، وينشر ما في يده ويطويه ، ليوهم من يراه أنه يقرأ الكتاب ، وكانت ألفاظه عذبة حسنة في المعنى الذي كان قصده ، وفطن لذلك ابن عبدكان وحده لأنه صاحب الكتاب الأول<sup>(١)</sup> .

ويدل ذلك على أن الخطب قد صارت كتباً تمتد وتتل من فوق المنابر ، وأن الكتاب هم الذين كانوا ينشئونها ، وتدل هذه الحادثة التي ظهرت فيها فصاحة محبوب بن رجا وحسن تصرفه على أن الزمن قد يجود بمن يستطيع القول على البديهة ، والتخلص من المآزق ، والإجادة فوق المنابر . وهذا مثال آخر يدل على أنه كان في زمن ابن طولون قوم من ذوى البديهة الحاضرة ، والبلاغة المواتية ، والحيلة المنجية :

من ذلك أنه راح في يوم جمعة إلى المسجد فلما رقى الخطيب المنبر وخطب ، دعا للمعتمد ولولده ، ونسي أن يدعو لأحمد بن طولون ، ونزل عن المنبر مرقة ، فأشار ابن طولون إلى سوار الخادم أن إذا فرغ من صلاته وخرج اضربه خمسمائة سوط ، فتذكر الإمام وهو على المرقة الثانية ، فرجع إلى أعلى المنبر وقال : الحمد لله وصلى الله على محمد ، « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ففسى ولم نجده له عزما » اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون . وزاد في الدعاء له ثم نزل عن المنبر . قال سوار : فنظر إلى مولاي وقال لي : اجملها دنائير . ووقف الخطيب على ما كان منه فحمد الله جل اسمه على سلامته ، وهنأ الناس بالسلامة<sup>(٢)</sup> .

(١) سيرة ابن طولون ص ١٤٧ (٢) سيرة ابن طولون ص ١٥٩ ، وفي خطط المقرئى أن هذا الخطيب كان أبا يعقوب البلخى .

## (ب) الوصايا

هي نوع من الأدب غايته التوجيه والإرشاد ، والحث على اكتساب المحامد ، والتبصير بحسن السياسة ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

والوصايا تلحق بالخطب ، لما يجمع بينهما من مشافهة المخاطبين ، والحرص على إقناعهم في أسلوب قوى محكم ؛ ثم يختلفان فيما عدا ذلك ، فتكون الخطابة لجماعة حاضرة تسمع قول الخطيب ، والوصية لجمع ولو واحد ، وللغائب والشاهد ، وتكون نثراً كما تكون شعراً ، وتكون كتابة وقولاً . وموضوع الخطب أعم من الوصايا ، فهذه لنفع المخاطبين دائماً ، أما الخطب فقد تبعد عن ذلك ، فتكون تهديداً أو رثاء ، أو مدحاً ، أو دعوة إلى مذهب ...

وهذه الوصايا المتنوعة ، تختلف بين الطول والقصر ، ومنها : الوصايا السياسية ، والحربية ، كوصية أبي بكر رضى الله عنه إلى قواده وقد أرسلهم لفتح البلاد<sup>(١)</sup> . ومنها الوصايا الفنية كوصية عبد الحميد بن يحيى إلى أهل صناعة الكتابة<sup>(٢)</sup> . ومن أحسن وصايا النساء وصية امرأة عوف بن عجم الشيباني لبنتها وقد تزوجت ، وهي التي وصتها فيها بزوجها ، وابتدأتها بقولها : « كوني له أمة يكن لك عبداً<sup>(٣)</sup> » .

وقد تكون الوصية شعراً ونثراً كوصية عبد الله بن شداد لابنه ، وقد أراد سفراً<sup>(٤)</sup> ، وقد تكون شعراً خالصاً كوصية ابن سعيد المغربي لابنه<sup>(٥)</sup> أبي الحسن ومطلماها :

(١) ص ٢٥٤ تاريخ الأمم الإسلامية خضرى أول (٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ١٤٧ (٤) الأمالي ج ٢ ص ٢٠٢

(٥) هو من شعراء القرن السابع توفى سنة ٦٧٣ هـ .

أودعك الرحمن في غربتك مرتقباً رُحماً في أوبتك

ومن خير هذه الوصايا وأشملها وأجلها كتاب مشهور من طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله ، لما ولاء المأمون الرقة ومصر وما بينهما ، فكتب إليه أبوه ذلك الكتاب ، ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه : من الآداب الدينية والخلقية ، والسياسة الشرعية واللوكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة .

وهو كتاب شامل ، قيل إنه لما علم المأمون به حرص على أن يذاع على الولاة في جميع الأمصار ، فكتب نسخة منه إلى كل مصر في دولته<sup>(١)</sup> .  
أما جانبه الأدبي فيمكن في وصفه ، من حيث القوة والوضوح والسهولة ، والاسترسال ، أنه من إنشاء طاهر بن الحسين .

ولا يختص بالوصايا زمان ولا مكان ، فهي شائعة ما احتاج الناس إلى موعظة . وقد حفظ الأدب قليلاً من هذه الوصايا في عهد الولاة بمصر ، ومن أولها وصية قيس بن سعد بن عبادة ، والى مصر لسيدنا علي ، يوصى بها محمد بن أبي بكر ، خلفه في منصبه ، وهذه قصتها :

عزل علي رضي الله عنه قيس بن سعد بن عبادة عن مصر ، وولى مكانه محمد بن أبي بكر ، ثم إن قيساً لقي محمد بن أبي بكر فقال له<sup>(٢)</sup> :

« إنه لا يمنعي نصحي لك ولأمير المؤمنين عَزُّهُ إياي ، ولقد عزلني من غير وَهْنٍ ولا عَجْزٍ ، فاحفظ عني ما أوصيك به يَدُمُ صلاح حالك ، دع معاويةَ بنَ حُديجٍ ، ومسلمةَ بنَ مُخَلَّدٍ وُبُسْرَ بنَ أَبِي أرطاة ، ومن ضَوَى إليهم ، على ما هم

(١) الكتاب بتمامه في مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٤ .

(٢) ص ٢٧ الولاة والقضاة .

عليه تكشفهم عن رأيهم ، فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلفوا عليك فلا تطلبهم . وانظر هذا الحى من مضر فأنت أولى بهم منى ، فالن لهم جناحك وقرب عليهم مكانك ، وارفع عنهم حجابك ؛ وانظر هذا الحى من مدج فدعهم وما غلبوا عليه ، يكفؤا عنك شأنهم ، وأزل الناس من بعد على قدر منازلهم ؛ وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل ، فإن هذا لا ينقصك . ولن تفعل ! إنك ، والله ، ما علمت : لتظهر الخيلاء ، وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك . والله موفقك . » .

فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس ، واشتد مع الخوارج فلاقوه بأشد مما أعد لهم ، فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم . وهذه الوصية سياسية يرسم فيها منهجاً واضحاً لخلفه ، كي تستقيم له الأمور . وتجتمع عليه القلوب ، ويسكت عنه الأعداء ، وقد أحسن المقدمة إذ تناسى الظرف الذى هو فيه ، ظرف المزل عن الولاية ، وقدم نصيحته خالصة ، ولكنه ختمها بما يحمل على مخالفتها ، إذ قال لمحمد « ولن تفعل فإنك والله لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك » فكأنه كان يحرضه فى ختامها على رفضها وليس ذلك محموداً فى النصيحة ، فإذا كانت من معزول إلى خلفه كانت موضع شك واتهام ، وكان الميل إلى الخروج عليها أشد . فكيف يذكر له عيوبه ، ويحتم بها وصيته ؟

وأما مروان فقد جاء مصر فاتحاً ، وانتصر ، وولى ابنه عبد العزيز أمرها ، ثم رجع بعد أن وصاه . ويقول صاحب النجوم الزاهرة « ثم خرج من مصر بعد أن أوصى ولده عبد العزيز بوصايا كثيرة مضمونها الرفق بأهل مصر »<sup>(١)</sup> . ومن هذه الوصايا التى حفظها التاريخ عن مروان بن الحكم ثلاث وصايا نعرضها هنا :

أولاًها وصية سياسية تبدو فيها مهارة مروان ؛ إذ أوصى ابنه أن يستغل عواطف الناس وطبائعتهم ، وأن يرضى فيهم غرورهم ، ليكونوا له عوناً على أموره . وذلك أنه لما انتصر مروان بمصر على جيوش ابن الزبير ، وقبل صالح بن جندب شروط الصلح ، كتب مروان بيده كتاباً لأهل مصر ، ثم ولى عبد العزيز عليها ، فقال له : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلاد ليس به أحد من بني أبي ؟ فقال له : « يا بني ، عُمَّهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تَصِفُ لك مودتهم ، وأوقِعْ إلى كل رئيس منهم أنه خاصَّتْك دون غيره يكن عيناً لك على غيره ، وينقادُ قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك ، وخولك في منزلك<sup>(١)</sup> » أوصاه بالجلود واشتراء الرقاب ، وتلك خطة طالما أفلحت في حمل الناس على الطاعة ، وأوصاه أن يكون طلق الوجه كي يخلصوا له المحبة ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل انقلب سياسياً يريد أن يفرق بين الناس كي لا يجتمعوا عليه ؛ وأخص ما أراه في هذه النصيحة أن قائلها يعرف نواحي الضعف في النفس الإنسانية ، ويريد لابنه أن يستغلها لمنفعته . ومنها حب المال وإرضاء ما في النفس من غرور ؛ وهذه الوصية نتيجة تجارب طويلة في الأعمال التي كان يليها معاوية ، ووحى بصيرة نافذة تعرف ما يصلح للعرب من سياسة .

والثانية وصية دينية . خلقية . يهتم فيها بالشورى ، قال عبد العزيز بن مروان : أوصاني مروان حين ودعته عند مخرجه من مصر إلى الشام فقال<sup>(١)</sup> : « أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلايتك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأوصيك ألا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً ، فإن المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك ، » إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .

(١) الولاة والقضاة ص ٤٧ .

وأوصيك ألا تمجل في شيء من الحكم حتى تستشير ، فإن الله عز وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالوحي الذي يأتيه ؛ قال الله عز وجل « وشاورهم في الأمر » .

إيها وصية أب صالح يرغب ربه ، ويرعى أوامره ، ويدرك أن ابنه في عمله هذا ذو سلطان مستمد من الدين ، فهو أولى الناس باتباع أوامره ، ومن أول هذه الأوامر أداء الصلاة في وقتها .

والوفاء بالوعد صفة حميدة يدعو إليها الدين ، ويدعو إليها الخلق العربي ، والشورى لها مزاياها ، والدين يأمر بها ويمدحها .  
وتراه يقوى هذه الوصية بآيات القرآن الكريم . فهي في جملتها وصية صالحة من خليفة المسلمين ، إلى من يلي أمراً من أمور المسلمين .

ولما انصرف « مروان بن الحكم » من مصر إلى الشام ولي « عبد العزيز » ابنه على مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكماً ولا توصه » ، أي بني ؛ انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق عُذوة<sup>(١)</sup> ، فلا تؤخرهم إلى عشية ، وإن كان لهم عشيةً فلا تؤخرهم إلى غدوة ، وأعظم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعييتك منك كذب [ فإن تعلقوا عليك بكذبة<sup>(١)</sup> ] لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبن لك فاكتب إلى يأتك رأي فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من رعييتك فلا تؤاخذ به عند سؤره الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب ، مُطفأً الجمره ، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ، ذا أناة ، ثم انظر إلى ذوى الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك ،

(١) زيادة يتم بها المعنى وهي غير موجودة في الأصل .

ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم . على غير استرسال ولا انقباض . أقول قولي هذا واستخلف الله عليك<sup>(١)</sup> .

هذه الوصية الثالثة أطول وصايا مروان وأشمها ، فهي سياسية : توصي بالعمال خيراً ، لما لهم من فضل في إدارة البلاد ، وأول ما يجب لهم أن ينالوا جزاءهم في وقته ، وأن يأخذوا حقهم في مواعده ، فإنهم إذا شبت بطونهم عفت نفوسهم ، ودامت طاعتهم .

وهي خفية توصي بالصدق في معاملة الرعية ، واستشارة أهل الشورى من الجلساء والعلماء . وإذا كانت هذه منزلتهم فعلى الوالى أن يحسن اختيارهم من أهل الحسب والدين والمروءة ، وأن يعرف منازلهم مع احتفاظه بوقاره . أما الدعوة إلى الحكمة في وقت الهدوء والسكينة فذلك لأن سورة الفضب قد تحمل على مجاوزة الحد . والأخذ بأكثر من الذنب ، وتلك الدعوة مصدرها أوامر الدين وروحه .

ولا أستطيع أن أقول بشمول هذه الوصايا لكل ما يجب أن يوصى به . وإنما هي آراء رأها « مروان » صالحة لمستقبل ابنه في ولايته ، فصاغها هذه الصياغة الفنية الجميلة .

وقد جعل « الكندى » الوصية الثانية عند خروج مروان من مصر عائداً إلى الشام ، وجعل « ابن عبد ربه » الوصية الثالثة عند انصراف « مروان » من مصر كذلك . فهما وصيتان لا وصية واحدة ، لذا بينهما من اختلاف في النصائح والأسلوب ؛ وكأن أباه أدرك حاجته إلى كثرة الوصايا فكررهما .

هذه هي كل ما وجدت من عهد بنى أمية بمصر ، ثم يسكت الأدب طويلاً بعد ذلك حتى يأتي عهد ابن طولون فيحفظ مؤرخو دولته من وصايا السياسية الأيوبية شيئاً كوصايا مروان ، وهذه وصية دعت إليها رغبته في دوام الألفة بين أولاده :  
وصى احمد بن طولون ولده العباس حينما رضى عليه ، وأطلقه من قيده ، وخلع

عليه ، وقلده جميع الأعمال الخارجة عن أعمال مصر من الشامات والثغور . وقال له <sup>(١)</sup> :  
« أنا أوصيك يا بني بتقوى الله عز وجل ، ومكافأة أخيك ، والإمساك عن  
الاستطالة عليه ، بزيادة سنك على سنه ، فلا تترك لمن يقصدك من العراق  
مدخلا بينكما ، يتأتى منه لكما ، ولا تسمع ممن يطلب صلاح نفسه بفساد ما بينكما ،  
ولا تضمرن لأخيك غير ما تظهره ، فان القلوب مجنونة . واعلم أن جوار أخيك  
لك أصلح من جوار غيره ، ولا تضمر له خلافا فتبسطا ما بينكما ، ويجد عدوكا بذلك  
سبباً إلى هلاككما . وقد تقدمت بإزاحة علل رجالك ، فاحرص أن يكون خروجك  
إلى عملك قبل وفاتي ، فان الراغب عنك كثير ، أكثر من المائل إليك ، وأخاف  
أن تتلوم على الطمع في موضعي وتترث ، فتذهب نفسك ! بصرك الله رشداً  
ووفقك ، ووقاك ما أخافه عليك ، وأحاذره فيك ، بمَنه » .

وأرى في هذه الوصية حرصاً من الوالد على هدوء الحال ، وإصلاح ما بين  
الإخوة ، وتنبهها إلى خطر الساعين بالفساد .

ودعته إلى الوصية الثانية رغبة ملححة في دوام الملك في بيته ، وعماد ذلك رضا  
الرعية ، بلين الجانب وحسن المعاملة ، ثم بحسن تدبير المال ، والإنفاق منه عند  
الضرورة فقط : وهذه هي : <sup>(٢)</sup>

وصى « أحمد بن طولون » ولده « أبا الجيش خمارويه » قبل وفاته فقال له :  
يا بني لا تعدلن عن مشورتي عليك ، فلن تجد أبداً أنصح لك مني ، قد خلفت  
دخلك بلدك يزيد على ما ينوبك بجيشك وسائر مؤونتك ، فلا تطلقن فيه يداً بجور ،  
فيختل أمرك بخراجه ، ولا تقبل نصيحة من ينتصح لك ، بما يؤول إلى خراب بلدك ،  
والإجحاف بمعامليك فيه ، فانه عدو مبين من حيث لا تعلم ، فانيذنه عنك ، ولا تقربه  
منك . وقد خلفت لك رعيتك لا يطلبون منك إلا لين الجانب ، والأمن من المخاوف :

(١) سيرة ابن طولون ص ٣٤٢ (٢) سيرة ابن طولون ص ٣٣٩

ولم أكن أمنهم لين جانبي بخلاً به عليهم ، ولكني آثرتك على نفسي ، بمنى لهم  
لين جانبي ، والأمن من مخافتى ، فاستعمل أنت ذلك معهم فتملك قلوبهم ، ويبادروا  
إلى طاعتك ، ويهشوا إلى التصرف بين أمرك ونهيك ، فى صغير أمرك وكبيره ،  
ولم آثركك عدواً أخافه عليك ، واعلم يا بنى أن كل سرف يسئول إلى اختلال وتلف .  
ولا تمد يدك إلى المال المحزون عند خير الخادم ، واجعله ذخيرة لملكك ، وأقمه  
مقام جارحة من جوارحك ، لا تبذلها إلا فى شدة تخاف معها فسأدرجسدك ،  
أو عندما تقدر باخراجها صلاح سأدرجسدك » — وكان خير الخادم هذا خادم التوكل —  
ثم قال له : « واسلك يا بنى سبيلى ، واقتفِ آثارى فى سائر من خلفت ، يأنسوا  
بناحيتك ، ويحسبوا طاعتك ، ولا يميلوا إلى عدو يخالفك ، ولا تقبلن مقال  
السماعة فيما تقوى به سُوقهم عندك ، فكل شر وسوء يسئول إلى اضمحلال  
وزوال ، ويهلك فى ذلك من سلكه » .

وإذا كان مروان سخياً فى وصيته ، فقد كان ابن طولون حذراً ممسكاً ، يذكر  
المال شحيحاً به ، داعياً إلى الحرص عليه ، والجانب الأدبى فى وصايا مروان لابنه  
أقوى منه عند ابن طولون ، وسهولة الموعظة وصراحتها واضحة عند مروان ، أما  
ابن طولون فقد شاب وصيته أحياناً شىء من غرابة المعنى ، وغرابة تعليقه ، إذ يقول  
فى وصيته لعمارويه : « ولم أكن أمنهم لين جانبي بخلاً به عليهم ، ولكني آثرتك  
على نفسي بمنى لهم لين جانبي »

وإذا كان مروان قد رأى فى وصيته الأولى أن يعهم ابنه باحسانه ليكونوا  
جميعاً بنى أبيه ؛ فقد كان ابن طولون يرى اللين مؤدياً إلى نفس الغاية ، أما المال فلا  
يدعو إلى بذله إلا عندما تشتد الأمور ، ولا يكون هناك مفر من بذله ، وكان  
مروان أصح رأياً ، وأعمق إدراكاً للنفوس .

# الفصل الثالث

## القصص

في أدب كل أمة قصص يروونها ، وهم يقصدون التسلية وقطع أوقات الفراغ ، أو ينفون إشاعة السرور والبشر ، أو يريدون تهذيب النفس وتلقين الأخلاق وآداب السلوك . وقد يقصدون القيمة الفنية التي تشتمل عليها هذه القصص ، فيعيدون ما يعيدونه منها في مجالهم ومجتمعاتهم ، ويلقونه إلى خاصتهم وعامتهم ، رغبة في إمتاع السامع بجمال البيان ، وحسن السبك ، ولطف التنميق ، ودقة المعنى ، وطرافة الخيال ، وسمو الفكرة ، ونبل المقصد ، وغير ذلك مما يشتمل عليه هذا الأدب ، ويفيده بلفظه ومعناه .

وكان لمصر حظها من القصص ، وهو حظ لا بأس به ، إنه لا يقارب حظ الشام أو العراق أو الحجاز ، من حيث الكثرة والتنوع والذيع ! ولكنه لا يقل عنه في ناحيته الفنية ، فالنمط واحد في قوة الأسلوب ، والمذهب واحد في طريقة العرض ، والشبه قوى في الفاية .

### متى ظهر القصص في الإسلام :

ظهر القصص في الإسلام مبكرا . ونسب إلى « تميم الداري<sup>(١)</sup> » أنه أول من قص في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنه استأذن « عمر » أن يذكر الناس فأبى عليه ، ثم أذن له في آخر ولايته أن يذكر الناس في يوم الجمعة

(١) ص ١٩٠ فجر الإسلام .

واستأذن « عثمان » فأذن له أن يذكر يومين في الجمعة . وقيل إن القصص أُحدث في زمن « عثمان » . وأن « تميم الداري » أول من قص ، وأن هذه النزعة نصرانية بقيت عنده بعد الإسلام<sup>(١)</sup> .

### أول من قص بمصر :

إذا كان « تميم » أول من قص في الإسلام فإن « سليم بن عتر الشجيري » كان أول من قص بمصر . وقد قام بذلك في سنة تسع وثلاثين . ثم لما كان عام الجماعة سنة ٤٠ ولاء « معاوية » القضاء أيضاً ثم عزل عن القضاء وأُفرد بالقصص<sup>(٢)</sup> ، وروى أنه كان يقص على الناس وهو قائم . فلم يرض بذلك القصص « صلة بن الحارث النخعي » من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : والله ما تركنا عهد نبينا ، ولا قطعنا أرحامنا حتى قت أنت وأصحابك بين أظهرنا<sup>(٣)</sup> .

وكان ظهور « سليم بن عتر » وأصحابه رداً من « معاوية » على ما فعله سيدهنا « علي » بعد صفين ، فقد روى أنه قنت ، فدعا علي من خالفه ، فبلغ ذلك معاوية ، فأمر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب ، أن يدعو له ولأهل الشام ، وكتب بذلك إلى الأمصار .

وروى عن سميد بن عفير عن أبيه قال : كان سليم بن عتر قاصاً الجند زمان عمرو بن العاص ، وكان ممن شهد خطبة عمر رضي الله عنه بالجابية ، وحضر فتح مصر<sup>(٤)</sup> .

---

(١) كان تميم من نصارى اليمن . أسلم سنة ٩ هـ وذكر للنبي صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة والدجال . الإصابة ج ١ ص ١٩١ .  
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٩ .  
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٣٢ ، ١٠٤ .  
(٤) الولاة والقضاة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

وقد ظل والياً على القضاء حتى موت معاوية سنة ٦٠ هـ فعزل عنه ، وبقي له القمص حتى مات سنة ٧٥ هـ .

ويظهر أن طريقته في القمص كانت ترضى عبد الله بن عمرو بن العاص . فإنه قد ذهب إليه في جماعة يريد أن يأخذ عليه البيعة ليزيد . فقال له : « وأما أنت يا سليم بن عتر فكنت قاصاً ، فكان معك ملكان يُفتيانك ويُذَكِرانك ، ثم صرت قاضياً فمعك شيطانان يُزيناك عن الحق وبفتنانك .

### صورة هذا القمص :

وكانت صورة هذا القمص أن يجلس القاص في المسجد وحوله الناس فيذكروهم بالله ، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى ، وأساطير ونحو ذلك . لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب<sup>(١)</sup> . وقد روى عن الليث بن سعد<sup>(٢)</sup> أنه جعل القمص نوعين : قصص العامة ويجتمع النفر من الناس إلى القاص يعظهم ويذكروهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ، وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله « معاوية » : ولئى رجلا على القمص ، فإذا سلم من صلاة الصبح جلس ، وذاكر الله عز وجل ، وحمده ومجده ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربيه ، وعلى المشركين كافة .

وقول الليث بن سعد : « إن قصص العامة مكروه لمن فعله ولمن استمعه » .  
فذلك لأن القصص أكثرها من الكذب ، وأضافوا من الأخبار والقصص ما لم يحدث ، وربما أضافوا ما لا يقره العقل من خرافات وسخافات ، حتى روى أن

(١) بحر الإسلام ج ١ ص ١٩١ .

(٢) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٥٣ .

علياً رضى الله عنه طردهم من المساجد . ولم يسلم كثير منهم من الطمن ، حتى الصالحون ، مثل سليم بن عتر . فإذا كان عبدالله بن عمرو شهد له بحسن القصص فإن شهادة صلة بن الحارث الفغاري لم تكن طيبة .

وفي كلام السيوطي عن يزيد بن أبي حبيب الأزدي ( توفى سنة ١٢٨ هـ ) يقول<sup>(١)</sup> : إنه أول من أظهر العلم في مصر والمسائل في الحلال والحرام . وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن . ويقصد بالترغيب المواعظ والقصص ، وبالملاحم والفتن الكلام في التاريخ .

ولم يكن يزيد بن أبي حبيب حداً فاصلاً ، فإن الكلام في القصص والمواعظ كان سابقاً له ومتأخراً عنه . ونحن نسمع بالقصص في عهد الطولونيين : فإنه حينما تزادت العلة على أحمد بن طولون أمر الناس بالدعاء له ، فغدوا إلى مسجد بسفح المقطم سنة ٢٧٠ هـ وحضر معهم القصص فدعوا له<sup>(٢)</sup> .

والتاريخ لم يخل من « الفتن والملاحم » فيما بعد ، ويكفي أن نقرأ فتوح مصر لابن عبد الحكم — وهو أول كتاب عني بتاريخ مصر — فنجد فيه بعض القصص عن تاريخ مصر قبل الإسلام وبعده ، لا تتفق مع الواقع ، وقد يرفضها العقل أحياناً ، كما نجد فيه بعض القصص المحتملة الوقوع في جملتها ، ولا تخفى الزيادة القصصية فيها ، ثم عرف كثير من تلك القصص طريقه إلى التدوين فجمعه المؤرخون .

ومن القصص التي رويت في تاريخ مصر ، قصة مجي عمرو إلى مصر في الجاهلية ، أو قصة عمرو والكرة ، وهذه هي :

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٣١ .

(٢) الولاية والقضاء ص ٢٣١ .

## قصة عمرو والكرة :

قال القضاعي ومن عجائب مصر الاسكندرية وما بها من العجائب ، فمن عجائبها المنارة ، والسواري ، والملعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة ، ثم يرمون بأكرة ، فلا تقع في حجر أحد إلا ملك مصر ، وحضر عيداً من أعيادهم عمرو بن العاص ، فوقعت الأكرة في حجره ، فلك البلد بمد ذلك في الإسلام<sup>(١)</sup> . وكان عمرو قد دخل في الجاهلية مصر ، وعرف طرقها ، ورأى كثرة ما فيها ، وكان سبب دخوله إياها أنه قدم إلى بيت المقدس لتجارة في نقر من قرش ، فإذا هم بِشَّماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية ، قدم للصلاة في بيت المقدس؛ فخرج في بعض جبالها يسبح ، وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه ، وكانت رعية الإبل نوباً بينهم ، فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر ، فوقف على عمرو فاستسقاءه ، فسقاه عمرو من قربة له ، فشرب حتى روى ، ونام الشماس مكانه ؛ وكانت إلى جنب الشماس حيث نام ، حفرة ، فخرجت منها حية عظيمة ، فبصر بها عمرو فزع لها بسهم فقتلها . فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها . فقال لعمرو : ما هذه ؟ فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها ، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحياني الله بك مرتين ، مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية : فما أقدمك هذه البلاد ؟ قال قدمت مع أصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا . وكم تراك ترجو أن تصيب في تجارتك ؟ قال رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيراً ، فإني لا أملك إلا بعيرين ، فأمل أن أصيب بعيراً آخر فتكون ثلاثة أبعرة . فقال له الشماس : رأيت دية أحدكم بينكم كم هي ؟ قال مائة من الإبل : فقال له الشماس : لسنا أصحاب إبل ، وإنما نحن أصحاب

(١) خطط القرظي ج ١ ص ١٥٨ .

دنانير . قال تكون ألف دينار : فقال له الشماس : إني رجل غريب في هذه البلاد ، وإيما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس ، وأسيح في هذه الجبال شهراً ، جمعت ذلك ندرا على نفسي ، وقد قضيت ذلك ، وأنا أريد الرجوع إلى بلادى ، فهل لك أن تبمنى إلى بلادى ، ولك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ؛ لأن الله عز وجل أحياني بك مرتين ؟ فقال له عمرو : أين بلادك ؟ قال مصر ، في مدينة يقال لها الاسكندرية . فقال له عمرو لا أعرفها ولم أدخلها قط . فقال له الشماس : لو دخلتها علمت أنك لم تدخل قط مثلها ، فقال له عمرو : وتنى لى بما تقول ، ولى عليك بذلك العهد والميثاق ؟ فقال له الشماس : نعم ، لك والله على العهد والميثاق أن أفى لك ، وأن أردك إلى أصحابك . فقال له عمرو : وكم يكون مكثى في ذلك ؟ قال شهراً ، تنطلق معى ذاهبا عشرا ، وتقيم عندنا عشرا ، وترجع في عشر ، ولك على أن أحفظك ذاهبا ، وأن أبعث معك من يحفظك راجعا ، فقال له عمرو : انظرنى حتى أشاور أصحابى في ذلك .

فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس ، وقال لهم تقيمون حتى أرجع إليكم ، ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك ، على أن يصحبنى رجل منكم آنس به . فقالوا نعم ، وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس حتى انتهوا إلى مصر ، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها . وما بها من الأموال والخير ، ما أعجبه ، فقال عمرو للشماس ما رأيت مثل ذلك ، ومضى إلى الاسكندرية ، فنظر عمرو إلى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة ، وجودة بنائها ، وكثرة أهلها ، فازداد عجباً .

ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيداً فيها عظيماً ، يجتمع فيه ملوكهم وأشرفهم . ولهم كرة من ذهب مكللة ، يترامى بها ملوكهم ، وهم يتلقونها بأكامهم ، وفيما اختبروا من تلك الكرة ، على ما وصفها من مضى منهم ، أنه من وقعت الكرة في كفه واستقرت

فيه لم يمت حتى يملكهم . فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبيه إياه ، وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس ، حيث يترامون بالكرة ، وهم يتلقونها بأركانهم . فرمى بها رجل منهم ، فأقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو ، فمجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة ، أترى هذا الإعرابي يملكنا ؟ هذا ما لا يكون أبداً . ثم إن ذلك الشماس مشى في أهل الاسكندرية وأعلمهم أن عمراً أحياء مرتين ، وأنه قد ضمن له ألفي دينار ، وسألهم أن يجمعوا ذلك فيما بينهم ، ففعلوا ودفعوها إلى عمرو ، فانطلق عمرو وصاحبه ، وبعث معها الشماس دليلاً ورسولاً ، وزودها واكرمهما حتى رجع هو وصاحبه إلى أصحابهما .

فبذلك عرف عمرو مدخلها ومخرجها ، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها أموالاً . فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار ، وأمسك لنفسه ألفاً ، قال عمرو : وكان أول مال اعتقدته وتأملتته .

هذه القصة تروى في كتب التاريخ ، ولسنا هنا بصدد تأييد وقوعها أو نفيه ، فذلك من عمل النقد التاريخي ، أو التحقيق التاريخي ، الذي يناقش وقائمه هي وأمثالها من الآثار الأدبية .

وإنما الذي يهم مؤرخ الأدب في هذه الآثار الأدبية أن تكون صحيحة النسبة إلى عصرها الذي تنسب إليه ، فإن كانت تاريخية وقعت حوادثها ، كان عليه أن يدرس مدى تأثير الأدب بهذه الحوادث ، وإن كانت مخترعة درس مبلغ الإبداع فيها ، وقوة الخيال في إنشائها ، والموامل الخاصة والعامة التي أثرت فيها .

وإذا خالف الأديب التاريخ ، أو نسب إليه ما ليس منه لم يطعن ذلك في أدبه ، فقد يخترع شخصيات يكمل بها قصة ، وقد يزيد حوادث يصورها بطولية ، أو يوضح بها فكرة ، فلا يؤخذ عليه هذا ، فالأدب يعتمد على الخيال كما يعتمد على الواقع .

وإذا كانت قصة كقصة « عمرو والبكرة » محلا للأخذ والرد عند المؤرخ ، فهي مقبولة عند الأديب ، ينظر إلى فكرتها العامة ، وهي أن عمراً جاء إلى مصر قبل الإسلام ، ودل طاله على أنه سيحكم هذه البلاد ، وللوصول إلى هذه الغاية جرى بعمره من الشام إلى الإسكندرية ، وأحسن ابن عبد الحكم<sup>(١)</sup> سبك المقدمة في روايته فقد كان عمرو في الشام يرعى إبلاً فلاقى هناك شماساً جاء لزيارة الأماكن المقدسة ، وأنقذ عمرو ذلك الشماس من خطرين : خطر الموت عطشاً ، وخطر الحية ، فأحسن إليه مرتين . فأراد الشماس جزاءه على معروفه ، واتفقا على طريقة الدفع ونوعه ومقداره ومكانه ، فجاء عمرو إلى مصر ليقبض ثمن معروفه ، وأخذ الشماس إلى الإسكندرية ، وذهب به إلى تلك الحفلة ، وبقي مع الخاصة حتى لعبوا بالبكرة فوقعت في حجره ، فاستنكر اللاعبون ذلك وقالوا : أتى لهذا الأعرابي أن يملك الإسكندرية أو مصر ! ولكن جرت المقادير بغير ما قدروا وضحكت منهم الأقدار فزال سلطانهم على يد هذا الأعرابي العظيم .

### متى ظهرت هذه القصة ؟ ؟

إن أقدم كتاب رأيتها فيه هو كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم التوفى سنة ٢٥٦ هـ ، ثم رواها الكندي بعده بحوالي قرن ( توفى الكندي سنة ٣٥٠ هـ ) ويرجعها كل منهما إلى رجل يقال له خالد بن يزيد ، وهو خالد بن يزيد الجمحي المصري كان فقيهاً مفتياً ، قال النسائي عنه : إنه ثقة وتوفى سنة ١٣٩ هـ<sup>(٢)</sup> .

ولكن الكندي يشرك معه عبيد الله بن أبي جعفر ، ويقول إنهما رواها عن أدركا من مشايخهما ، وابن أبي جعفر معاصر لخالد إذ توفى سنة ١٣٢ ، وربما نسبها خالد إلى رجل يقال له : حنث بن عبد الله<sup>(٣)</sup> ، وهو شامي قدم مصر بعد

(١) فتح مصر طبع اوربا ص ٥٢

(٢) تهذيب التهذيب ج ٢

(٣) الكندي ص ٨

قتل على ، وغزاه المغرب والأندلس ، وكان له عقب بمصر<sup>(١)</sup> ، وتوفي بمصر سنة ١٠٠ هـ ، وذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز .

وابن أبي جعفر ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا إليهم بمصر ، وهو يروي بعض أخبار مصر في ذلك العهد<sup>(٢)</sup> .

فابن أبي جعفر ، وحنش كانا متعاصرين ، وكانت مصر دار إقامة لكل منهما ، وإذا كانت الرواية قد وقفت عند حنش هذا ، فمن المحتمل أنها تسبق ذلك وإن لم يصلها الرواة ، وأرجح أنها كانت مما قصه سليم بن عتر ، إذ كان حنش يعرفه ويقدره . فقد روى عن حنش هذا أنه سئل عن قول الله عز وجل : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » ، فقال : هذه والله صفة أبي عبد الله الحلي وسليم بن عتر . ولا بد أنه قد رآه ، فهما مصريان ، والفرق بين موتها خمسة وعشرون عاماً (توفي سليم بن عتر سنة ٧٥ بدمياط) .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن سليم بن عتر كان قاص الجند زمن عمرو بن العاص رجحنا أن تكون هذه القصة معروفة بمصر قبل الرواة الذين انتهى عندهم الكندي وابن عبد الحكم .

أما حذف الجزء الأول في الكندي ، فيرجع إلى رغبته في الإيجاز كما هو ظاهر في الكتاب من أوله إلى آخره ؛ أو لعله استكثر أن يقع هذا الجزء الأول وأبى أن يصدقه فحذفه ؛ أما أن تكون الرواية التي وصلت إليه مختصرة ، فأنا أستبعد هذا ، إذ أن ابن عبد الحكم يسبقه ، وكان الكندي يعرف ما في كتابه .

وأما تناسق هذه القصة ، وائتلاف أجزائها ، وتسلسل حوادثها ، فواضح في رواية

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٧ — ٩

(٢) الكندي ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٥

ابن عبد الحكم لها ، فإنك إذا قرأتها لا تحس باضطراب في سير الحوادث ، ولا بنموض في أسلوبها ، ولا بفرابة في أشخاصها ؛ وترى أن مؤلفها قد أحسن صنماً عند ما جعل عمراً وحنشاً يتلاقيان في الشام ولكل منهما غاية من رحلته .

وقد أرحلها معاً إلى الإسكندرية لغاية غير ما تنتهي إليه القصة ، أرحلها ليقبض عمرو جزاء ما قدم لهذا الشماس ، ولكن الرجل أراد أن يزيد في إكرام عمرو فأشده حفلة من حفلات الخاصة ، مبالغة في إكرامه ، فاهتدت إليه الكرة في هذا الحفل ، وتنبأت بأنه سيكون حاكم البلاد . وقد صح ما تنبأت به وكان له في تاريخها أثر خالد . أما حسن العرض ، وجمال التصوير ، وسلامة الأسلوب ، وحسن الانتقال من نقطة إلى نقطة ، فظاهرة كلها فيما تقدم .

عمرو في مأزق :

وهذه قصة أخرى عن عمرو <sup>(١)</sup> لا تقل طرافة وقوة ، مع إيجازها :

وروا عنه أنه كان في الاسكندرية وأنه اقتحم بعض حصونها مع فريق من الجند ثم رجموا وبقى هو وثلاثة من صحبه ، فعرض عليهم الروم أن يخرجوا إليهم ليبارزوه واحداً لواحد ، فتصدى هو للمبارزة لولا أن منعه صاحبه مسلمة بن مخلد ، وقف دونه وهو يقول : ما هذا ؟ « تخلى مرتين فتشذ عن أصحابك وأنت أمير ، وإنما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك ، لا يدرون ما أمرك ، حتى تبارز وتعرض للقتل ، فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك ! مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله » . قالوا ومثل بين يدي البطريق فمجب هذا من أنفته وقوة جوابه ، فالتفت إلى من في مجلسه وقال لهم باليونانية : « يظهر من أنفة هذا الرجل وكبر نفسه أنه من وجوه العرب ، وربما كان من كبار قوادهم ، فلا ينبغي أن نتخلى عن قتله . »

وكان مولاه وردان يفهم اليونانية ، فأحب أن يريهم خطأهم ، ويبين لهم أن الذي يكلمهم إنما هو رجل من عامة الجند ، فأسرع إليه فلطمه سائماً به : ما أنت وهذا

يا لکم . دع هذا المقال لمن هو أولى منك بالكلام عن قومه :  
فكانت هذه اللطمة سبب نجاته .

### البيامة والفسطاط :

وقد رويت قصة أخرى أو أقصوصة فيها مثال سام من أخلاق العربي ورعايته  
لحق الجار ، ولو كان طيرا ، تلك قصة الفسطاط والبيامة<sup>(١)</sup> وقد روى سعيد بن عفير  
عن أشياخه أنه لما حاز المسلمون حصن بابلين بما فيه ، أجمع عمرو على السير إلى  
الإسكندرية ، فسار إليها في ربيع الأول سنة ٢٠ هـ ، وأمر بفسطاطه أن يقوض ،  
فإذا بيامة قد باضت في أعلاه ، فقال : « لقد تحرمت بجوارنا . أقروا الفسطاط  
حتى تنقف وتطير فراخها » . فأقروا الفسطاط ووكل به الأيهاج حتى تستقل  
فراخها فلذلك سميت الفسطاط فسطاطا .

وكم في تاريخ مصر من قصص رواها الرواة من قديمها وحديثها ، بعضها ياباه  
التاريخ وينكره ، مثل كثير من الخرافات التي رواها ابن عبد الحكم في القسم الأول  
من كتابه فتوح مصر ، وذكر فيها فضائل مصر وتاريخها . وبعض هذه القصص  
صحيح تاريخي . ولكن الخيال لم يزينه ولم يزد فيه فظل مقصوراً على الحقائق .  
وأذكر من ذلك قصة وقعت في عهد علي بن الحسين بن حرب الذي ولي قضاء مصر  
سنة ٢٩٣ بعد زوال الدولة الطولونية وهي :

### قصة التوءمين السجينين :

وقد رواها الكندي ص ٥٢٨ قال :

كان بمصر توءمان تكهلا ، ولا يفرق بينهما من رأها ، من قوة الشبه بينهما ،  
فوجب على أحدهما دين ، فحبسه القاضي . وكان أخوه يجيء إليه زائراً فيجلس في  
الحبس عَوْضَه ، ويتوجه ذلك ، فاشتهر هذا حتى بلغ أبا عبيد علي بن حرب ،

(١) ص ٩ الولاة والقضاة

فأحضرهما فقال لهما : أيكما المحبوس ؟ فبادر كل منهما فقال : أنا هو . فأطرق ، ثم طلب الغريم فدفع إليه الدين الذي ثبت له ، فراراً من الشفعة والغلط في الحكم . وكثيراً ما يحدث هذا التشابه بين الإخوة ، والتوائم منهم خاصة ، وكثيراً ما يخلط الناس بين هؤلاء المتشابهين ، فإذا قبض الله أديبا عبقريا مثل هذه الأخطاء المتكررة ، استطاع أن يخلق منها قصة عظيمة ، أو مسرحية لطيفة ، كما فعل شكسبير في مسرحية « فكاها الأخطاء » "The Comedy of Errors" . وتدور حوادث هذه المسرحية حول ما يجره التشابه بين التوائم من أخطاء ؛ فقد ولد احد السادة في بلد من البلاد توأمين متشابهين تشابها عظيما جدا ، وكان له عبد ، فولد توأمين على نفس الصفة ، ثم فرقت الأيام بين الأولاد ، وعاش سيد وعبد صغيران منهما في بلد ، وسيد آخر وعبد في بلد آخر ، ثم التقوا لما بلغوا مبلغ الرجال ، فحدث من الأخطاء والمشكلات ما حير عقولهم ، وعقول كثير معهم ؛ حتى ظنوا بأنفسهم الظنون . وأخيرا عُرف مبدأ القصة فحلت المشكلات ، وزال ما حدث من سوء التفاهم ، وعرفت شخصية كل واحد وعلاماته المميزة .

فأين قصتنا الساذجة البسيطة من هذه القصة الفنية ، ذات العقدة والحل ، والربط المحكم بين الحوادث حتى تصل إلى غايتها ؟

إن عناصر القصص وموادها الأولى موجودة في حياة الشعوب وحوادث الأمم وصروف الدهور، ولكن بعض الأمم تسعد بمن يستطيع أن يصوغ من هذه العناصر قصصا جميلة محكمة ، ذات طابع فني يميز كاتبها من غيره ، أو يميزها من فنون الأدب الأخرى ، وقد استخدمت القصة في ظروف كثيرة للتهديب والتربية ، أو للهو والتسلية ؛ اولنشر المبادئ والآراء ، أو لمحاربة بعض العقائد والعادات او غير ذلك وقد ظهر في الأدب العربي كتاب قصص منظم ، يعد من أقدم كتب القصص عندنا ، وهو كتاب مصري في القرن الرابع الهجري ، أعنى به :

## كتاب المكافأة :

وقد ألفه أحمد بن يوسف بن ابراهيم من كتاب مصر في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع . ولأبيه شهرة في الكتابة والتأليف . قال ياقوت<sup>(١)</sup> عن أبيه إنه « كان من جِلَّة الكتاب بمصر » . وكان بغدادياً ، ولا يدري كيف جاء إلى مصر . ولكنه لما جاء اتصل بابن طولون وخدم دولته ، وذاق أذاه حياً وميتاً ؛ فقد قبض عليه مرة ، ولكن أسرى معروفه استعطفوا الأمير فعفا عنه ؛ ووردت قصة هذا الأذى في كتاب المكافأة ، الحكاية الثالثة عشرة من قسم « مكافأة الحسن بالحسن »

أما الحكاية التي قصها أحمد بن يوسف عما نال والده من الأذى ميتاً فهي الخامسة والعشرون من هذا القسم : أرسل ابن طولون من يهاجم دار يوسف بن ابراهيم حين وفاته ، فلم يجدوا فيها شيئاً إلا دفتر عطاياها ، فأخذوه ، وأخذوا ولديه إلى ابن طولون فلم يجد شيئاً يأخذ يوسف به ، وكان عند الأمير أحد أشرف الطالبين فاعترف بفضل يوسف عليه . فترحم عليه أحمد بن طولون ، وأطلق سراح ولديه . وانصرف الطالبى معهما فحضر الجنائز وأحسن مكافأة ولديه .

وعُرف أحمد بن يوسف بابن الداية ، وإن كان هذا اللقب أكثر صلة بأبيه لأنه كان ولد داية إبراهيم بن المهدي ورضيع إبراهيم ؛ وذكره ابن زولاق فقال : « كان أبو جعفر — رحمه الله — في غاية الاقتنان ، أحد وجوه الكتاب الفصحاء والحساب والمنجمين ، مجسطى أوقليدسى ، حسن المجالسة ، حسن الشعر ، قد خرج من شعره أجزاء .

وله مؤلفات كثيرة منها : سيرة أحمد بن طولون ، وأخبار غلمان أحمد بن طولون

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٥٤ — ص ١٦٠

وأخبار الأطباء ، وكتاب الطبيخ . ومنها موضوع حديثنا وهو : « كتاب الكافأة وحسن العقبى » .

### أقسام الكتاب :

والكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول قصص غايتها مكافأة الحسن بالحسن ، وهي إحدى وثلاثون قصة ، والثاني قصص غايتها مكافأة القبيح بالقبيح ، وهي إحدى وعشرون قصة ، والثالث قصص ابتلى أصحابها فصبروا ، فكانت عاقبة أمرهم خيراً ، وعددها تسع عشرة قصة .

وهو يقدم لكل مجموعة بمقدمة عامة تبين فضل هذه القصص في حمل الناس على تقليدها ؛ كأن يقول في القسم الأول :

« وقد رأيتك لا تريد من رغبت إليه فيما تحدوه على برك ، وتحته لا أغفل من أمرك ، على نَصِّ مكارم من سلف . وترى أنه يهش إلى مساجلتهم ، فلا يبلغ في هذا أكثر من إحراز الفضيلة للمرغوب إليه الخ » .

ويقول في ختام القسم الأول وبدء القسم الثاني :

« وقال أفلاطون : من حسنت مكافأته لم تغضبه خيبته فيما التمه ؛ لأنه يقيم العوارف مقام ديون يتحملها ، لا يسهه إغفال قضائها . وإنما يغضب من المنع من أثر تحصيل العارفة وإغفال المكافأة عليها . ولأن المرغوب إليه إذا كان يحتاج إلى مطالعة حسن المكافأة للاحسان فيثار عليه ، وسوء المكافأة على الإساءة فيتأخر عنه ؛ كان الراغب محتاجاً أن يكون في خلده من أخبار من أساء الصنيع فسأت مكافأته ، ما يوازي ما أثبتناه من حسن المكافأة للاحسان .

ويقدم للقصص التي أوردها في حسن العقبى بقوله :

« وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح . ما رجونا

أن يكون عوناً للاستينبكار من مواصلة الخير ، وتطلبُ العارفة في الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وإبعادها عن سورة الانتقام في التبيح - وقد قالوا :  
الخير بالخير والبادى أخير ، والشر بالشر والبادى أظلم - رأيت أن أصل ذلك «  
حفظك الله ، بطرف من أخبار من ابتلى فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبي ،  
لأن النفس إذا لم تُسَمَّ عند الشدائد بما يجدد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها .  
وقد علم الإنسان أن سفور الحالة عن ضدها حتم لا بد منه ، كما علم أن انجلاء الليل  
يسفر عن النهار ، ولكن خور الطبيعة أشد ما يلزم النفس عند نزول الكوارث ،  
فإذا لم تعالج بالدواء اشتدت العلة ، وازدادت المحنة . والتفكر في أخبار هذا الباب  
مما يشجع النفس ، ويبعثها على ملازمة الصبر . وحسن الأدب مع الرب عز وجل  
يحسن الظن في موأاة الإحسان عند نهاية الامتحان ، والله ولي التوفيق » .

آثرت نقل هذه النصوص الثلاثة ليستبين القارىء منها غاية المؤلف في كل  
قسم . وقد كانت مقدمة القسمين الأول والثاني غامضة تحتاج إلى وقفة عندها قبل  
أن يظهر المراد منها . أما هذه الفقرة الأخيرة فأسلوبها واضح ، والفهوم منها معين .  
وكذلك القصص التي أوردتها في كتاب المكافأة فإنها تسير على نحو هذا القسم  
الأخير في الوضوح والسهولة غالباً .

تخير المؤلف قصصه من أمم وعصور وبيئات مختلفة ، فكان منها العراق  
والمصرى ، وكان منها العربى والفارسى والرومى ، وكان منها الطولونى والعباسى ،  
والإسلامى والجاهلى . كما اشتملت على قصص من أخبار السادة والعامّة ، والصالحين  
والطالحين ، ولكنها كلها كانت مختارة ، بحيث تؤدي إلى الغاية المقصودة منها  
في القسم الذى تضمنها .

وتصويرها قوى للمصر الذى أخذت منه ، كالقصة الحادية والنشرين من  
مكافأة التبيح بالتبيح ، وانظر كيف تحدث في القصة الثانية عشرة عن القلاء

واضطراب الرعية بسببه في زمن احمد بن طولون ، وأنه ركب ، وتقدم بمقربة القاهين وازدحمت النظارة من السطوح عليه .

وترى فيها صوراً من عادات الناس وأخلاقهم ، كما أنهم قابلة أولاد خمارويه يحلوى العيد من أجل صبيانها ، وذهابها إلى أختها كي تقترض منها مالاً تشتري به هذه الحلوى (١) .

وقد يصور النفس الإنسانية على حقيقتها في بساطة وسهولة ، كما صور محبة الأم لابنتها ، وحرصها على جهازها ، وإن أدى بها ذلك إلى احتيالها على زوجها حتى فرط في ودیعة عنده ، ولم تعبأ به عندما جاء صاحب الودیعة يطلبها ، واكتفت بالنجاح الأول في أخذ الودیعة وشراء الجهاز بها « وسوف تأتي هذه القصة » .

وتراه يحاول أن يقلل صورة الحوار الذي يجري بين اثنين من أبطال القصة ، فيزيدها بذلك قوة ، وانظر إلى هذا الحوار بين الأختين ، الغنية والفقيرة (٢) :

تقول الفقيرة : « فكنت أجاهد في مئونة ولدى ، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختي فقلت : أقرضيني كذا و كذا ، استحياء من أن أقول لها : هي لي . ودخل رمضان فلما مضى نصفه اشتهوا على صبياني حلوى في العيد ، فصرت إلى أختي فقلت لها : أقرضيني ديناراً أعمل به للصبيان حلوى في العيد . فقالت : يا أختي تفيظيني بقولك أقرضيني ! وإذا قرضتك من أين تعطيني ؟ أمن غلة دورك أو بستانك . نو قلت : هي لي كان أحسن ! فقلت لها : أفضيك من لطف الله تعالى الذي لا يحاسب ... فتضاكت وقالت : يا أختي هذا والله من المني ، والمني بضائع النسوكي (٣) . فانصرفت عنها أجر رجلي إلى منزلي » .

وتكاد تلمس في هذه الفقرة وحوارها استحياء الفقيرة وأدبها ، وتحس حرصها

(٢) قصة ١٦ حسن العقبى .

(١) قصة ١٦ حسن العقبى .

(٣) الحمقى .

على ألا تكسر قلوب أولادها في العيد . وترى فيها حرص الفنية على مالها وعلى الظهور بمظهر المحسن المتفضل ؛ وسخريتها من الاعتماد على الآمال .

وفي هذه الفقرة أيضاً طريقة التعبير العامية ، في إثبات واو الجماعة مع الفاعل ، « اشتهوا على صبياني » وحذف النون من المضارع المتصل بياء المخاطبة ، مثل « يا أختي تميظيني بقولك : أقرضيني . وإذا قرضتكَ من أين تعطيني » .

فإذا كان ابن يوسف قد أراد بهذا التعبير العامي مطابقة القول للغة القائل ، كان غريباً في حرصه على دقة التصوير وهو ينقل عبارات التكلم العامية . أما إذا كان ذلك لهجة مصرية في اللغة العربية الأدبية بمصر ، في زمن أحمد بن طولون ، فهو نص تاريخي نستدل به على وجود هذه اللهجة في ذلك الحين .

وفيها من الكلمات والأمثال ما لا يزال باقياً في عاميتنا كقوله : فوجدناه قد ركب فخصلني على الباب<sup>(١)</sup> . ويستعمل كلمة « حاصل » بمعنى خزانة فيقول : لم يصبح في حاصلی درهم واحد<sup>(٢)</sup> « وأسباب السلطان بمعنى عماله » . وكلمة التلّيس بمعنى الزكّية مكررة مرّات في قصة إليون ملك الروم<sup>(٣)</sup> . والمثل العامي « من عمود لعمود يأتي الله بالفرج » له أصل عنده إذ يقول : « إن من عمود إلى عمود فرجا<sup>(٤)</sup> » . وكذلك قول المستيقظ من حلم « خير إن شاء الله<sup>(٥)</sup> » .

ويستفهم بلا أداة إن كانت هل أو الهمزة كأن يسأل « ها هنا منزل محمد النورى ؟ » في نالك قصة نذكرها ، وكقوله : يحسن لشيخ مثلي أن يتربح في المروف ؟<sup>(٦)</sup> .

وتمتاز قصصه بالإيجاز والسهولة ، وقلة الحوادث والشخصيات ، والوصول إلى

- 
- |                         |                                  |
|-------------------------|----------------------------------|
| (١) قصة ١٥ القسم الأول  | (٢) قصة ١٨ القسم الأول           |
| (٣) قصة ١٦ القسم الثاني | (٤) قصة ٥ القسم الثاني           |
| (٥) ١٢ القسم الثاني     | (٦) القصة الثالثة من القسم الأول |

الغاية من أقرب طريق ، وقوة الربط بين القصة وغايتها غالبا .

وهذه قصص ثلاث ، واحدة من كل نوع :

( ١ ) من مكافأة الحسن بالحسن (١) .

« وحدثني أحمد بن سقلاب قال :

كان بمصر رجل من الفقهاء مشهور الاسم ، وله حلقة عظيمة بالجامع . فبينما هو في صدرها إذ وافى إعلان بن المغيرة ، فلما رآه مقبلا نحوه قام إليه على رجله ، ثم خطا إليه حتى لقيه . فأكثر الجماعة قيام شيخ مثله إلى حدث مثل إعلان ، وتحفّيه به ، وعرض نفسه عليه ، وأنه لم يدع شيئا يفعله تابع بمتبوع إلا بذله ، وأسررنا الموجدة عليه . فلما قام إعلان . قال لجماعتنا : ما أعلمني بما أضمرتم ، ولكني أريكم عذري فيما خرجت إليه :

كانت عندي ألف دينار ، وديعة لرجل بالغرب ، قد طال مقامها ، وطالب زوج ابنتي بإدخال امرأته عليه . فجلست أمها بحضرتي ، فقالت لي : ما الذي تراه فيما قد ألح فيه هذا الرجل ؟ فقلت لها : نستعمل فيه التجوز . فقالت لي : لنا حساد نخاف شماتهم ، ولا بد من أن تعينني على التجميل . فقلت : إن كان ما تريدني في قدرتي لم أبخل به عليكم . قالت : هو في قدرتك . قلت : ما هو ؟ قالت : تمكثني من هذه الوديعة ، ونحتاط فيما نبتاعه من الجهاز حتى يصل إلينا ثمنه في أي وقت أردناه ، وتدخل هذه الصبية على زوجها ، فإن جاء صاحب الوديعة بعنا ما اشتريناه ولم نوضع فيه إلا ما يسهل عُمره . قلت : هذا قبيح عند الله وعند خلقه . فلم تزل تلح بي وتحتال علي حتى أجبتها . فجهزت ابنتها بجميع المال ، وأدخلتها على زوجها .

فلم يمض بنا بعد ذلك إلا شهران حتى وافى صاحب الوديعة يطلبها . فقلت لها

(١) المكافأة ص ٤٥ .

ما تفعلين؟ فقالت: أمضى فأحل المتاع وأبيعه، فمضت إلى ابنتها ورجعت إلى  
فقالت: لا تشغل نفسك بهذا المتاع؛ فقد حلف زوجها بطلاقها أنه لا يخرج منه  
شيء عن منزله. فسقط في يدي، ورأيت الفضيحة في الدارين متصدية لي.  
فوضع إبطاري بين يدي فلم أطمع، واعتراني ما خفت منه على عقلي، وبت ليلة  
مايتُ بثلمها، وأنا أتبين سهولة ذلك على زوجتي في جنب ما أحرزته لبنتها. ثم  
انتهت قبل الفجر بمنازل، فصحت بالغلام: أسرج لي. فقام وأسرج وقال:  
ياسيدي، أين تمضي! فقلت: ليس لك الاعتراض على. وركبت وسرت بطوع  
عناني، فلم يزل بغلي يسير حتى دخلت زقاق علان بن المغيرة. فوقفت على باب داره  
وصاح الغلام بالبواب وعرفه بموضعي. فسمعت حركة في داره، ثم فتح الباب  
وأذن لي بالدخول، فدخلت عليه فوجدت بين يديه شمعة وهو يكتب جوابات  
كتب وكلائه. فلما رأيته قام إلي، وقال لمن حضره من العلمان: تنحوا. وأقبل  
على فقال: والله لو بعثت إلى لسرت إليك، ولم أجشك السعي إلى، فأشرح لي  
أمرك. فقلبتني الميرة، وحالت بيني وبين الكلام، فما زال يسكنني حتى قصصت  
له إنفاق الوديمة. وهو مغموم بأمرى. ثم قال: فكم هذه الوديمة؟ فقلت ألف  
دينار. فضحك وقال: فرجت والله عني! ما توهمت أني أملكها، فكان الغم  
يقع بها! فأما وهي في القدرة فما أسهلها علي، وأخفها لدي! ثم قال للغلام: جئني  
بتلك الصرار التي وردت علينا من المغرب في هذا الشهر، فجاء بأربع صرار، فنظر  
فيها عليها وجمعه، وقال هذا ألف وخمسمائة دينار، ألف للوديمة، وخمسمائة تصلح بها  
ما بينك وبين من عندك. ثم قال لي: متى أشكر إفرادك إياي، بعد الله عز وجل  
ذكره، بتأميلي في حادثة حدثت عليك، فأعاني الله على مكافأتك؟ وأضاف إلى  
من خفرتني إلى منزلي.

فقالت الجماعة: قد سمعنا عذرك، وعلينا عهد الله إن لقيناها أبداً إلا قياماً.

ب — ومن مكافأة القبيح بالقبيح ، ما رواه أحمد بن يوسف قال :

« حدثني نسيم الخادم أيضاً<sup>(١)</sup> .

أن أحمد بن طولون كان مذعوراً من خروج أبي عبد الرحمن العمري ، فوافاه الخبر بقتل غلمان أبي عبد الرحمن إياه ، وانتشار أمره . ثم صار إليه جماعة تقارب العشرة ومعهم رأس . فقالوا : نحن غلمان العمري وهذا رأسه . فجمع الخاص والعام وأدخلهم إليه ، واستحضر قوما استأمنوا إليه فسألهم عن الرأس . فأجمعوا على أنه رأس أبي عبد الرحمن ، وأن الغلمان من خاصته .

فقال أحمد بن طولون لهم : هل كان مسيئاً إليكم . قالوا : لا والله ولقد كان حسناً إلينا ، ومفضلاً علينا . قال : فما حملكم على قتله ؟ قالوا : طلبنا الحظوة عندك والمكانة منك . فقال : قتلتم مولاكم المحسن إليكم بالتطرب إلى الزيد . ثم أمر بهم فشق عن جماعتهم ، وأخذتهم السياط حتى سقطوا ، وضربوا على رؤوسهم بالشدوخ<sup>(٢)</sup> حتى ماتوا جميعاً ، وأمر بدفن رأس أبي عبد الرحمن .

ح — ومن قصص حسن العقبي .

حدثني محمد بن صالح الغوري قال<sup>(٣)</sup> :

كانت لي بضاعة أعود بفضلها على شملتي . فاقرقت في معاملات في الصعيد ، وخرجت إلى من عاملته فجمعتها ، وكان مقدارها خمسمائة دينار . وخرجت أريد القسطنطين في رقعة كثيرة الجمع . فلما كان منتصف طريقنا وافى جمع من الصماليك فسلب الناس جميعاً . ودهشت ، فرأيت منهم شاباً حسن الصورة . فقلت له : والله ما أملك غير هذا الكيس فارفعه لي عندك . فقال : وأين بيتك بالقسطنطين ؟ فقلت في دور عباس بن وليد . فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد الغوري . قال : امض لشأنك

(٢) الشدوخ أداة يكسر بها .

(١) ص ٦٤ المكافأة

(٣) ص ٩٩ المكافأة

وجاء منهم من قلع ثيابي وسراويلي وانصرفوا عنا . ولم أزد أن سوغت واحدا منهم جميع ما كان معي . ودخلنا إلى القسطنطينية ونحن فقراء . فرجع كل واحد منهم إلى ما تخلف له ، وبقيت ليس معي درهم أنفقته .

وإني لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة حتى رأيت رجلا قد وقف بي . فقال لي : ها هنا منزل محمد النوري ؟ قلت : أنا هو ولا والله ما اهتديت إلى الرجل الذي أعطيته المال ، لأنه كان عندي أول مال ذاهب<sup>(١)</sup> . فقال لي : عنيتني . وأخرج الكيس فدفعه إلي . فرُدَّتْ عليَّ جِدَّتِي وتطعمتُ الحياة . وكان بالقرب منا قائد يعرف بابن قرا ، كنت معاملا له وكان له محل . فسألت اللص البيت عندي ففعل . فأصبحت وصرت إلى ابن قرا ، وقصصت عليه قصة الرجل . فقال لي : أطف لي فيه ، فوالله لأنوّهنّ باسمه ، ولأكافئنه عنك . فرُحْتُ إليه فأخبرته ، فوالله ما ارتاع ولا اضطرب ومضى معي . فأحسن تلقيه ، وخلع عليه ، وصيره سياراً لعمله ، وضم إليه عدةً وافرة . ولم يزل في حيزه إلى أن توفى .

وكان يعاصره أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي ، واقتبس في كتابه « سيرة أحمد بن طولون » نحو خمسين قصة من قصص ابن الداية المذكورة في كتابيه : « سيرة ابن طولون ، والمكافأة » ، وزاد من عنده نحو أربعين قصة . وكثير من حكايات البلوي مفصلة فيها زيادات<sup>(٢)</sup> .

وقد قابلت بين القصة الثالثة من القسم الأول مكافأة الحسن بالحسن ، ومثيلتها في صفحة ٢٣ - سيرة ابن طولون للبلوي وعنوانها « أعرابي أراد أن يفدى صاحبه بماله ودمه » ، فلم أجد فرقاً في عناصر القصة ، وكل ما هنالك اختلاف في التعبير ،

(١) العبارة غامضة .

(٢) كتابه « سيرة أحمد بن طولون » مطبوع بتحقيق العلامة محمد كرد علي سنة ١٣٥٨ هـ .

فقد يورد ابن الداية المعنى في جملة كقوليه : « فكتب إلى يستخبرني عن حاله » ويوردها البلوى مع إضافة يسيرة كقوليه في نفس القصة ، « فكتب إلى يستخبرني عما أفت عليه من حاله » . وقد يزيد على جملة ، ويفصل في بعض المواقف ، ولكنه لا يخرج عن الحوادث والغاية والأشخاص ، ويقل الاختلاف في أول القصة ، ثم يكثر في أثنائها .

وقابلت بعض قصص أخرى في المكافأة بمثلمها في سيرة أحمد بن طولون للبلوى ، فتبين لي دقة الحكم الذي جاء به العلامة محمد كرد علي عندما قارن بين سيرة ابن طولون ، وبين كتابي أحمد بن يوسف « سيرة ابن طولون ، والمكافأة » في مقدمة الكتاب الأول<sup>(١)</sup> .

ويظهر من قوله أن ابن الداية أسبق من البلوى ، وأن البلوى ناقل أحيانا ؛ وله بعض التصرف ، وحسن التعبير وشيء كثير أو قليل من الزيادة أحيانا أخرى ، وبأخذ عليه أنه لم يشر إلى الأصل الذي أخذ منه .

أما قوله عن أحمد بن يوسف : « وحوكُ ابن الداية من أجل ما حاك بلغاء العربية » ، فهو قول صحيح في جملته . وإن أخذ عليه بعض الغموض أحيانا . ومن ذلك ما قدمته بين يدي القسم الأول والثاني من قصص الكتاب<sup>(٢)</sup> .

وها نحن أولاء نرى مصر في أوائل القرن الرابع قد شهدت ظهور قصص أدبي حتى له غاية ، وفيه تصوير قوى . مع السهولة والإيجاز .

---

(١) ص ١٠ ، ١١

(٢) ص ٦٧ من هذا الكتاب .

# الفصل الرابع

## كتابة الرسائل

— ١ —

من عمرو إلى ابن طولون

كتابة الرسائل ، أو الكتابة الإنشائية ، نوع من النثر الفني المسطور الذي يعتمد على الأفكار المنظمة تنظيماً جميلاً ، وعلى صياغة هذه الأفكار في عبارات وألفاظ متخيرة ويكون التراسل به بين طرفين غالباً ، وله رسوم في البدء والختام تميزه عن غيره من أنواع النثر الأخرى .

ويطلق مؤرخو الأدب العربي كلمة الكتابة على هذا النوع ، ومن ذلك القول الشائع : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » — وإن لم تختم إلى الآن — .

ويقسمون الرسائل قسمين عامة وخاصة ، وتسمى الأولى الديوانية ويقصدون بها الرسائل الإنشائية التي تصدر عن الخلفاء والأمراء والسادة والقادة ، في شأن من شؤون الدولة ، أو في مسألة عامة يهتم بها الحاكمون . والثانية الإخوانية ويقصدون بها الرسائل الخاصة التي تجرى بين الناس في أمور تعنيهم . وتطور هذا النوع من الكتابة حتى شمل مختلف الشؤون التي تهتم الأفراد والجماعات . وتغير لفظه ومعناه ، وأساليبه وعباراته وموضوعاته ؛ فصار من العسير أن تعينه له موضوعاً ، أو أن تقتصره على نوع من المعاني ، أو أن تخصصه بطائفة من الأفكار ، ووصل إلى غاية سامية من التنوع والقوة في القرن الرابع الهجري ، وشمل من المعاني

الماظفية رسائل العتاب والشفاعة والاعتذار والشكوى والتهديد والاشتياق والمدح وغير ذلك .

وولى أمر الكتابة رجال عرفوا بسعة المعارف ، وجودة الروية ، وحسن التصرف ، وجمال التعبير .

وكان استقلال ابن طولون فاصلا بين عهدين من عهود الكتابة الإنشائية بمصر ؛ أولهما من عمرو بن العاص إلى ابن طولون ، وثانيهما من ابن طولون إلى قيام الفاطميين .

وفي هذا الفصل حديث الكتابة إلى زمن ابن طولون :

#### ( ١ ) في زمن الراشدين :

لما قدم عمرو بن العاص بجنوده لغزو مصر ، وقادهم إلى نصر مؤزر ، وفتح مابين فدانت لهم البلاد ، وفتح الله عليهم هذا الوادى الخصيب . كان أهم ما يشغلهم في عهدهم الأول - - عهد عمر - أن تكون صلتهم بالمدينة المنورة متصلة ، وأن تجرى بينهم وبينها مراسلات ، يخبرون الخليفة فيها بأخبار الحرب والصلح والنصر والفنائم والخراج ، وبكل ماله ارتباط بإدارة البلاد وسياستها مما يحتاجون فيه إلى رأى الخليفة وأوامره ، فكانوا يطلبون منه العون عند الحاجة ، ويخبرونه بشروط الصلح إذا كان صلح ، ويبشرونه بالنصر إذا جاءهم به الله ، وقد يصفون له أحوال البلاد ، ويذكرون له طبيعة أرضها ، وما تنبت من زروع وثمار ؛ ويصفون أحوال النهر الذى يسقى هذه البلاد ، وزمان فيضه وغيضه ، ويذكرون له أزمان الحصاد ، ومقدار الخراج ومواعيد الجباية ، وغير ذلك من شئون السياسة والحرب والإدارة .

وكان العرب فى مصر ، كما كانوا فى الحجاز والشام والعراق ، حديثى عهد بالكتابة ، ليس لهم فيها نظام قديم ، ولا تقاليد سابقة ، ولا فروق معينة بين نوع

منها ونوع . فكانوا من أجل هذا أحراراً في رسائلهم ، يكتب كل منهم على سجيته ، لا يقيد به إلا عبارات البدء والختام الدينية وفكرته عن الموضوع ؛ كان حراً في أن يكتب عن الممانى التي تدور في خاطره عندما يعتمز الكتابة ، مع الإيجاز وحسن الأداء . فامتزج الأدب برسائل السياسة والإدارة ، وصبغت هذه الرسائل بصبغة أدبية ، حتى في الموضوعات التي تبدو إدارية خالصة . ونذر أن تشذ رسالة أو عهد أو وصية عن هذا . وليس غريباً أن تكون كتابتهم على هذه الصفة إذا عرفنا أن الذين كانوا يتولونها هم سادتهم وكبرائهم من الخلفاء وقواد الجيوش ، ومستشاريهم وأعوانهم .

ويمثل هؤلاء السادة في مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه . وقد رويت عنه رسائل قوية الأداء جميلة التعبير . ومن أقوى رسائله وأشهرها رسالته في وصف مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يسأله وصفها<sup>(١)</sup> ، فكتب إليه : « إن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتسفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر ميسمون الغدوات ، مبارك الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان ، تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عجز عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه ، كأول ما بدا في شدته ، وطها في حدته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرقوا بطون أوديته وروايه ، يندرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدبر حلاؤه ، وينغى ذبابه . فبينما هي يا أمير المؤمنين ورقة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء وإذا هي زبرجدة خضراء ، فتعالى الله

(١) عمرو بن العاص للمقاد ص ٣٢ .

الفعال لما يشاء .

« والذي يصلح هذه البلاد وينميتها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها .  
والأيستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها  
وترعها .

فإذا تقرر الحال مع العمل في هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله  
تعالى يوفق في المبتدأ والمآل .»

وأظهر ما في هذه الرسالة غلبة السجع عليها ، لكنه سجع لا تكلف فيه  
ولا تَعْمَلُ ، فهو عذب سائغ ؛ وتظهر فيها دقة الوصف وشموله أيضاً ، فقد وصف  
جانبيها الجديب والحصيب ، وبين ذرعها طولاً وعرضاً ، وتحدث عن نهريها في  
حاليته ، فوصفه خالياً وطامياً ؛ ووصف الناس وأعمالهم زمن الفيضان وبمده . إلى  
آخر ما جاء فيها .

وقد وُجِّه إلى هذه الرسالة طعون تنكر نسبتها إلى عمرو وإلى هذا العصر؛  
وتنسبها إلى غيره من العصور المتأخرة التي نضجت فيها الكتابة العربية ، واهتم  
رجالها بالخلية اللفظية ، وترتيب المعاني واستقرائنها . ونسبت بعض الروايات<sup>(١)</sup> إلى  
هذه الرسالة دعاءً في أولها لأمير المؤمنين . وأنها لم تبدأ بحمد الله ولا بسلام على  
المرسل إليه في تلك الرواية .

وعندي أن هذا كله لا يكفي لإنكار نسبتها في جملتها لعمرو بن العاص ؛ فهذا  
الوصف الذي كتبه وصف حسي ، يستطيع أن يكتبه كل من عنده قدر من الملاحظة .  
وقد عرفها عمرو قبل الإسلام ، ثم تزها فأتحماً فوجب أن يعرف شيئاً عن طبيعة  
البلاد ، وطاف في كثير من أرجائها عند فتحها<sup>(٢)</sup> .

وظالت إقامته فيها فشاهد كل ما وصفه في رسالته . وكان وصفه لها بعد أن

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ (٢) ص ٤ من هذا الكتاب .

استوصفه عمر؛ إذ كان حريصاً على معرفة أحوال المسلمين، والبلاذ التي ينزلون بها؛ ليرى رأيه في أحوالهم ومنازلهم، ويأمر بما يراه صالحاً لهم. وشبهه ذلك ما فعله بالعراق، فقد أرسل إلى سعد بن أبي وقاص أيضاً وهو في القادسية يقول له: « فصف منازل المسلمين، والبلد الذي بينكم وبين المدائن، صفةً كأنى أنظر إليها واجملنى من أمركم على الجليّة »<sup>(١)</sup>. فكتب إليه سعد يصف القادسية وما حولها. أما ميل عمرو رضى الله عنه إلى الوصف فله أكثر من مثال: منها الوصف الذى تقدم، ومنها وصفه للاسكندرية<sup>(٢)</sup> بعد فتحها، ومنها وصفه للبحر.

وما علينا من حرج فى أن نذكر قصة هذا الوصف:

روى أن معاوية — وهو وال على الشام — أرسل إلى الخليفة عمر يستأذنه فى فتح قبرص، ويذكر له قربها من الساحل، حتى قال له: « إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم (يقصد قبرص) »، فكاد ذلك يأخذ بقلب عمر؛ ولكنه اتهمه، وكتب إلى عمرو بن العاص: أن صف لى البحر وراكبه؛ فإن نفسى تنازعنى إليه.

فكتب إليه عمرو:

إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركنَ خرَّق القلوب، وإن تحرك أزاع العقول، يزداد فيه اليقين قلة؛ والشك كثرة، هم فيه كبدود على عود إن مال غمريق، وإن نجا بريق<sup>(٣)</sup>.

وكتب هذا الوصف للبحر وهو وال على مصر.

وقد عرف عن عمرو أنه وصف نفسه أيضاً<sup>(٤)</sup>.

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ج ١ ص ٢٩٩.

(٢) المقرئى ج ١ ص ١٦٦.

(٣) تاريخ الإسلام للنجار ص ٨٨.

(٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٢.

فعمرو وصاف للبلاذ والمدن والبحر والرجال .

أما الناحية اللفظية أو الناحية الشكلية ، فليست ضعيفة أمام الطعن الذي يوجه إليها ، إذ أن السجع فيها ليس غريبا على عمرو بن العاص ، وقرأ خطبته السابقة<sup>(١)</sup> ووصفه القريب للبحر ؛ ففيهما السجع المقبول ، كما في رسالته التي تتحدث عنها ، وفي إنشاء عصره كثير من السجع أيضا . فليس السجع غريبا عليه ولا على زمنه . وأما خلو الرسالة من بعض عبارات البدء والختم التي كانت متبعة في عصره كالبسملة أو الحمدلة أو السلام ، فلا يطعن في الرسالة أيضا ، إذ أن الرواة كانوا يشيرون إلى ذلك ، وقد يتركونه اكتفاء بما هو معروف من التزام الكتاب والخطباء لهذه العبارات . ولو أن شيئا منها قد أهمل في رسالة عمرو لالتفت إليه الرواة ونصوا عليه ، كما التفتوا إلى إهمال زياد أن يبدأ خطبته بحمد الله ، فسموها « البتراء » .

لكن هذا الدفاع عنها لا يمنع أن يكون الدعاء لأمر المؤمنين ، الوارد في بعض رواياتها ، شيئا أضيف إليها فيما بعد ، وكذلك الجزء الأخير منها ؛ لأنه ضعيف السجع متكلف التركيب ، بادي الهزال .

واختلاف الروايات في هذه الرسالة يقطع بأن بعض التغيير والتبديل قد أصابها إما من فعل الرواة أو من عمل النساخ . كما حدث هذا في كثير من النصوص الأدبية التي تداولتها الأيام رواية وحفظا .

وكان لعمرو رسائل أخرى يرد بها على أمير المؤمنين في حسابه المسير الذي كان يصيبه ويصيب غيره من عمال الدولة . ولدينا من ذلك مراسلات بينهما يبدأ الخليفة فيها باتهام عمرو ، ويدفع عمرو عن نفسه بأعذار يراها مبررة ، ولا يقبل الخليفة

---

(١) ص ٢١ من هذا الكتاب .

منه عذره . وهذه بعض الرسائل :

كتب عمر بن الخطاب :

« من عبدالله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص . سلام عليك فإنه بلغني أنه  
فَسَّتُ لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك ألا  
مال لك ، فاكتب إلى من أين أصل هذا المال ولا تكتبه » .  
فكتب إليه :

« من عمرو بن العاص إلى عبد الله أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك  
الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد . فإني أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا  
لي ، وأنه يعرفني قبل ذلك لا مال لي . وإني أعلم أمير المؤمنين أني يبلى السمر فيه  
رخيص ، وإني أعالج فيه من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله ، وفي رزق أمير المؤمنين  
سعة . والله لو رأيت خيانتك حلالا ماخنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحسابا  
هي خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها ! ولعمري إن عندك من تدم معيشته  
ولا تدم له ، فأني كان ذلك ولم يفتح قفلك ؛ ولم نشركك في عملك » .  
فرد عليه عمر :

« أما بعد . فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تسطر ، ونسقت الكلام في غير  
مرجع ، لا يعني عنك أن تترك نفسك ، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره  
مالك ، فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ... تجمعون لأبنائكم ،  
وتمهدون لأنفسكم . أما إنكم تجمعون العار ، وتورثون النار ، والسلام » .

وذهب إليه محمد بن مسلمة وشاطره ، وأبى أن يشرب عنده شربة ماء ، وغضب  
عمرو وسخط ؛ فكتب محمد بن مسلمة ذلك ولم يخبر به أمير المؤمنين <sup>(١)</sup> .  
وزي في رد عمرو أنه بدأ هادئاً ، يفند التهم ويعتذر عما أخذ عليه . ثم يشور

(١) العقد ج ١ ص ٢٦ ، صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٧٧ .

فجأة ، وينفجر انفجارا حين يقول للخليفة : « فأقصرأيها الرجل ! فإن لنا أحسابا هي خير من العمل لك » ، ولم يعبا الخليفة بهذه اللهجة فكان رده عليه قاسيا ، صريحا في الاتهام بلا خوف ولا محاملة .

وكان عمرو يتلقى من أمير المؤمنين رسائل عنيفة بين الحين والحين ، وهذه إحداها :  
لما استبطأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنى فكرتُ فى أمرك والذى أنت عليه ، فاذا أرضك أرضٌ واسعة ، عريضة رفيعة ، قد أعطى الله أهلها عدداً وجَلداً ، وقوة فى برِّ وبحر ، وإنها قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها عملاً محكماً ، مع شدة عُتُومهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحوط ولا جذب . ولقد أكرتُ فى مكاتبك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير تريث ، ورجوت أن تفيقَ فترفعَ إلىَّ ذلك ، فاذا أنت تأتبنى بمعارضٍ<sup>(١)</sup> تعباها ، لا توافق الذى فى نفسى ، ولستُ قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذُ به من الخراج قبل ذلك ، ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك ، فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة ، ولئن كنت مضيقاً نطعاً<sup>(٢)</sup> إن الأمر لعملى غير ما تحدث به نفسك ، وقد تركتُ أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى ، رجاء أن تفيقَ فترفعَ إلىَّ ذلك . وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمالُ السوء ، وما توألسُ<sup>(٣)</sup> عليه وتلّفُ<sup>(٤)</sup> . أتخذوك كهفأ ،

(١) معارض : إجابات غير صريحة . (٢) نطعاً : بضم الطاء والعين ، متشدداً فى كلامك .

(٣) توألس : تتخادع . (٤) تلّف : تجمع من هنا وهناك .

وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه ، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتمطاه . فان النهر يخرج الدر ، والحق أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ، فانه قد برح الخفاء ، والسلام<sup>(١)</sup> .  
وهذا رد عمرو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص :  
سلام عليك ، فاني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطناني فيه من الحراج ، والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي ، وإعجابهم من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ، ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ؛ لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا ، منذ كان الإسلام . وذكرت أن النهر يخرج الدر فخلبها حلبا قطع درها ، وأكثرت في كتابك وأنتيت ، وعرضت وتربت ، وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر ، فحجت لعمري بالمفطعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم ، بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدبين لأمانتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا ، والعمل به شينا ، فيعرف ذلك لنا ، ويصدق فيه قلبنا . معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم ، والاجترأ على كل مأثم ، فاقبض عمك ، فإن الله قد زهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها ، بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أبا ، والله يابن الخطاب لأننا حين يراد ذلك مني ، أشد لنفسي غضبا ولها إنزاهة وإكراما ، وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقا ، ولكني حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت . يفر الله لك ولنا ؛ وسكت عن أشياء

كنت بها عالماً ، وكان اللسان بها منى ذلولا . ولكن الله عظم من حقتك  
عالمًا يُجْهَل ، والسلام<sup>(١)</sup> .

فهذا اعتذار من تهمة ، وتنصل من قذف ، ودفاع عن شرف ، وإنك لترى  
فيه نفوس المغيظ الثائر ، وأدب المرءوس التابع ، واعتزازاً بنزاهة الولاية ، واستقالة  
من سوء ظن الخليفة به ، وعتباً وتذكيراً .

وكان هناك رسائل في عهد عثمان ، كتب بها الثائرون بعضهم إلى بعض ،  
يذكرون سيئات عثمان عندهم ، وعيوبه في نظرهم ، ثم جاوزوا النقد إلى الثورة ،  
واتهموا بقتله ؛ وكان قتله باب فتنة كبرى شبت نارها في البلاد الإسلامية لم  
يخمد لهيبها .

وبويح بعده علي ، واتهم بالتهاون في القصاص من قاتليه ، وأبى معاوية أن  
يبايعه ، ثم نازعه في الأمر ، وطلب الخلافة لنفسه ، وكان للنزاع بينهما صدى  
حربي وأدبي في مصر ، أشرنا إلى جزء منه في حديثنا عن الخطابة<sup>(٢)</sup> . واستعان  
كل منهما ومن أنصارها بالبيان وسحره ، وأثر لنا من ذلك العهد رسائل صدرت  
عن مصر أو وردت إليها ، صارت جزءاً من تاريخها ، وسجلاً من سجلات  
أحداثها . تمتاز بقوة بواعثها ، وحرارة النزاع فيها ، وثورة العواطف في سطورها ،  
وغليان النفوس في عباراتها ، وحرية القول في ثنائها ؛ طعنًا أو تهديدًا ، أو دفاعًا ،  
أو ثناءً ، أو إغراءً ، أو غير ذلك مما اشتملت عليه هذه الرسائل .

ومنها رسالة من سيدنا علي بعث بها إلى أهل مصر<sup>(٣)</sup> مع قيس بن سعد بن  
عبادة ، يقدمه إليهم لما ولاء عليهم . فخرج قيس في سبعة نفر من أصحابه حتى دخل

(١) حسن المحاضرة ١ : ٦٤ ، خطط المقرئ ١ : ٨٧ .

(٢) ص ٢٨ من هذا الكتاب .

(٣) أشر إلى هذه الرسالة في ص ٢٨ من هذا الكتاب أيضاً .

مصر ، فصعد المنبر فجلس عليه ، وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين ، فقرأه على أهل مصر ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين ، إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله عز وجل ، بحسن صنيعه وتقديره وتدبيره ، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسوله ، وبعث به الرسل عليهم السلام ، إلى عباده ، وخص به من انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة ، وخصهم به من الفضيلة ، أن بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فعلمهم الكتاب والحكمة ، والفرائض والسنة ، لكي ما يهتدوا ، وجمعهم لكيلا يتفرقوا ، وزكاهم لكي ما يتطهروا ... فلما قضى من ذلك ما عليه ، قبضه الله عز وجل ، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ، ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين ، عملاً بالكتاب والسنة . وأحسننا السيرة ، ولم يعدوا السنة ، ثم توفاهما الله عز وجل ، رضي الله عنهما . ثم ولي بعدهما والي ، فأحدث أحداثاً فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا . ثم تقموا عليه فغيروا ، ثم جاءوني فبايعوني ، فأستهدى الله عز وجل بالهدى ، وأستمينه على التقوى ؛ ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنة ، والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . »

« وقد بعثت إليكم « قيس بن سعد بن عبادة » أميراً ، فوازره ، وكانفه ، وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدة على صريكم ، والرفق بمواكم وخواصكم . وهو ممن أرضى هديته ، وأرجو صلاحه ونصيحته .

أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملاً زاكياً ، وثواباً جزيلاً ، ورحمة واسمة ،  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .  
« وكتبه « عبید الله بن أبي رافع » في صفر سنة ٣٦ » .

وكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري ، ومعاوية بن حديج الكندي .  
وكانا قد خالفا علياً<sup>(١)</sup> :

« أما بعد . فإن الله قد بعثك لأمر عظيم ، أعظم به أجر كما . ورفع به ذكر كما ،  
وزينك به في المسلمين ؛ طلبك بدم الخليفة الظلوم ، وغضبك الله إذ ترك حكم  
الكتاب . وجاهدتما أهل البغي والعدوان ، فأبشرا برضوان الله ، وعاجل نصر  
أولياء الله ، والمؤاساة لكما في الدنيا وسلطاننا ، حتى ينتهي في ذلك ما يرضيكما ،  
ونؤدى به حقكما إلى ما يصير أمركما إليه ، فاصبرا وصابرا عدوكما ، وادعوا المدبر إلى  
هداكتما وحفظكما ، فكان الجيش قد أطل عليكما فانقشع كل ما تکرهان . وكان  
كل ما تهويان . والسلام عليكما ورحمة الله » .

فلما جاء الكتاب رد إليه مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج .  
« أما بعد ، فإن هذا الأمر الذي بذلنا له أنفسنا ، واتبعنا أمر الله فيه ، أمر  
نرجو به ثواب ربنا ، والنصر ممن حالفنا ، وتمجيل النعمة لمن سمي على إمامنا .  
وظأطاً الركض في جهادنا ، ونحن بهذا الحيز من الأرض قد نفيتمنا من كان به من  
أهل البغي ، وأنهضنا من كان به من أهل القسط والمعدل . وقد ذكرت المؤاساة  
في سلطانك ودنياك ، وبالله ما ذلك الأمر الذي له نهضنا ، ولا إياه أردنا ، فإن  
يجمع الله لنا ما نطلب ، ويؤتينا ما نتمينا ، فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد  
يؤتيهما الله جيماً عالماً من خلقه ، كما قال في كتابه ، ولا خلف لموهوره : « فاتاهم  
الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » . عجّل علينا خيلك

وَرَجَلِكْ، فَإِنْ عَدَوْنَا قَدْ كَانَ حَرْبًا عَلَيْنَا، وَكُنَّا فِيهِمْ قَلِيلًا، فَقَدْ أَصْبَحُوا لَنَا هَائِبِينَ وَأَصْبَحْنَا لَهُمْ مُقْرَنِينَ<sup>(١)</sup> فَإِنْ يَوْتُنَا اللَّهُ بِمَدَدٍ مِنْ قَبْلِكَ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ؛ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ.»

وكان من نتيجة هذا الخطاب أن أمر معاوية عمراً بالتجهز والخروج، فخرج في جيش، مزوداً بنصيحة من معاوية. فلما نزل مصر كتب إلى محمد بن أبي بكر: «أما بعد. فتسح عني بدمك يا ابن أبي بكر، فإنني لا أحب أن يصيبك مني ظفر. إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، ورفض أمرك، وندموا على اتباعك، وهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان. فأخرج منها فإنني لك من الناصحين<sup>(٢)</sup>».

وأرسل معه بكتاب من معاوية إليه. «صورته»:

«أما بعد، فإن غيب البغي والظلم عظيم الوبال، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا، ومن التبعة الموبقة في الآخرة، وإنا لا نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغيًا، ولا أسوأ له عيبًا، ولا أشد عليه خلافاً منك: سميت عليه في الساعين. وسفكت دمه في السافكين ثم أنت تظن أني عنك نائم أو ناس لك، حتى تأتي فتأمر على بلاد أنت فيها جاري، ووجل أهلها أنصاري، يرون رأيي، ويرقبون قولي، ويستصرخونني عليك! وقد بعثت إليك قوماً رحناقاً عليك، يستسقون ديمك، ويتقربون إلى الله بمجاهدك، وقد أعطوا الله عهداً ليؤمّنن بك، ولو لم يكن منهم إليك سوى قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك، ولأحبيت أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك، وعدوك على عثمان. يوم طعين بمشاقصك بين خششائه وأوداجه، ولكن أكره أن يتمثل بقرشي ولن يسلمك الله من

(١) مطيعين. من «أقرون الشيء» أي: أطاقه.

(٢) ج ١ النجوم الزاهرة ص ١٠٩.

القصاص أبداً أينما كنت ، والسلام<sup>(١)</sup> .  
وأخبر محمد سيدنا علياً الخبر وطب منه المدد ، ورد عليه سيدنا علي يهون أمر  
هذه الحملة ، وأن يجيب على رسالتهما . فكتب إلى معاوية :  
« أما بعد . فقد أتاني كتابك . تذكروني من أمر عثمان أمرا لا أعتذر إليك  
منه ، وتأمرني التنحي عنك كأنك لي ناصح ، وتخوفني المثلة ، كأنك شفيق ، وأنا  
أرجو أن تكون لي الدائرة عليكم فأجتاحكم في الوقعة . وإن توثوا النصر ،  
ويكن لكم الأمر في الدنيا ، فكم لعمرى من ظالم قد نصرتم ، وكم من مؤمن قد  
قتلتم ومثلتم به . وإلى الله مصيركم ومصيرهم ، وإلى الله مردُّ الأمور . وهو أرحم  
الراحمين . وهو المستعان على ما تصفون » .

وكتب إلى عمرو بن العاص :

« زعمت أنك تكبره أن يصيبني منك ظفر ، وأشهد أنك من المبطلين ، وترعم  
أنك لي نصيح ، وأقسم أنك عندي ظنين ، وترعم أن أهل البلد قد رفضوا رأبي  
وأمرى ، وندموا على اتباعي ، فأوائك لك وللشيطان الرجيم أولياء<sup>(٢)</sup> » .  
لقد كانت رسالة معاوية إلى ابن حديج ومسله كما ترى ، رسالة مدح وثناء ،  
وإطعام وإغراء ، ووعد ممسول بالمشاركة في سلطانه إذا كانت له الغلبة والعاوية .  
وكان رد مسلة عن نفسه وعن صاحبه رد المؤمن بعقيدته ، الفاضب لقتل  
خليفته ، المعرض عن دنيا معاوية ووعوده ، على أنه لقي جزاءه الموفور لما آلت  
البلاد إلى معاوية ، فحكها له ، ولابنه يزيد من بعده ، خمسة عشر عاما (من سنة ٤٧  
إلى سنة ٦٢ هـ) .

(١) المشقص سهم فيه نصل عريض . الأصل خششاء ويسكن ويدغم فيصبح خشاء بضم  
الأول وهو : العظم النائي خلف الأذن ، والأوداج جمع ودج وهو عرق الأخدع الذي يقطعه  
الذابح فلا يبقى معه حياة ، وقيل هو كل عرق إذا أقطع مات صاحبه ، وله أسماء : فهو الوريد في  
العنق ، والودج أيضا ، والنياط في الظهر والابهري في الصلب وهو متصل بالقلب الخ .

(٢) تاريخ الخلفاء الراشدين للتجار من ٤٦٣ .

وكانت رسالة معاوية وعمرو إلى محمد بن أبي بكر طعناً وتَمْخِديلاً ، ووَعِيداً وتَهديداً ودعوة إلى الاستسلام قبل أن ينزل به أشد الانتقام .

وكان رد ابن أبي بكر عليهما رداً تملؤه الحماسة ، والإصرار على ما فعل ، والإدراك الصحيح لما يرمى إليه خصماه ، وفيه تهكم واتهام لمعاوية وعمرو فيما أبدياه من إشفاق عليه ، وما بذلاه من نصيحة له .

وترى في هذه الرسائل صورة واضحة من رسائل العهد الأول ، طابعها الإيجاز ورنين العبارات ، والاستمانة بآيات الله لتكسيبها قوة وزينة ، والمحافظة على الكلمات والعبارات التي كانت تبتدىء بها الرسائل وتنتهى .

وهذا الأسلوب الخطابي الذي يسيطر عليها جميعها أسلوب فرضته موضوعاتها ومناسباتها ، فاستعان كاتبها بكل ما يؤثر في القارىء من قوة البيان ، والمهارة في إبداء الحججة ، واللباقة في عرض وجهة النظر والدفاع عنها ، واتهام الخصم وإبعاده وتهديده .

وهي — على إيجازها — تشمل كثيراً من المعانى التي جاشت بها نفوس كاتبها ، وعليها سيا منشئها ، وانظر إلى معاوية في رسالتيه تجده السياسي الماهر الذي يزين لمسلمة أفعاله ، ويستريده منها ، ويفريه بالسلطان لاستمرار الثورة . وهو مع ابن أبي بكر شديد مخيف يرى أنه لا بد من السيف ، ولكنه يخلع قلبه قبل اللقاء . فيذكر له قوة من معه ، وحرصهم على دمه ، ورغبتهم في التمثيل به ، ويبدى له من النصيحة والإشفاق بعد ذلك ما يطعمه في عفوه ، ولكن خاب ظنه في ابن أبي بكر الذي أصر على الحرب وثبت . فدارت عليه الدائرة ، ولله عاقبة الأمور .

ب — في عهد بني أمية :

لم تخرج الكتابة في عهد الأمويين عما رسم لها من قبل من حيث البدء والنهاية والإيجاز وقوة البيان ، وكان يغلب عليها السياسة فهي كتب مبايعات أو أمان

أو أوامر بزيادة في أعطيات الجند أو في شأن الخراج أو ما أشبه ذلك من أمور الدولة . وقل أن تجد فيها رسالة إخوانية أو أن تكون دائرة حول شئون خاصة بين اثنين .

وكان زمامها بيد الولاة والعمال ، فإنما نجد مسلمة بن مخلد يكتب إلى عابس بن سعيد واليه على الشرط أن يأخذ البيعة ليزيد<sup>(١)</sup> ، ونجد مروان بن الحكم يكتب أماناً إلى أهل مصر بيده ، يؤمنهم على جميع ما أحدثوه<sup>(٢)</sup> .

وكانت ولاية العهد عيباً من عيوب بني أمية ، إذ كان الخليفة يعهد بالأمر بعده إلى أكثر من واحد ، فإذا مات حدث بينهم من النزاع والكراهة شيء كثير وأول من عهد إلى اثنين مروان بن الحكم ، عهد بها إلى ابنه عبد الملك ، ثم عبد العزيز ، فلما شب الوليد بن عبد الملك ، رأى أبوه أن يجعل الأمر له ويخلف عبد العزيز ، وكتب في ذلك إلى أخيه يقول :

« يا أخي إن رأيت أن تُصير الأمر لابن أخيك ، الوليد ، فافعل » . فأبى عبد العزيز فكتب إليه عبد الملك ثانية . « فاجعله من بعدك فإنه أعز الخلق إلى » فكتب إليه عبد العزيز : « إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ما تراه في الوليد<sup>(٣)</sup> » .

وفي رواية الكندي<sup>(٤)</sup> أنه كان في كتاب عبد العزيز إلى عبد الملك : « إنك لو رأيت الأصبع لسرك ، ولم تقدم عليه أحداً » .

فكتب إليه عبد الملك ثالثة : « فاحمل خراج مصر إلى » . وكأنه يخرجه . فكتب إليه عبد العزيز : « إني وإياك قد بلغنا سنّاً لم يبلغها أحد من أهلنا ، وإننا لا ندرى أينما يأتيه الموت أولاً ، فإن رأيت ألا تُفثتَ عليّ بقية عمري ، ولا

(١) الولاة والقضاء ص ٣٩

(٢) الولاة والقضاء ص ٤٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٣

(٤) ص ٥٤

يأتيني الموت إلا وأنت واصل ، فافعل » .

فرق له عبد الملك وقال : لا أعثث عليه بقية عمره . ومات عبد العزيز قبله وانتقلت الخلافة الى الوليد .

### نقل الديوان إلى العربية :

ومن المسائل التي يعرض لها تاريخ الأدب لما نقل الدواوين في مصر إلى اللغة العربية — والمقصود بها دواوين الخراج طبعاً ، فإن ديوان الإنشاء لم يكن موجوداً ، ولو كان موجوداً ما كان إلا بالعربية — والشائع أن نقل الديوان كان في عهد عبد الله بن عبد الملك ، وبأمر منه ، سنة ٨٦ هـ<sup>(١)</sup> .

أما الأصل الذي نقلت عنه فهو القبطية عند مؤرخي العرب . ولما أمر عبد الله بنسخها بالعربية صرف أشناس عنها ، وجعل عليها ابن يربوع الفزاري من أهل حمص .

ويرى بعض الباحثين أن هذه الدواوين كانت باليونانية ، وحجتهم في ذلك أن البلاد كانت تابعة للدولة الرومانية الشرقية زمناً طويلاً ، وكانت اللغة اليونانية لغة رسمية في كل بلاد الدولة ، ومنها مصر والشام . فلما جاء العرب لم يغيروا شيئاً من طرق الروم في تدوين دواوينهم وجمع ضرائبهم . ويستدل القائلون بهذا الرأي بدليل آخر ، هو أن أوراق البردي العربية التي اكتشفت حديثاً ، وترجع إلى عهد الوليد بن عبد الملك ، كتبت باليونانية والعربية .

وليس في هذا الاحتجاج من القوة ما يهدم قول المؤرخين العرب . وذلك لأن اليونانية التي بقيت في دواوين الشام حتى ترجم عنها العرب ، لم تكن لها لغة تنافسها في تلك البلاد ، ولا مذهب ديني يخالف مذهب الدولة الحاكمة ، لقي

---

(١) الولاة والقضاء ص ٥٩ . وفي صبح الأعشى ج ١ ص ٤٤٢ أن ذلك كان في عهد

عبد العزيز بن مروان .

أهله كل ذل وهوان واضطهاد ، وتعذيب من هذه الدولة . واللغة القبطية كانت لغة قوية ، لها وجودها وأدبها وفلسفتها . الخ . والذين كانوا يلون أمر الدواوين في مصر من الروم قد هجروا البلاد إلا قليلا منهم . يقول بتر<sup>(١)</sup> : « على أنه لا بد قد خلت أعمال كثيرة ، إذ تزح عمالها الروم الذين لم يرضوا أن يكونوا من رعية الإسلام ، فجعل العرب في مكانهم عمالا من القبط فما صار إلا قليل زمن حتى صار عمال الدولة يكادون يكونون جميعاً من المسيحيين » .

وهناك طريقة كانت تتبع في جباية الخراج . وهي أن زعماء الناس في القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا في حال الزراعة ، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك ، فكانوا بمثابة لجنة خاصة تجتمع لتقدير مقدار ما يجبي من الأموال ، فإذا اجتمع من ذلك المال شيء فوق ما فرض على قريتهم أنفق في إصلاح أحوالها . وكانت تجعل في كل بلد قطعة من الأرض يخصص ريعها لإصلاح الأبنية العامة وصيانتها . . . . وكذلك كانوا يقدرون ما يفرض على الناس من المال لضيافة العرب وكان هذا حقاً من حقوق العرب عليهم ، وكذلك ما كان يفرض من المال لضيافة الحاكم وإكرامه إذا وفد عليهم<sup>(٢)</sup> .

فأين كانت تلك الدواوين المكتوبة باليونانية في عهد عبد الله بن عبد الملك ؟ أما القرى فهذه طريقة تقدير الضرائب فيها . فإذا سجلوا ما قدروه كان تسجيلهم بالقبطية ، وإذا قيل إن العرب كانوا يحتفظون بسجلات يونانية لتدوين الخراج ، ومعرفة ما يجبي ومواعيده وشبه ذلك ؛ وإن القائمين بشأنها كانوا من الروم ، فهو قول يضعفه نخلى الروم عن الأعمال وانتقالها إلى أيدي القبط .

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٩١

(٢) فتح العرب لمصر ص ٣٩٢ ، حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٦٣ المطبعة الشرقية .

قلا عن ابن عبد الحكم .

وما عثر عليه من أوراق البردي في عهد الوليد بن عبد الملك ليس كتابة دواوين ، وفي الورقة الأولى والثانية من مجموعة جروهان<sup>(١)</sup> كلمات دينية معدودة ، باليونانية والعربية . وفي أسفل الورقة الأولى ، أو الطراز الأول كما يسميه ، نص قبلي من عشرة أسطر ، وفي أسفل الطراز الثاني ثمانية أسطر قبضية ، فليس في هاتين الورقتين من عهد الوليد ما يؤكد أن الدواوين كانت باليونانية . وإذا كانت هذه اللغة رسمية في عهد الرومان فقد زالت عنها هذه الصفة في عهد العرب . وربما جاء هذا اللبس من تشابه اللغتين ، فإن القبطية كانت تكتب بحروف يونانية ، وكان فيها كثير من الكلمات اليونانية . أما نظام الدواوين فكان يونانيا ، ولا مانع أن يبقى كذلك حتى بعد كتابتها بالعربية .

وبعد فإن ترجمة العرب لهذه الدواوين كان ضرورة لتقدمهم ورجبتهم في أن يلوا أمر البلاد بأنفسهم . وكثرت المصطلحات عندهم في أبحاث الفقهاء ، فلم يكن عسيراً عليهم أن ينقلوا الدواوين هنا وفي العراق والشام . ثم مر نوا على هذه الأعمال فاستغنوا في شئونهم المالية عن أن يديرها لهم دخيل .

ومن الرسائل الأدبية رسالة من عبد الله بن عبد الملك ، إلى موسى بن نصير وإلى المغرب ، لما تخطاه وكتب إلى أبيه عبد الملك في دمشق ، فكتب إليه عبد الله يهدده :

« أما بعد . فإنك كنت من عبد العزيز وبشر بين مهادين تعلمو عن الحضيض مهودها ، ويدفئك دثارها ، حتى عفا مخبرك ، وصمت بك نفسك . . . . . وأيم الله لأضمن منك ما رفا ، ولأقنن منك ما كثرأ ، فصح رويدا فكان قد أصبحت سادما ، تمص أنا ملك نادما ، والسلام<sup>(٢)</sup> . »

وكان جواب موسى بن نصير عليه<sup>(١)</sup> :

« أما بعد . فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما وصفت فيه ، من إزكاني إلى أبويك وعمك<sup>(٢)</sup> ، ولعمري إن كنت لئلك أهلا . ولو خبرت مني ما خبرا لما صغرت مني ما عظما ، ولا جهلت من أمرنا ما علما . . . فأما انتقامك لها ، فهما لك وأنت منهما ؛ ولها مك ناصر ، لو قال وجد عليك مقالا ، وكفاك جزاء العاق .

فأما ما نلت من عرضي فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك ، وأما تهدئك إياي بأنك واضع مني ما رفعا ، فليس ذلك بيدك ولا إليك ، فأرعد وأبرق لغيري ، وأما ما ذكرت مما كنت آتى به عمك عبد العزيز فلامري إني مما نسبتني إليه من الكهانة لبعيد ، وإني من غيرها من العلم لقريب ، فعلى رسلك<sup>(٣)</sup> فكأنك قد أظلك البدر الطالع ، والسيف القاطع ، والشهاب الساطع ، فقد تم لها<sup>(٤)</sup> وتمت له . ثم بعث إليك الأعرابي الجلف الجافي فلم تشعر به حتى يحل بعقوتك<sup>(٥)</sup> فيسلبك سلطانك ، فلا يعود إليك ، ولا تعود إليه ، فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم ، وتوقن أيننا النادم السادم ، والسلام . »

فلما قرأ عبد الله جواب موسى بن نصير كتب إلى عبد الملك كتاباً وأدرج فيه رد موسى عليه ، ولكن عبد الملك مات قبل أن يتلقى الكتاب ، ووقع في يد الوليد بعد أن عزل عبد الله عن مصر ، فلما قرأه استضحك وقال : لله درّه ! إن كان عنده لأثرة من علم ، ولقد كان عبد الله غنياً أن يتعرض له .

(١) الولادة والقضاء ص ٦١

(٢) لعل الأصل « إلى أبيك » ليستقيم مرجع الضمائر فيما يأتي .

(٣) الرسل بكسر الراء : الرفق والتؤدة والمعنى ترفق وتمها .

(٤) الخلافة .

(٥) العقوة والعقاة بفتح العين : ما حول الدار والمحلة ، والمراد ينزل بساحتك .

ويذكرنا هذا بما جرى بعد ذلك بين سليمان بن عبد الملك وهو ولي عهد الوليد ، وبين الحجاج بن يوسف زمن ولايته على العراق ، وإن كانت الرسائل بينهما أشد وأعنف (١) .

وكانت الرسائل تترى بين دار الخلافة والفسطاط ، وأكثرها كتب رسمية في شئون الدولة . ومن هذه الكتب كتاب من الوليد (٢) إلى قرة بن شريك يأمره بالزيادة في المسجد الجامع سنة ٩٢ هـ . وكتاب من عمر بن عبد العزيز إلى أيوب بن شرحبيل بالزيادة في أعطيات الناس عامة (٣) . ومنها كتابه إلى شريح في وضع الجزية عن (٤) أسلم . وكتاب يزيد بن عبد الملك بمنع هذه الزيادة لما ولي الخلافة . وقد كتب الحر بن يوسف والي هشام بمصر يعلمه « أن النيل قد انكشف عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها فإن الناس مضطرون إليها (٥) » فأذن له في بنائها .

ومنها كتاب عبید الله بن الجحباب إلى هشام كي يسمح له بإزالة قيس في جهة بلييس (٦) .

وكثير مثل ذلك حتى تنتهي دولة الأمويين .

( ح ) في عهد العباسيين .

واستمرت الرسائل في عهد العباسيين في المسائل العامة كذلك . وكثرت فيها كتب الأمان والتحذير والإشخاص والتهديد ، وكانت تسكر في أيام الثورات والفتن .

(١) سيف بن مروان للمؤلف ص ١١٠ - ١١٣

(٢) الولاة والقضاة ص ٦٥ (٣) الولاة والقضاة ص ٦٨

(٤) هذا الكتاب ص ٧ (٥) شرحه ص ٥١

(٦) هذا الكتاب ص ٩

وفي هذه الرسائل وأمثالها مجال واسع للمعاطف الثائرة ، والانفعالات القوية ،  
والبلاغة المؤثرة ، والاحتجاج بالدين والعقل ، وإيراد الشواهد والأمثال ، من  
القرآن الكريم والحديث ومأثور كلام العرب . ويغلب على هذه الرسائل الطول  
إذا قورنت بما كان عليه الحال في العهد السابق .

أما أسلوب الكتابة العلمية فلم يكن واضح الحدود في أول عهد العباسيين ،  
إذ أن المصطلحات العلمية كانت في دور التكوين ، وأساليب التأليف كانت  
ما تزال وليدة ، فكان للعلماء تصرف في القول ، وحرية في الطريقة ، وكانت  
الرسائل العلمية أدبية الأسلوب .

ومن أول هذه الرسائل العلمية التي تتسم بسمة الأدب الرفيع ، والأسلوب  
الجميل ، والعمق في الجدل ، والقوة في البرهان ، وتدل على علم غزير ، واطلاع  
واسع ، ومعرفة عظيمة بمسائل الدين وآراء السابقين فيها ؛ تلك الرسالة التي  
« كتبها سيد فقهاء عصره ، بل سيد فقهاء الأمصار علما ونبلا ، وهو الليث بن  
سعد فقيه مصر ، إلى أخيه مالك بن أنس يبين له ما يؤخذ عليه في مذهبه من  
جهة الاعتماد على عمل أهل المدينة ، وهذه الرسالة جواب عن كتاب كتبه إليه  
مالك<sup>(١)</sup> » .

والرسالة نفسها تشير إلى المكاتبات بينهما في مسائل الفقه ، وقد بدأها  
الإمام الليث على طريقة القرن الأول ، من السلام والحمد لله وأما بعد ؛ أما الدعاء

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي ص ١١٦ وقد نقلت الرسالة بتمامها هناك ، وأصلها في إعلام  
الموقين لابن قيم الجوزية ( ج ٣ ص ٨٢ وما بعدها ) ، ولم أقف على تاريخ إنشائها لكن  
مالك مات سنة ١٧٩ ، والليث سنة ١٧٥ ، فكانت كتب حوالى منتصف القرن الثاني

للمرسل إليه بالعافية وحسن العقبي فطريقة من طرق العباسيين .  
قال الإمام الليث رحمه الله :

« سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك ، الذي لا إله إلا هو . أما بعد عافانا  
الله وإياك ، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة .

« قد بلغني كتابك تذكرك فيه من صلاح حالكم الذي يسرني ، فأدام الله ذلك  
لكم وأتممه ، بالمعون على شكره والزيادة من إحسانه . وذكرت نظرك في  
الكتب التي بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك .  
وقد أتتنا ، جزاك الله عما قدمت منها خيرا ؛ فإنها كتب انتهت إلينا عنك ،  
فأحببت أن أبلغ حقيقةتها بنظرك فيها » .

ثم يقول له مشيراً إلى محور الرسالة ، وهو الاعتماد على عمل أهل المدينة .  
وذكرت « أنه بلغك أني أفيتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس  
عندكم ، وأنى يحق على الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيهم به ،  
وأن الناس تبس لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن . وقد  
أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع مني بالموقع الذي تُحِب .  
وما أجد أحداً يُنسبُ إليه العلم ، أكره لشواذ الفتيا ، وأشدَّ تفضيلاً  
للماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه ، مني .  
والحمد لله رب العالمين الذي لا شريك له » .

ثم يجادل صاحبه بالتي هي أحسن ؛ ويأتي بأمثلة ظاهرة ، وأدلة متظاهرة ،  
وحجج متواترة ، تؤيد رأيه .

ويختم الرسالة ختلاً أديباً عفيفاً ، فيه صادق المودة ، وشريف العواطف ، وكريم  
الصلوات ، وصالح الدعوات ، فيقول :

« وأنا أحب توفيق الله إياك ، وطول بقائك ؛ لما أرجو للناس في ذلك

من المنفعة ، وما أخاف من الضَّيِّعَةِ إذا ذهبَ بِمِثْلِكَ ، مع استثناسي بِمِثْلِكَ  
وإن نأتِ الدار ، فهذه منزلتُكَ عندي ، ورأى فيكَ ، فاستيقنَه . ولا تترك  
الكتابَ إلى بخبرك وحالك ، وحالِ ولدك وأهلك ، وحاجةٍ إن كانت لك  
أو لأحدٍ يوصل إليك ، فإني أُسرُّ بِذلك .

« كتبت إليك ونحن صالحون مُعَا فُونَ والحمد لله . نسأل الله أن يرزقنا  
وإياكم شكرَ ما أولانا ، وتمامَ ما أنعمَ به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله . »

ومن الكتب التي تركت آثاراً قوية في حياة العرب ولغتهم في مصر تلك  
الرسالة التي كتبها المعتصم إلى واليه على مصر ، نصر بن عبد الله ، الملقب  
« كَيْدُر » . وقد أمره فيها بإسقاط من في الديوان من العرب ، وقطع أعطياتهم  
سنة ٢١٨ هـ<sup>(١)</sup> . وكان ذلك سبباً في خروج يحيى بن الوزير الجروي في جمع من  
لخم وجذام ، وترتب على قطع أعطياتهم ، وإسقاطهم من الديوان أن اضطروا إلى  
مخالطة أهل البلاد ، ومصاهرتهم ، والاشتغال بمثل أعمالهم ، وأصبحوا ينظرون إلى  
البلاد على أنها دار إقامة لهم . فأدى ذلك إلى انتشار لغتهم ، ثم سيادتها .

وفي القرن الثالث الهجري ظهر القول بأن القرآن مخلوق ، وأثار المأمون فتنة  
بين الناس من أجل هذا القول ، وحملهم عليه حملاً ، وكتب منشوراً عاماً بامتحان  
الفقهاء والعلماء ليرى رأيهم فيه ، ويرغم من خالف . وكتب أخوه أبو إسحق  
« المعتصم » إلى كيدر ، واليه على مصر ، أن يأخذ الناس بالهنة ويختبر عقيدتهم  
في القرآن<sup>(٢)</sup> .

وكان كتاب أبي إسحق :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد ، أخي

(١) الولاية والقضاء ص ١٩٣

(٢) الولاية والقضاء ص ٤٤٥

أمير المؤمنين ، إلى نصر بن عبد الله ، كيدر ، مولى أمير المؤمنين .  
سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا اله إلا هو ، وأسأله أن يصلي على  
محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد . فإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، كتب إلي ، فيما أمرني به من  
الكتاب إلى قضاة عملي ، في امتحان من حضرهم للشهادات ، فمن أقر منهم بأن  
القرآن مخلوق ، وكان عدلا ، قبلوا شهادته ، ومن دفع ذلك أسقطوا شهادته ، ولم  
يرفعوا حكما بقوله ؛ وامتحان أولئك القضاة بهذه المحنة ، فمن نفي منهم التشبيه ،  
وقال إن القرآن مخلوق ، أقره بموضعه ؛ ومن دفع أن يكون القرآن مخلوقا أمرته  
باعتزال الحكم ؛ وأن لا يُمانَ بمثل ذلك ، في جميع أهل الحديث هنالك ، ومن  
يُسمع منه ، أو يختلف إليه بسبب الفقه ؛ وترك الإذن لأحد منهم في حديث  
أو فتوى إلا على انتحال هذه النحلة ، والقول بمثل هذه المقالة ؛ والبلوغ في كرامة  
من يعتقد ذلك ومراعاته ، مبلغ المحتسب للخير ؛ والكتاب إليه أكرمه الله بما  
يكون منك . وقد رأيتُ أن تمتحن القاضي هناك بالمحنة التي كتب بها أمير  
المؤمنين أطال الله بقاءه ، ليعرف مذهبه وما عنده بأن القرآن مخلوق ، وترك التشبيه  
والشك فيه ، فقدمت إليه في امتحان من يحضره للشهادات بهذه المحنة ، ومن  
أقر منهم وكان عدلا قبلت شهادته ، ومن دفع ذلك وامتنع منه أسقطت شهادته ،  
وإن أنكر القاضي أن يكون القرآن مخلوقا أمرته باعتزال الحكومة ، وأوعزت  
بمثل ذلك إلى أهل الحديث ومن يسمع منه أو يختلف إليه ، لسبب الفقه ، وكتبت  
إلى القاضي قبلك بمثل الذي كتبت إليك . فاعلم ذلك ، واعمل بما مثل به أمير  
المؤمنين منه ، وائته إليه ، وابلغ من القيام به على حسب ما يلزمك ويجب عليك ،  
وأحضر ما تعمل به عنده من وجوه أهل عملك وصلحائهم ، واكتب إلي بما يكون

من القاضى فى ذلك ، ومنك ، على حقه وصدقه ، لأنهم إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة وبركاته .»

وورد كتاب المعتصم على هرون بن عبد الله بحمل الفقهاء فى المحنة ، فاستعفى هرون من ذلك ، فكتب ابن أبى دؤاد إلى محمد بن أبى الليث بأمره بالقيام فى المحنة ، وذلك قبل ولايته القضاء ، وكان رأساً فى القيام بذلك ، فحمل نعيم بن حماد ، والبويطى ، وخشنام المحدث فى جمع كثير سواهم<sup>(١)</sup> .

واشتدت المحنة فى أيام الواثق ( سنة ٢٢٧ - ٢٣٢ ) وأمر أن يؤخذ الناس بها ، وكأنها نار أضرمت ، وورد كتابه على محمد بن الليث بامتحان الناس ، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس ، وملئت السجون ممن أنكر المحنة ، وأمر ابن أبى الليث بالاكتاب على المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق . فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد ، وأمرهم ألا يقربوه<sup>(٢)</sup> .

واستمر البلاء حتى ولى المتوكل الخلافة ، فكتب إلى الوالى هرثمة بن النضر بأمره بترك الجدل فى القرآن سنة ٢٣٤ ، وعزل ابن أبى الليث ، وورد كتاب المتوكل بلعنه على المنبر ، وحبس وأهين وحلق رأسه ولحيته ، وطافوا به الفسطاط على حمار . ثم خرج من سجنه سنة ٢٤١ إلى العراق .

ولعل هذه الفتنة من أشد ما أثار الجدل بين المسلمين فى القرن الثالث وسفل

(١) الولاية والقضاة ص ٤٤٧ .

(٢) الولاية والقضاة ص ٤٥١ .

(٣) الولاية والقضاة ص ٢٩٧ .

الأدب كتابة وجدلا وشعرا . ونحن نرى أن مصر قد شاركت فيه ، وسفل  
علمائها به ، وأوذوا في سبيله ؛ أما الجدل في مسائل الحلال والحرام والفقہ وأصوله  
وفروعه ، فكان قويا جداً بين الشافعية والحنفية والمالكية وكتبهم  
تشهد بذلك .

والحديث عن هذه المؤلفات وأساليبها ، وطرق رجالها في البرهنة والشرح  
والتقرير له مكانته في تاريخ الفقہ والتشريع .

# الفصل الخامس

## كتابة الرسائل

— ٢ —

من ابن طولون إلى الفاطميين

رأينا فيما سبق أن الرسائل كانت ضعيفة في مصر ، ولم يؤثر منها بعد زمن عمرو إلا النادر ، الذي أفلت ، فلحق بما بقي من رسائل الشام والعراق . ولم يكن مركز مصر في الدولة الإسلامية ليهيئ لها ظهور الكتاب فيها ، أو إقبالهم عليها بسبب تبعيتها لدار الخلافة ، وانصراف الكتاب وغيرهم من أهل الأدب إلى حاضرة الدولة ، حيث العطاء الجزيل ، والمناصب الرفيعة ، والشهرة الواسعة ، والحظ الباسم لمن سعدوا بقرب الخلفاء والوزراء .

وما كان لهؤلاء الكتاب — في عهد العباسيين خاصة — أن يتركوا بغداد حاضرة الدنيا ، ومعين الخير ، وجنة النعيم ؛ والتي لم تكن توزن بها حاضرة أخرى في الدولة ، ولا برجالها رجال في نواحي المملكة ، وكانت دواوين الإنشاء فيها موئل كل مجيد من الكتاب ، ومدرسة كل طامح من الناشئين .

ديوان الإنشاء :

فلما حاول ابن طولون الاستقلال عن بغداد رأى أن يجعل استقلاله كاملاً : فكون جيشاً ، وبني حاضرة ، واستخدم كتاباً ، وأنشأ ديواناً للإنشاء .

ويقول المؤرخون إنه كان أول ديوان للإنشاء<sup>(١)</sup> بمصر . وروى صبح الأعشى<sup>(٢)</sup> أنه كان لديوان الإنشاء بالديار المصرية خمس حالات — يعيننا منها الأولى والثانية — .

الحالة الأولى : ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة الطولونية ، ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحداً بعد واحد ، فلم يكن لهم عناية بديوان الإنشاء ولا صرف همّة إليه ، للاقتصار على المكاتبات لأبواب الخلافة ، والنزول اليسير من الولايات ، ونحو ذلك ؛ ولذلك لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب ، ولا يتناقل بالألسنة .

ويقول أيضاً عن هذه المدة التي سبقت ابن طولون<sup>(٣)</sup> : إنه لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية في هذه المدة صرف عناية ؛ تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة .

الحالة الثانية : ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية من ابتداء ولاية أحمد ابن طولون واستفحال ملك الديار المصرية في الإسلام ، وترتيب أمرها إلى انقراض الدولة الإخشيدية ، وفي خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بها وانتظم أمر المكاتبات<sup>(٤)</sup> .

ويقول صبح الأعشى<sup>(٥)</sup> أيضاً إن ابن طولون أول من أخذ في ترتيب الملك

---

(١) لعله كان في ولاية مصر من تشبه بالخلافة فجعل لرسائله كتاباً ولكن ذلك كان نادراً : روى ابن النديم في الفهرست ص ١١٣ أن جابر بن داود البلاذري — جد المؤرخ — كان يكتب للخليفة بن عبد الحميد عامل الرشيد على مصر وممدوح أبي نواس . وفي خطط القرظي ج ٢ ص ٢٢٦ أنه كان للولاية كتاب ينشئون عنهم الرسائل إلى الخليفة وغيره .

(٢) ج ١١ ص ٢٨

(٣) ج ١ ص ٩٥

(٤) ج ١١ ص ٢٩

(٥) ج ١ ص ٩٥

وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ؛ ولما شمخ سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه في المكاتب والولايات .

### فضل ابن طولون على الكتابة :

وكان لابن طولون فضل في إقامة دعائم الكتابة لحاجته إليها في حكم البلاد وكانت الضرورة تقضي في أثناء ولايته الطويلة ( ٢٥٤ — ٢٧٠ ) أن يكون دائم المكاتب ، لما كان يشغله من أمر الخلافة ، وأمر الثغور ، والبلاد التي كانت يسيطر عليها ، وما كان يجد في مصر من فتن وأحداث تستدعي الكاتب الماهر ذا الرأي السديد والقول النافذ . فاختار لكتابه قوماً عرفوا بالبلاغة كما عرفوا بالأدب وحسن التوجيه والإرشاد .

روى أنه أراد أن يكتب رسالة فاستدعى ابن عبدكان كاتبه وألقى إليه بالمعنى الذي يريد . قال ابن عبدكان في حق هذه الرسالة : فوالله العظيم ما حضرني لهذا الكتاب أحسن من معاني ألفاظه كلها ، فلم أتجاوزها . وأنفذ الكتاب وأعمل به<sup>(١)</sup> .

وكان اختياره لابن عبدكان دليلاً على حسن الاختيار ، قال صبح الأعشى فيه<sup>(٢)</sup> : « فاستكتب ابن عبدكان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره » .

وقد عرف عنه تدقيقه في الرسائل التي تصدر عن ديوانه . فلم يكن كتابه يختمون كتاباً ولا يحرورن نسخة حتى يعرضوه عليه ، فإن استصابه أمضاه وإلا غيره .

(١) سيرة ابن طولون للبلوي ص ١١٠

(٢) ج ١١ ص ٢٩

### ديوان التصفح :

وكان لما استكتب في خروجه إلى الشام أبا الضحاك محبوب بن رجاء ، ولم يكن بالكامل ، إلا أنه كان حاضر الذهن حلو الألفاظ ، فمرض عليه يوماً كتاباً فلم يقل فيه شيئاً ، فأنفذه محبوب فسأل عنه أحمد بن طولون بعد أيام ، فقال له : قد أنفذه . فحرد عليه واغتاط ، وقال له : ويلك ! حق الكتب أن تراجع فيها الأفكار ، وقد كان ينبغي أن تؤخر إنفاذه وتراجعني فيه . فكانت كتبه بعد ذلك تؤخر لمراجعة النظر والتصفح بعد الإنشاء ، وجعل لها ديواناً سماه ديوان التصفح (١) .

وكان حريصاً على مراجعة الكتب والزيادة عليها بما يريد أن يُيسره عن كتابه . وحدث عنه ابن عبد كان في ذلك قال : « كنا ننشى الكتب إلى السلطان وغيره من أصحاب أعماله فيرد في الأجوبة غير ما صدرت به الكتب إليهم ، فذكرت له ذلك لما كثر ، فضحك وقال : هذه أجوبة عن أشياء أضمنها أنا الكتب لا أطلعكم عليها (٢) » .

ومثل هذا الأديب المدقق يحمل كتابه على حسن الاختيار ، وتهذيب الكتابة والحرص في التعبير ، وحمل النفس على الإجابة ، وسلامة التفكير ؛ لينالوا ثقتهم ويسلموا من أذاه .

### تفضيله المصريين في الكتابة :

وكان له رأى شديد في تفضيل المصريين على العراقيين . فإنه كان - مع إيمانه بتفوق العراقيين في الكتابة - يفضل استخدام كتاب مصريين : نقل عنه أنه

(١) سيرة ابن طولون للبلوي ص ١١٢

(٢) سيرة ابن طولون للبلوي ص ١١٢

لما وجه بانواسطى إلى العراق واستكتب جعفر بن عبد الغفار ، اضطرب بما حمله من الأمر ، ولم يكمل له ، فقال له حمدان بن خاقان : الأمير أيده الله يحتاج إلى كاتب أوفى وزناً من هذا الكاتب ، فقال له : أنا أحتمله وأقنع به لأنه مصرى . فقال له حمدان ، وكأنه عجب من قناعته بكاتب مصرى لا يبغي غناء العراقى : والأمير أيده الله يرى أن الكاتب المصرى أكتب من العراقى وأنهض بما يتولاه ؟ قال له : اعلم أن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، فإنه يجمع بذلك أشياء تحمد عاقبتها ، منها أن عيال الكاتب وشمله وكل ما يملكه معه في بلده ، ومنها أن جميع ما يكسبه فيه ، وإن كان ممن يرغب في تجارة كانت تجارته فيه ، أو في شراء عقار أو بناء كان فيه . ثم يقول : والكاتب الغريب ليس كذلك لأنه يمتدد المستغلات في البلد النائي عنى ، وكده عمارة بلده بتخريب بلدى ، وهو كذلك في كل حال ، متطلع إلى بلده . . . فهذا الذى زهدنى في كتاب العراق ، مع علمى بما فيهم من الصناعة وتقدمهم في الكتابة .  
فقال له : قد أصاب الأمير الرأى وفقه الله<sup>(١)</sup> .

وأرى أنه كان يريد تدريب المصريين على خدمته ، والقيام بأمر دولته ، ليستغنى بهم عن العراق ورجاله الذين لا يرون له فضلاً عليهم ، لأنه كان بالأمس واحداً منهم . وربما دعا ذلك أدباء البلاد إلى الثقة بأنفسهم ، والنهوض بأدبهم ، واستكمال ما ينقصهم ، ليرتقوا إلى المنزلة التى أراد أن يرفعهم إليها ، ويكونوا أهلاً لمساواة كتاب العراق ، وشغل صراكمهم ، والحلول محلهم .

وترى كاتب الأمير أصبح رجل دولة ، يعتمد عليه في المراسلات السياسية ويوكل إليه تدبير بعض شئون الدولة ، ويستشار قبل الإقدام على عظيما الأمور .

وإليك القصة التالية :

كان ابن طولون يود أن يختطف الخليفة من بغداد ، وينقل كرسى الخلافة إلى

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١٠٦

مصر ليعبدها عن تأثير الموفق وسلطانة ، فحدث أحمد بن محمد الواسطي في ذلك فقال له : ما تبلغ معرفتي وفهمي الكلام في هذا الباب ، ولكن في محبتك من إن أحضرته واستشرته أشار — لفهمه ورجحان عقله — عليك بالصواب . فقال : ومن هو هذا ؟ فأجابه : محمد بن اسماعيل بن عمار . فقال له : صدقت ؛ إنه كذلك ، ولولا نفورى منه ، لخوفى من غوائله ودهائه ، لما كان بحيث هو ، وكان ممي في أجل حال ، فأحضرني . فأدخل عليه بهيئة السجن وملابسه ، وعليه قميص غليظ ، وقد اسود من طول دخان السراج . وشعره قد طال ، حتى سقط على وجهه لكثته في المطبق ، فاستدناه فدنا ، ثم استدناه ثانية ، فدنا وقال : ما أرضى رأحتي للأمر أيده الله .

فقال له : دعوتك لأستشيرك في أمر أردت أن أفعله ، لعلني بجودة رأيك ، وصحة فهمك . فقال له : أين الرأي مني اليوم أيها الأمير ، وهذه حالي ؟ فقال له : أنت أوفى رأياً ، وأذكي قلباً ، من أن يحتل عليك ما التمسته منك ، أو يمتريك ما يمتري ذوى النقص . فقال : يقول الأمير أيده الله ما شاء ، والله جل اسمه الموفق فقال له . إن أبا أحمد الموفق قد احتوى على أخيه أمير المؤمنين المعتمد بالله ، ونفذ أمره في كل ما يريد ، وتمكن من إعنائه بمن ضم إليه أمير المؤمنين من الرجال والجيش الذي استدعاه منه لقتال البصرى . فلما حصل ذلك له صارت له عدة على أمير المؤمنين ، وقد خفت حنثي في يميني التي له في عنقي إن قعدت عنه ، وقد عزمت على الخروج إليه بنفسى وجميع جيشى ، حتى أنصر دعوته ، وأنقله إلى ، فما ترى ؟ .

فقال : « إن من الخطر العظيم أولاً خروج الأمير بنفسه وجميع جيشه وعدته لأن الحرب سجال ، والظفر بحسب التوفيق ، فأخاف أن يلحق الأمير — وأعيذه بالله — هزيمة ، فلا تكون له بعدها قائمة . ولأن يكون الأمير ، أيده الله ، من

وراء من يبعث به إلى هذا الوجه ، وهو مادة له ، أولى من أن ينفذ بنفسه ، وبعد هذا فأرى كلام الأمير كلام من قد لهج من نصرة المعتمد ، وما يريد من رد أمره إليه ، مما لا يراه له المعتمد ، ولا يعتبر به له ، لأنه رجل مشغول بلهوه ، منهمك في لذاته ، بمزلة عن حسن تدبير ، وأن يكافى على فعل جميل .

« رأيت أيها الأمير لو انتقل إليك ، وتمت للأمير حمايته من أخيه ، وأجابك إلى ما دعوته إليه ، أكان له في قصرك دار يسكنها غير دارك ؟ فأول ما يستعجل الأمير أن ينتقل عن هذه الدار إلى ما لا يقاربها ولا يدانها ، بل تضيق بمن يحوطه بل لا تسع بعضهم ، ثم يكون الأمير إذا دخلها كعض الزوار .

« ثم أنت أيها الأمير الآن المتبوع الآمر ، فلا تلبث أن تصير التابع للمأمور ، ولعله أن يكون عنده أثر الناس مُفَنَّ أو مُنْه أو نديم ، لا يَفْشُر غلام الأمير وليس له منه منفعة في أمر ، ولا يحمل عنه شيئاً من ثقل ، ولا يزيد على أن يلهيه ، ويسهل موارد أموره ومصادرها عليه .

« وأقل ما في هذا الباب الثاني أنه إذا دخل الأمير للسلام يكون قائماً ، وذلك النديم أو الملهي جالساً ، لموضعه منه ، ومنبسطة إليه . ولعل هذا إذا شاهدته الأمير أخرجته إلى أكثر مما خرج إليه أخوه الموفق فيه ، ثم لا يأمن الأمير أن يسأله بمض غلمانه في ضيعة من ضياعه ، أو عمل فيه أخص غلمان الأمير ، فلا تمكنه مخالفته في كل ما يستدعي منه ، ثم اعتراضات حاشيته في البلد وأصحابه ، وكذلك في الأعمال ، وطلبهم ما يشق على الأمير ويعظم ، فلا يتهيأ له منهم ، فإن منع أغضب أمير المؤمنين ، ثم الأمير بعد هذا غير آمن من أن تحمله المحافظة لمن يسأله استنزالك عن موضعك ، فيجيبه ليكافئه على حال قد تقدمت له عنده إلى محبته ، ولا يخالف إرادته .

« وحسبك أيها الأمير ، أن تستدعي رجلاً إلى بلدك وملكك فإذا بلغته الناية القصوى ، وسوغته كل ما كدحت فيه دهرك ، رأى أن ذلك

كله له وبين حاله ، وأن الذي قد بقي معك مما تتجمل به بين يديه ، له دونك ، وأن إبقاءه لك تفضل عليك » .

« إن من إقبال الأمير ما يلحق المعتمد من أخيه ، لأنه يجد بذلك الحجّة على خلافه ، وترك الانتهاز له ، وإسقاط اسمه والدعوة له ، وتأليب الأولياء عليه ، وفي هذا ما يتهيأ له بلوغه من معونة أمير المؤمنين ، وما يثني أخاه عليه فيعود له إلى إرادته ، ويزول عنه ما يكرهه ، وما أحب أيها الأمير إظهار هذا الاجتهاد العظيم في قهر الموفق ، ونصرته لأخيه عليه ، لما يتخوف من مثله ، تقوية يده وكبر أمره وتمكنه .

والذي أرى — ولرأى الأمير ، أيد الله فضله — ألا يفعل ما إذا فعله جرى الأمر فيه بينه وبين أمير المؤمنين على ما شرحت له ، مما يخرج الأمير معه إلى أكثر مما خرج أخوه إليه » .

فقال له أحمد بن طولون : حسبك حسبك ، وأمر برده إلى محبسه .

قال أحمد بن محمد الواسطي لأحمد بن طولون : أيها الأمير أكان جزاء هذا الرجل على هذا الرأي السديد الصحيح ، الذي قال فيه الحق ، ومحض النصيحة ، أن يرد إلى محبسه ؟

قال : نعم ، إنى تأملت أمره ، فوجدته قد نصحتني في دنياي ، وغشيتني في ديني وأخرتي ، ثم تأملت رأيه وجودته وصحته ، وما حضره منه بغير فكر ولا استمداد وهو على هذه الحال الصعبة القبيحة الفنية للحس ، فضلاً عن غيره ، فكيف لورأى نفسه مطلقة ، وهو نافذ الأمر والنهي ، يأكل طيباً ، ويلبس لنا ، ويشم عطرأ ، إذا لاستد رأيه ، ولبمد غوره ، وتمكن من عدوه ، بقوة حيلته وعزم رأيه .

إن أجهل الأمراء من أعطي مقادته الكتاب العقلاء ، لأنهم أسد الناس رأياً ، وأقلهم

ديناً ؛ بل يقبل رأيهم من غير أن يظهر لهم فيه استصابة <sup>(١)</sup> !

هذه النصيحة التي تفيض بالإخلاص للأمير ، والرغبة في تثبيت ملكه ، ودوام العز والسيادة له في بلده ، لم تلق من الشكر ما تستحقه ، ولم يعامل صاحبها بما هو أهل له ، بل فكر الأمير تفكيراً غريباً ، واتخذ من سداد رأي الكاتب وحسن نصيحته ، وتوفيقه في مشورته وهو في هذه الشدة والضيق ، سبباً للخوف منه ، فأبى أن يتركه حراً طليقاً ، واتهمه في نصيحته ؛ وحذر من الكتاب جميعاً .

وهذه القصة تؤيد أيضاً ما تقدم من أن الكاتب لم يكن ناسخاً ، بل كان مستشاراً في مهام الأمور ، يحتاج إلى ثقافة واسعة ، وعقل ناضج ، وبديهة حاضرة ، وتدبير محمود ، وبصيرة نافذة ؛ مع الصفات الأدبية كالعلم بالأخبار ، ورواية الأشعار ، وحسن الاستشهاد والاقْتِباس ، وقوة الحججة والبرهان ، وغير ذلك من صفات البيان .

### معاداته للأدباء :

اتهم ابن طولون بمعاداته للأدباء ، وعدم تشجيعه للأدب المحض بالرغم من أنه كان أديباً . وقد جاء في مقدمة « سيرة ابن طولون » للبلوي <sup>(٢)</sup> أنه كان يُفضّل على النساك والقراء والفقهاء والمحدثين والتطبيين والمهندسين ، يجري عليهم ما يكفيهم . ولا يعني كثيراً بالنجمين والشعراء على ما يظهر ، لبعده عن الاعتقاد بتأثيرات النجوم على أهل الأرض ، ولاتهم كثيراً مصانعات الشعراء . وقد مدحه البحترى ثم هجاه ، وتوفر محمد بن داود على هجوه عند كل سائحة .

وقد يفهم من سجنه لمحبوب بن رجاة وقفله بالكاتب ابن عمار ، ورايه في الكتاب جميعاً — وهو الرأي المدون في آخر قصة ابن عمار — أنه كان مجافياً

(١) سيرة ابن طولون للبلوي ص ٢٨١ — ص ٢٨٥

(٢) ص ٢٤

للأدباء ، شديداً على الكتاب ؛ يحذرهم ، ويسى الظن بالعقلاء الأذكياء منهم .  
ولكن هذه حالات فردية ؛ فقد مدحه البحترى طمعاً في عطائه ، ثم هجاه  
لما حرمه ، وكان سخطه على محبوب بن رجا بسبب إفشاء محبوب لأسرار العمل  
الذى أوتمن عليه ، إذ كان ينقل إلى العباس بن أحمد بن طولون التقارير التى كانت  
تأتى عنه إلى أبيه<sup>(١)</sup> ، أما سر غضبه على ابن عمار فجهول ، وقد تركه فى الحبس  
حتى مات .

لكن بقية أحواله تدل على أنه كان يقدر الأدب الراقى ، والبديهة الحاضرة ،  
وحسن الجواب ، وسديد الرأى . وكان يعجبه فصاحة اللسان ، وجمال العبارة ،  
مع جميل العذر ، شأنه فى ذلك شأن كل عاقل ، مهذب الذوق . وقرأ القصة الآتية :

### أنقذته فصاحته من ابن طولون :

حدث نسيم قال : خرج مولاي ليلة إلى قبة الهواء ، فسمع فى أطراف المعافر  
كلباً ينبج ، فراه ذلك ؛ فقال للفلان وهم قيام بين يديه : اركبوا الساعة ، وامضوا  
ركضاً نحو هذا الكلب ، فانظروا على أى شئ يصيح ، فإن وجدتم أحداً  
فجيئوني به .

فمضى الفلان نحو صوت الكلب حتى أدركوه ، فوجدوا رجلاً قد كان عند  
صديق له من جيرانه ، وقد انصرف من عنده يريد منزله ، فوجد بابه مغلقاً ، وهو  
قائم عليه يدق ، وقد منع أهله غلبة النوم عن أن يسمعوا دقه . وكلما دق الرجل  
ينبج الكلب عليه ، فأخذوه ، وأردفه أحدهم خلفه ، وأقبلوا به ركضاً ، فلما رأى  
الرجل ما حل به طار التبيذ من رأسه ، وأقبل يستعين بالله ، فلما أوقفوه بين يديه  
كاد عقله يذهب ، حتى ثبته الله عز وجل ، فعرفه الفلان صورة الأمر ، فقال له

أحمد بن طولون : ما الذى حملك على الخروج فى مثل هذا الوقت ؟ فقال له : أنا أحدث عنه الأمير أيده الله : كنت عند صديق لى من جيرتى ، وتمادى بنا الحديث إلى هذا الوقت ، وكنا نستعمل الحذر والتحفظ قبل أيام الأمير ، أيده الله ؛ فلما ولينا ، واشتدت وطأته على أهل الدعارة والفساد انقمعوا<sup>(١)</sup> من هيبتته ، وخافوا من سطوته ، فأمننا لذلك وصرنا نخرج فى مثل هذا الوقت ، وقبله وبعده آمنين ، ببركة الأمير أيده الله .

فاستحيا منه أحمد بن طولون لحسن عبارته وبيان قوله ، وتوقف عما كان قد عزم عليه من التأديب له فى الخروج فى مثل هذا الوقت . وقال له : قد كنا على تأديبك على مخاطرتك بنفسك فى مثل هذا الوقت ، فأزال ذلك عنا جميل عذرك ، وحسن عبارتك عن نفسك ، وفصاحة لسانك ، وعلما أن ذلك لا يكون إلا فى عاقل ، وكفى بالعقل واعظاً . وقد جعلت العوض من ذلك سرعة ردك إلى منزلك ، فلست أشك بأن أهلك لما علموا بأخذنا لك قد قلقوا لذلك . ثم قال لبعض الغلمان : أردفه خلفك ورده إلى منزله ، وقام هو فأخذ مضجعه وقد مضى أكثر الليل .

### أعراية أبت أن يكون ابنها جاسوسا :

وهذه قصة أخرى تدل على ميله إلى مجالس الفصحاء ، وإعجابه بحسن قولهم تفسيراً لوجهة نظرهم :

دخلت أم عقبة الأعراية يوماً إلى أحمد بن طولون ومعها ابنها عقبة ، وكان

---

(١) قعه : ضربه بالمقمة وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ، والجمع مقامع وقعه كقعه ضربه بها وقهره ، وذلك ، كقعه ، وانقمعوا ذلوا وقهروا .

كثيراً ما يأنس بها ويحب محادثتها لفصاحتها ، وحسن كلامها ، وكان يكثر برها في كل وقت ، فسألته التقدم في تصريف ابنها فيما يعود عليه نفعه ، فقال لابن مهاجر وهو بين يديه : انظر له في شغل يعود عليه فيه خير بين عليه ، وكان البريد إليه ، فقلده ابن مهاجر بريد ناحية من النواحي ، وأجرى عليه من الرزق عشرة دنانير في كل شهر ، فحدث ابن مهاجر قال : إني لقاعد بين يدي أحمد بن طولون بعد ثلاث ، حتى دخلت أم عقبة على الأمير فقالت : أنا شاكرة للأمير أيده الله ، ذامة لهذا الرجل ، تريدني ، فقال لها : ولم ذاك ؟ فقالت : أمرته في إشغال ولدي فيما يعود عليه نفعه فشغله فيما لا يُرْحَضُ عن رءوسنا عاره وشناره ، والجوع الكريم أنفع من الشبع اللثيم ، فقال لها : وما ذاك ؟ قالت : وكله بالنميمة يمحسبها على المسترسل ، ويهتك بها المستر ، فقد تحاماه الناس وتناذروه ؛ فإذا لم يكن غير هذا تركته ، ولم أتعرض لما فيه مقت الله عز وجل وسب عباده . فضحك أحمد بن طولون ، وأمرني أن أجرى العشرة دنانير في كل شهر ، وأعفيه من البريد ففعلت ، فشكرت ودعت وقالت : هذا الأشبه بك أيها الأمير وانصرفت<sup>(١)</sup> .

وورد في كتاب ابن الداية قبل هذه القصة ما يأتي : وحدثني نسيم قال : تظلمت عجوز أعرايية تعرف بأُم عَقِيل ، إلى أحمد بن طولون من تسخير أجمال لها ، وكانت فصيحة اللسان ، حسنة البيان ، فتقدم برد أجمالها وأمر بعض الحجاب أن يلحقه بها إلى داره ، فوافقت ، فتقدم في إطعامها ، وأن يخلع عليها أثواب ضخام . وكان في دولة ابن طولون فصحاء ينهضون بعبء الوفاة ، ويحسنون تحمل الرسالة ، ويزينون أقوالهم بوضوح برهانهم ، ويفتنون سامعهم بمذب كلامهم ، ويرهبون عدوهم بقوة بيانهم . وكان يتخيرهم ، ويستعين بهم في مهمات أموره ، وإليك خبر وقادة من هذه الوفادات .

ثار العباس بن أحمد بن طولون على أبيه ، وأعانه على ذلك طائفة من قواد أبيه وكتابه . فمن القواد على بن ماجور ، وعبد الله بن طغيا ، وأحمد بن صالح الرشيدي وأحمد بن القاسم بن أسلم ، وجعفر بن حذار الكاتب ، وكل هؤلاء كان لأحمد بن طولون عنده النعمة الجزيلة ، والإحسان التام ، والأشياء الخطيرة ، إلا أن الحاسد لا دواء له ، ولا يقنعه إلا أن يأتي على نفس من يحسده<sup>(١)</sup> .

ومنهم طائفة أخرى مذهبهم النحو والغريب ، وعلم النجوم ، والشعر وما يجري مجراه . وانضاف إليهم جعفر بن عبد الله ، وأحمد بن المؤمل المعروف بأبي معشر ، ومحمد بن أزهر المعروف بالمتوف . وكل هؤلاء حسنوا له التغلب على مصر والفتك بأحمد بن محمد الواسطي . فسار إلى إفريقية ، وعاد أبوه من الشام فأرسل إليه وفداً على رأسه القاضي بكار بن قتيبة<sup>(٢)</sup> وفيهم زياد الممدني مولى أشهب . وكان فصيح اللسان ، حسن العبارة ، قوى الفهم ، وأمرهم بملاينته وملاظفته ووعده في كتابه الصفح عما جناه ، وألا يسوءه بمكروه ، وحلف له على ذلك بأيمان ، مغلظة .

فلما وصلوا إليه رحب بهم ، وأكرمهم ، ورفع مجلسهم . فابتدأ زياد الممدني فقال : يا سيدي . سيدنا الأمير أيده الله ، يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : يا أقرب الناس إليّ ، وأبرهم لديّ ، وأعزهم عليّ ، خفرت ظني بك أقوى ما كان أمني فيك ، وأرجى ما كنت لك . عن غير إساءة كانت مني إليك ، ولا خطيئة ركبها فيك . ولم ترع حسن تربيتي لك ، واعظم إشفاق عليك . وأنا رشحتك لمنزلتني . وقدرت بك حياة ذكري ، وصيانة شملتي ؛ فأرضيت عدوي ، وأسخطت وولي . أيا سبحان الله ! أما تخاف العقوبة في العقوق — وقاها الله جل اسمه

(١) س ٢٤٥ سيرة ابن طولون .

(٢) س ٢٤٩ سيرة ابن طولون .

فيك ؛ وثمرة المجازاة على الإساءة - صرفها الله بكرمه عنك ؛ فإن رجعت إلى .  
فكأنك لم تذب . وإن تبادى بك الاغترار شخصت إليك بنفسى . ولم أكن  
بأول من خسر سعيه . وأخلف تقديره « . وبكى زياد وبكى معه من حضر ؛ فتدمع  
العباس وبلغ قوله من قلبه .

ولكن ابن حدار حذره أباه ، وخوفه ما قد يصيبهم جميعاً . وكان أبوه قد  
كتب إليه كتاباً مع الوفد يستلينه ويمده . ولكن ابن حدار أنشأ للعباس  
كتاباً يرد به على أبيه . وفيه شرائط مجحفة . واستمرت بينها المكاتبات طويلاً .  
وكان مما أفاظ أحمد بن طولون من مكاتبات ابنه العباس إليه حتى استخفه  
إلى الخروج بنفسه ؛ قوله في كتابه ، من إنشاء جعفر بن حدار<sup>(١)</sup> :

إلى الأمير أبي العباس أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين ، من عبد الله  
مولى الله ، التمسك بمناجى طاعة الله ، المنحرف عن زيغ ظلم المعصية ، إلى وضوح  
سر البصيرة ، القابل من الله موعظته ، والعامل بما أمر به . إذ يقول جل ثناؤه .  
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » . وقوله عز وجل : « فلا  
تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » .

سلام على الأمير ، وعلى من استرجع وادّكر ، وفكر وازدجر . فأنا أحمد  
إلى الأمير الله لا إله إلا هو ، العاطف بى إلى أرفع سنن الهداية ، والعاذل بى عن  
ظلم سنن الجهالة ، وأسأله صلاة تامة يخص بها وليه ، وخيرته من صفوته ،  
ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ، وفق الله الأمير لمحال رشده ، وجنبه مقابح أمره ، وسخر له الخلق  
عن غامض ذكره ، فإن كتاب الأمير ورد عن الحائذ منه ، عن سبيل العظة  
والتذكير ، إلى سبيل التهديد والتحذير ، فيبعد وقرب ، وأنس وهدد ، وجمع

(١) ص ٢٥٦ سيرة ابن طولون .

وفرَّع . يبذل من نفسه باليسير فيها . ويدعو إلى الصلة ويحدث غيرها . ويعرض من ماله الأنفس . ويُبصِر من خطابه الأثر ، ويمدد من واجب حقه ، ولازم مفترضه ، . ما اعترف به مصدقاً ، لمن اعترف بالطاعة محققاً . . الخ » .  
وأخذ يجادل أباه في تبرير خروجه عليه بأسلوب أفصح . وبحجج قوية من المقول والمنقول ؛ ويرد على ما جاء في كتاب أبيه مفنداً ومعتزلاً ، حتى لتخاله من إنشاء كتاب العراق (١) .

فلمَّا ورد كتابه أغاظه ، وبلغ منه ، وأجابهُ يقول :  
« إلى الظالم لنفسه ، العاصي لربه ، المَسْتَمِّمٌ لدينه ، البخوس من حظ دنياه وآخِرته : سلامٌ على كل منيب ، مستجيب من قريب .

أما بعد : فإن مثلك مثل البقرة ، تثير المدينة بقرنها ، والنملة ، يكون حتفها في جناحها ، وستعلم - هَبِطَتِكَ الهوابل ، أيها الأخرق الجاهل ، الذي نثني عن الحق عطفه ، واغتر بضجيج المواقب خلفه - أيَّ مورد هلكةٍ سلكت ، إذ على الله ، جل اسمه تمردت ، فإنه تعالى قد ضرب لك ( مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنسم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ) ، وأعلم أن البلاء ياذن الله قد أظلك ، والمكروه قد أحاط بك ، والعساكر قد أتتك كالسيل في الليل ، تؤذئك بحرب وويل ، فإني لأقسم ، وأرجو ألا أجور وأظلم ، ألا أئني عنك عناناً ، ولا أؤثر على شأنك شأننا ، فلا تَتَوَقَّلْ (٢) ذرورة ، أو تَلِجْ بطن واد ، إلا تبعتك وطلبتك ، حيث يمت

(١) رد أبوه عليه كتاباً مطولاً شديداً نقله صبح الأعشى بتمامه ج ٧ ص ٥ ويقول القلقشندي : إن الكتاب من إنشاء ابن عبد كان . ولا يقل في قوته الأدبية والنطقية مما تقدم . وهنا صورته عن « سيرة ابن طولون » للبلوي ص ٢٦٠ وهي أقصر من رواية صبح الأعشى ، وتخالفها بعض المخالفة .  
(٢) تصدقة .

وسلكت ؛ حتى تستمر من عيشك ما استحلّيت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حتى لا دافع ، بمون الله ، يدفع عنك ، فتعرف من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هلكت ، ولم تأت بما إليه عجّلت ، ولا رأى من أطاف بك من النواة قبلت . فحينئذ يتفري<sup>(١)</sup> لك الليل عن صبحه ، ويسفر لك الحق عن نصحه ، فتتظر بعين لا غشاوة عليها ، وتسمع بأذن لا وقر فيها ، وتعلم أنك كفت مستمسكا بجبل غرور متهادياً ، وسالك سبيل ضلال لا تجد له هادياً ، من عقوق لا ينام طالبه ، وبنى لا يفوت هاربه ، وتقف على سوء رويتك ، وعظيم جريرتك ، في تركك قبول الأمان وهو لك مبذول ، وأنت عليه محمود ، واليد عنك كافة والسيف عنك مغمود ، فتتلهف ، واللهف غير نافعك ، إلا أن تكون أجبت إليه سريعاً ، وأقبلت نحوه هرعاً .

واعلم أنك لا تقصد موضعاً إلا تسأوتك ، ولا تأتي بلداً إلا قفوتك ، ولا تلوذ بعاصم لينجيك ، إلا استمنت بالله عليه وعليك ؛ فابجبرك إلا أحد رجلين ، إما لدينٍ أو لدنيا ، فأما الدين فأنت بحكمه مفارق ، لأنك عاقٌّ مُشاقق ، وأما الدنيا فما أحسبه بقي معك من حطام ما سرقتَه ، مما حملت نفسك على الاستبداد به ، ما يفى بمكآثرتنا ، مع ما وهبه الله ، جل اسمه ، لنا من جليل نعمه التي نستوزعه<sup>(٢)</sup> الشكر عليها ، ونرغب إليه في إدامتها .

وما دعاني إلى إرفاقك ، والتسهيل من خناقك ، طول هذه المدة ، إلا أمور : منها استضعاف أمرك واحتقاره ، وقلة الاحتفال به واستصغاره ، ومنها أنا جعلنا تركك على ما اخترته ، عقوبة لك من إياك إلى أقصى البلاد ، مبعداً عن الوطن والأهل ، والراحة والمهاد ، وقد فارقت بلدك ، وحرمت أهلك وولدك ؛ ومنها أنا

(١) ينشق .

(٢) نطلب منه التوفيق .

علمنا يقيناً أن الوحشة دعتك إلى الانحياز حيث انحزت ، فأهلناك ليسكن نفارك  
وقلنا إنك تحن إلينا حين الولد ذى الحسب ، وتثوق إلينا توقان ذى الرحم والنسب  
فلم تسمع من واعظ ، ولم تعتد بمحافظ ، وأما الآن ، وقد اضطررنا إلى الانزعاج  
نحوك ، لاستعمالك المواربة والمحادعة فيما يجري عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع للصيانة  
بل حقيق باللعنة والإهانة ، فعليك من ولد عاقٍ لعنةُ الله ولعنة اللاعنين والملائكة  
والناس أجمعين ، لا قبيل الله لك صرفاً ولا عدلاً<sup>(١)</sup> ، وأحاط بك حيث كنت ،  
ولا حاطك حيث توجهت ، وستعلم ، أيها المخالف القاطع رحمه ، العاصي ربه ، أى  
جناية على نفسك جنيت ، وأى كبيرة أتيت ، فتندم إن كانت لك روية ، وفيك  
فضل إنسانية ، وتود أنك لم تكن ولدت ، ولا فى الخلق عرفت ، إلا أن ترجع  
راغباً ، وتسرع خاضعاً ، إلى ما قبلنا ، فقيم الاستغفار لك مقام اللعن ، والرقعة  
مقام الغلظة والوهن ، والسلام على من سمع الوعظ فوعاه ، وذكر بالله فاتقاه .  
وظفر ابن طولون بابنه العباس وجماعته ، فأهانهم وعذبهم ، وقتل كثيراً منهم  
ومنهم ابن حدار الكاتب . وكان غيظه عليه أشد ، وحنقه عليه أعظم ، لأن كتب  
العباس إلى أبيه كانت من إنشاء هذا الكاتب .

وإذا قرأت كتاب ابن طولون الذى أرسله إلى ابنه العباس ، وكاتبه ابن  
عبدكان ؛ لم تجد أيضاً فرقاً بينه وبين رسائل العراقيين ، فى صورته البيانية ، ذات  
الفقرات القصيرة ، والمبارات الموسيقية ؛ المؤتلفة النغم ، والسجع غير المتكلف ،  
وفىها خضوع اللفظ للمعنى ، والميل إلى الإسهاب إذا اقتضى المقام إسهاباً ؛ وقد  
يسوق الدعاء حشواً واعتراضاً فى أثناء الكتابة ، كما كان الجاحظ يفعل .

ولا غرابة فى تشابه الكتاب ؛ فإن بغداد كانت المثال الذى يحتذى ، والرحلة  
بين الأقطار الإسلامية كانت شائعة ، وانتقال الأدب من مصر إلى مصر ، ومن

(١) الصرف : التوبة ، والعدل الفدية .

حاضرة إلى حاضرة ، كان أمراً عاماً . وقل أن تجد كاتباً كالجاحظ وابن العميد مستقل بأسلوب وينفرد بطريقة . وقرأ مقدمة كتاب المكافأة ، تجد دعاء جاحظياً ، قصر صاحبه عن أن يترسل استرسال الجاحظ ، ويتدفق مثله .

ولا ننسى هنا أن نعيد ما قلناه عن أحمد بن يوسف بن الداية ، فإن استقلاله وظهر شخصيته في كتاب المكافأة أمر يستحق الالتفات إليه ، ومن حسن الحظ أن له آثاراً باقية . أما ابن عبدكان فلا يمكن الحكم عليه من عدد قليل من الرسائل ؛ وكذلك ابن جدار ، وابن نصير العبادي ، وأحمد بن أيمن الخ . ولو قدر لنا الاطلاع على رسائلهم وآثارهم الأدبية كاملة أو على كثير منها لاستطعنا أن نعرف خصائصهم الكتابية ، ونميز كاتباً عن كاتب كما ميزهم ابن طولون عندما كانت ترد عليه كتب ابنه العباس وهو نأثر عليه ، وأدرك أسلوب كل كاتب ، ورد إليه عباراته . وما دمننا بصدد الكلام عن الصفات الشائعة في الرسائل فنتم القول بيمض عبارات كانوا يبتدئون بها رسائلهم ويختتمونها . فقد روى صبح الأعشى<sup>(١)</sup> أن ابن عبدكان كان يفتتح ما يكتبه عن ابن طولون في الولايات بلفظ : « إن أحق كذا » أو « إن أولى كذا » وما أشبه ذلك . ومن ذلك ابتداءه في نسخة عهد عن ابن طولون بقضاء برقة .

« إن من أحق من آثر الحق وعمل به ، وراقب الله في سر أمره وجهره ، واحترس من الزبغ والزلل في قوله وفعله ، وعمل لماده ورجعته ، إلى دار فاقتة ، وفقره ومسكنته ، من جمل بين المسلمين حاكماً ، وفي أمورهم ناظراً » .  
وكانوا يبتدئون الإخوانيات — مما جرى عليه ابن عبدكان وغيره — بالدعاء وعليه غالب كتابتهم ، فكانوا يدعون بطول البقاء كقول ابن عبدكان :

---

(١) ج ١١ ص ٢٩ . وجاء في صبح الأعشى ج ٨ من ص ١٦٠ — ص ١٦٦ كثير من الأمثلة والعبارات التي كانت طابع الرسائل في ذلك الوقت .

« عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وآنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك ، السعداء بمحظهم منك » .

وقد يكون الدعاء « بدوام النعمة » أو بـ « جملة فداك » . وقد يتركون الدعاء بهذين إعظاماً لقدر المكتوب إليه . وتلك مبالغة وتكلف في قلب المعاني كقول ابن عبدكان :

« إن قلت في كتبي « جعلني الله فداك » أكون قد بنحستك حظ إحسانك إلى ، وحق مُفترَضك على ؛ لأن نفسي لا توازي ساعة من يومك ، ولا تساوى طرفة من دهرك ، وإنما يُفدَى مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا ، وأعرض من أقطار الأرض » .

وقد يدعون بصلاح الدنيا ، وغبطة الآخرة ، وكبت العدو ، وطيب الحياة ، وكل ما يمكن أن يدعى به ، مع مراعاة المناسبة بين الدعاء والمدعوله ووقت الدعاء . وكانوا يفتتحون كتبهم بقولهم : « كتابي إليك » ، أو « أنا من جملة صنائك » أو شبه ذلك .

وكانوا يجيبون على الرسائل مبتدئين بما يفيد وصولها ، ويعقبون بالثناء عليها وعلى مرسلها ، والدعاء له بمثل ما تقدم ، ومن ذلك كتاب ابن عبدكان :

« وصل كتابك مشتملا من أنواع البر ، على ما يقصر في جنب أسره أعظم الشكر .

ويختمون الرسائل بالأدب المتكلف ، والتلطف المبالغ فيه ، مما توجه الحضارة ويفرضه اختلاف منازل الناس وأقذارهم فيها .

وصار بعضهم مقصد الأدباء . فقد روى أن أحدهم ذهب إلى ابن عبدكان فحجبه فكتب إليه :

إني أتيتك للتسليم أمس ، فلم تأذنَ عليك لي الأستارُ والحُجُبُ

وقد علمتَ باني لم أَرَدَ ، ولا والله ما رُدَّ إلا السلمُ والأدبُ  
فأجابهُ ابن عبدكان مضمناً بيت أبي تمام في عتاب عبد الله بن طاهر :  
لو كنتَ كافيتَ بالحسنى لقلتَ كما قال ابن أوسٍ ، وفيما قاله أدب  
« ليس الحجابُ بمُقصِّعٍ عنك لي أملاً إن السماءَ رُجِّي حينَ تَحْتَجِبُ »

وكان ابن عبدكان يعرف أقدار أهل الأدب ويستعين بالفضلاء منهم . وكانت  
شهرته دائمة في العراق ، فقصده من هناك أديب صار له ذكر في عهد نزارويه وهو :  
اسحق بن نصير الكاتب البغدادي أبو يعقوب .

وقد ترجم له ياقوت في معجم الأدياء <sup>(١)</sup> فقال :

« كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبدكان »

وجاء ياقوت بخبر اتصاله بابن عبدكان ، نقلاً عن ابن زولاق . فقال :

« وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان ، على المكاتبات والرسائل ،  
منذ أيام أحمد بن طولون ، إلى أن قدم عليه أبو يعقوب ، اسحق بن نصير البغدادي  
من العراق ، والتمس التصرف ؛ فقال له ابن عبدكان : فيما ذا تتصرف ؟ فقال :  
في المكاتبات والأجوبة والترسل .

وكان بين يدي أبي جعفر كتب قد وردت ، فقال له : خذ هذه وأجب عنها ،  
فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار ، فأجاب عنها ، ثم وضع خلفه تحت رأسه ونام .  
وقام أبو جعفر إلى الحجرة التي له ، فاجتاز به والكتب بين يديه ، فأخذها وقرأها ،  
فلما تأملها جعل يُروِّحُ اسحق بن نصير حتى اتبته » .

ثم أجرى عليه أربعين ديناراً في كل شهر ، وظل معه إلى أن مات ابن  
عبدكان .

ولما انفرد على بن أحمد الماذرائي بالكتابة ألزم اسحق بن نصير منزله . ووردت كتب فأجاب عنها على بن أحمد ، وعرضها على مولاه خمارويه فأنكرها ، فأعاد كتابتها ، فأنكرها خمارويه أيضاً ، فاضطر إلى استدعاء اسحق بن نصير فأجاب عن الكتب ، ودخل « على بن أحمد » على خمارويه فقرأ الأجوبة ، فقال : نعم ، هذا الذي أعرف ! « إيش الخير ؟ » فقال له : كاتب كان مع أبي جعفر فاعتزل ، وأحضرتة الساعة . فاستدعاه خمارويه وأمر على بن أحمد أن يجمل رزقه أربعائة دينار في الشهر .

وقال لإسحق بن نصير : « لا تفارق حضرتي . فبلغ اسحق حتى صار رزقه ألف دينار في كل شهر . فكان يجود بذلك ، ويفضل به على الناس » .  
ولقد أرسل إلى بغداد ثلاثة آلاف دينار دفعة واحدة ، ألف منها لأبي العباس البرد ، ومثلها إلى أبي العباس ثعلب ، والألف الثالثة إلى وراق كان يجلس عنده .  
وقد توفي اسحق سنة ٢٩٧ .

وترى في أخبار إسحق هذه أن خمارويه كان كأبيه ، يعرف الفرق بين كاتب وكاتب ، وبين أسلوب وأسلوب ، وأنه كان يقدر الأدباء ، ويجزل عطاءهم . وأن الصلة بين كتاب مصر والعراق لم تكن منقطعة .

أما الماذرائي فهو من أسرة ولى بعض رجالها كتابة الطولونيين وتدير أموالهم ومنهم محمد بن علي الماذرائي ، وعمه الحسين بن أحمد . وكان لهم عمل بها بعد الطولونيين أيضاً<sup>(١)</sup> .

وكانت ظروف الحرب والسياسية والحوادث التي توالى على البلاد في أيام خمارويه وبعده إلى قيام الفاطميين ، ظروفاً تنهض فيها الكتابة بكثير من الأعباء ، كرسائل الصلح ، وكتب المهود ، وأجوبة الولاء والطاعة ، وصحائف التهديد

(١) الولاة والقضاء ص ٢٦٩ ، ص ٢٧٥

والتحذير ، وغير ذلك من كل ما تحتاج إليه الدولة في صلتها بدار الخلافة ورجالها ، أو تحتاج إليه في صلتها بالدويلات التي كانت تابعة لها أو مجاورة ، كالشام وإفريقية والحجاز .

وكانت مصر قد أنشأت ديوان الرسائل ، واختارت له كتاباً قاموا بأعمالهم فيه على درجة من البلاغة والمهارة والحذق ، لا تقل عما كان في حاضرة الخلافة ؛ ولكن الباقي من آثار أولئك القوم هو أسماؤهم ، وإشارات إلى كتبهم ، لا تغني كثيراً عن تلك الآثار .

وإذا جاز لنا أن نحكم بما بقي ، قلنا إن كتاب مصر في هذا العصر كانوا يسيرون على طريق النثر الفنى في القرن الرابع ، من عناية بالمحسنات البديعة كالسجع والجناس ، والاقتيباس من القرآن الكريم ، والاستشهاد به ، وحل أبيات الشعر ثم العناية بترتيب المعاني وتنظيم الفقرات ، وكثرة الدعاء والألقاب ، وتمييز الطبقات في الكتب . وزيادة أنواع البدء والختام عما كان متبعاً من قبل . مع التنقل بين الإيجاز والإطناب بحسب الموضوع ، أو جهة الإنشاء الصادرة عنها أو الواردة إليها .

ومن الرسائل الباقية من عهد الإخشيديين رسالة بعث بها الإخشيد ، محمد بن طنج ، صاحب الديار المصرية ، وما معها من البلاد الشامية ، والأعمال الحجازية ، إلى أرمانوس ملك الروم ، رداً على كتاب منه إليه ، نستطيع أن نعرف فحواه من كتاب الإخشيد في الرد عليه . ويخيل إليك وأنت تقرأ رد الإخشيد أن الكاتب كان يرد على كتاب أرمانوس فقرة فقرة ، بشئ من التطويل والإسهاب ، وجاء في كتاب أرمانوس فقرة تشير إلى أنه كاتب الإخشيد وهو وال للخليفة ، ولم تكن عادة أن يكاتب إلا الخليفة نفسه .

ومما يدل على غنى ديوان الرسائل بالكتاب أن الإخشيد أمر بالرد على

كتاب أرمانيوس، فكتب له الكتاب عدة أجوبة، ورفموا نسخها إليه؛ فلم يرتض منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النجيري - وكان عالماً بوجوه الكتابة، وهو كتاب مطول في صفحات، وكثير من عباراته مكرر. وقد بدأه: « من محمد بن طنج، مولى أمير المؤمنين، إلى أرمانيوس عظيم الروم ومن يليه: « سلامٌ بقدر ما أنتم له مستحقون، فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

أما بعد. فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا واسحق رسوليك، فوجدناه مففتمتتحتاً بذكر فضيلة الرحمة، وما نمنى عنا إليك، وصح من شيمنا فيها لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وما وصلت به هذا القول، من ذكر الفداء، والتوصل إلى تخليص الأسرى، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه.

فأما ما أظنبت فيه من فضيلة الرحمة؛ فمن سيد القول، الذي يليق بذوى الفضل والنبيل، ونحن - بحمد الله ونعمه علينا - بذلك عارفون، وإليه راغبون وعليه باعثون، وفيه - بتوفيق الله إيانا - مجتهدون، وبه متواصون وعاملون، وإياه نسأل التوفيق لمرشد الأمور، وجوامع المصالح، بمنه وقدرته.

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة، فإننا نرغب إلى الله جل وعلا، الذي تفرد بكال هذه الفضيلة، ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها، أن يوفقنا لها ويجعلنا من أهلها، ويسرنا للاجتهاد فيها، والاعتصام من زيغ الهوى عنها، وعُمرّة القسوة بها، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته، وموجبات مرضاته، حتى نكون أهلاً لما وصفتنا به، وأحق حتماً بما دعوتنا إليه، ومن يستحق الزلق من الله تعالى، فإننا فقراء إلى رحمته، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا وحمله من جسيم الأمر ما حملنا، وجمع له من سعة المالك ما جمع لنا، بمولانا أمير

المؤمنين - أطال الله بقاءه - أن يتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك ، وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وييده « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

وترى في هذه الفقرات التي تقدمت ، سلاماً فيه حذر ، وحمداً لله ، وصلاة على رسوله ، وإجمالاً لخطاب أرمانيوس ، ورداً مفصلاً عليه بعد ذلك ، وترى فيه الاعتراض بين أجزاء الجملة ، وتقسيم الجملة الواحدة إلى أجزاء ، وإطناباً عاماً . وتحس في كثير من الفقرات أن الرسالة قد انتهت ، لأنه كان يختتمها بعبارات تشبه عبارات الختام ، ويتكرر ذلك أكثر من مرة في الرسالة . وآخر ما قاله :

« ومن ابتدأ بجميل لزمه الجري عليه والزيادة ، ولا سيما إذا كان من أهله وخليقاً به ، وقد ابتدأتنا بالمؤانسة والمباسطة ، وأنت حقيق بمهارة ما بيننا ، وباعتمادنا بحوائجك وعوارضك قبلنا ، فأبشر بتيسير ذلك إن شاء الله تعالى » .

« والحمد لله أحق ما ابتدئ به وختم بذكره ، وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليماً » .

والنجيرى منشى هذا الكتاب نحوى لغوى ، أخذ عنه أبو الحسين المهلبى ، وجنادة اللغوى الهروى ، وكثير من أهل العلم ، وكان مقامه بمصر<sup>(١)</sup> . أما نسبه فإلى « نجيرم » وهي قرية كبيرة على ساحل بحر فارس . وكان يقول الشعر أيضاً . وقد امتد به العمر إلى زمن كافور . ورويت له نادرة في الشعر تدل على حضور بديهته ، وحسن تأويله ولباقته ، وبخاصة فيما اتصل بالنحو الذى كان بعض صناعته . روى ياقوت قال : (٢) .

« حدثنى بعض أهل مصر عند كونى بها في سنة اثنتى عشرة وستائة ... أن الفضل بن عباس دخل على كافور الإخشيدي فقال له : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٨

(٢) ج ١ ص ١٩٩

نخفض الأيام ، فتبسم كافور إلى أبي اسحق النجيري . فقال أبو اسحق .  
لا غرور أن لحنَ الداعي لسيدنا ونغصَّ من هيبةِ بالريقِ والبهريرِ  
فمثلُ سيدنا حالتُ مهابته بين البليغِ وبين القولِ ، بالحصرِ  
فإن يكن خفضَ الأيامِ عن دَهشٍ من شدة الخوفِ لا من قلةِ البصرِ  
فقد تفاءلتُ في هذا لسيدنا والفعالُ نأثره عن سيد البشرِ  
بأن أيامه خفض بلا نصبٍ وأن دولته صفو بلا كدرِ

قال : فأمر له بثلاثمائة دينار ، ولابن عباس صاحب الغلط بمثلها .

هكذا أخبرني المصري في خبر هذا الشعر . وأنه لأبي اسحق النجيري .  
وهناك رواية أخرى في هذا الشعر وفي قائله ، وإن اتفقت الروايتان على أن  
الخطأ والشعر كانا في مجلس كافور .

وقد سمعنا برسائل أرسلها كافور الإخشيدي إلى عامله على دمشق كي يرسل إليه  
المتنبي ، فكتب إليه عامله إن المتنبي قال : لم أقصد العبد ، إن دخلت مصر  
فما قصدي إلا سيده <sup>(١)</sup> .

وكتب يطلبه من أمير الرملة أيضاً .

ولهذه الرسائل قيمتها في الدلالة على حرص كافور على الأدب وعلى المتنبي خاصة .

---

(١) الصبح المتنبي ، على هامش العكبري ص ١٠٩ — ١١٠

# الفصل التاسع

## الشعر إلى آخر بني أمية

١ - إلى عبد العزيز بن مروان :

لعلك تحس بشيء من العجب إذ ترى الشعر متخلفاً عن ركب العرب الذين  
جاءوا إلى مصر فاتحين ؛ فليس في آثار القوم الأدبية شيء من الشعر في وصف  
فتوحهم العظيمة ، وليس فيما عندنا مقطوعة منه يفخرون فيها بهذه الفتوح ،  
ولا قصيدة يذكرون فيها شيئاً صادفهم ؛ مما بلغت النظر ، ويشير الخيال ، ويبحث  
ويبحث الدهش . وما أكثر ما صادفهم من ذلك في هذه البلاد !  
ولا أظن أن جيش هؤلاء الفاتحين خلا من شعراء تهزم غرابة الحوادث ،  
أو يفتنهم جمال المناظر ، أو يشوقهم ما خلفوا وراءهم من أحباب وأوطان وذكريات .  
فما الذي جعل الأدب العربي في مصر إلى عهد معاوية خالياً من آثار الشعر ، لا نجد  
منه قصيدة أو مقطوعة ؟ وما نجده إلى عهد عبد العزيز قليل جداً ؟

قد يرجع ذلك إلى ما أصاب الشعر العربي كله من فتور وضعف في صدر  
الإسلام ؛ إذ شغل المسلمون بالدين وبالفتوح ، وبما يناسبهما من دراسة وخطابة  
وكتابة . ولكن الدين والفتوح لا يحاربان الشعر في جلته ، ولا يقضيان عليه  
من حيث هو شعر ، بل إن في الدين والفتح قوة عظيمة تدفع إلى الشعر ، وتحمل على  
الإجادة فيه ، ولكن الذي حدث فعلاً أن أصيب الشعر العربي بذهول وفتور من  
أول الإسلام إلى عهد الأمويين تقريباً ، على أنه ظل محتفظاً بشيء من السلامة

والعافية في بيئته العربية ؛ في الحجاز ، وفي بعض الأماكن التي نزلها العرب كالعراق والشام . وكان هناك من يحتفظ بشاعريته ، ويحاول أن يثبت وجودها بين حين وحين ؛ مثل حسان ، وأبي محجن الثقفي ، والحطيئة وغيرهم . لكن الظروف التي هيأت للشعر أن يحيا حياة طيبة في الجاهلية ، وفي عهد بني أمية ، لم تتوفر في تلك السنين التي بينهما .

ولا أظن هذه الفترة في تاريخ مصر ، من عهد عمرو إلى عبد العزيز بن مروان ، قد أقفرت من شعراء سجلوا خواطرهم ومشاعرهم ؛ في زمن الفتح ، وفي الثورة على عثمان ، وفي النزاع بين علي ومعاوية ، وفي عهد الدولة السفينية . وقد نسب إلى عمرو نفسه أنه كان يقول الشعر ، وأن نفسه كانت نفس شاعر ، وكذلك كان أسلوبه . وكان عقبة بن عامر والي مصر لمعاوية سنة ٤٤ « قارئاً فقيهاً شاعراً ، له الهجرة والصحبة<sup>(١)</sup> » ، ولكنه لم يخلف بيتاً واحداً ، وربما منعه من قول الشعر بالفسطاط ، ما منع لبيداً قبله بالكوفة ، لأن الله قد أبد لهم خيراً منه وهو القرآن .

وأياً ما كان فإن رواية الشعر في مصر كانت قليلة ، وكان للرواة مواطن أشهى وأعمر من مصر . فلم يبق من هذه الفترة إلا أبيات قليلة نسبت إلى شعراء مغمورين .

وقد تجد بيتاً أو بيتين أو ثلاثة ، تجهل قائلها ، أو تضل في قراءتها ، ويخفى عليك معناها لانفرادها ، أو لنموض الظرف الذي أحاط بها .

وبقي من هذا القليل المفهوم بيت رجز أو بيتان ، من العهد الأول :  
فقد غزا عبد الله بن سعد الأسود حتى بلغ دُمُقْلَةَ سنة ٣١ فقاتلهم قتالاً شديداً ، وهادنهم بعد ذلك ، فقال شاعرهم :

لم تر عيني مثل يومٍ دُمُقْلَةَ      والخيلُ تمدو بالدرعِ مُنْقَلَةَ<sup>(٢)</sup>

(١) الولاية والقضاء ص ٣٧ .      (٢) الولاية والقضاء ص ١٢ .

ويروى أن جماعة المصريين الذين كانوا بالمدينة في فتنه عثمان ، انصرفوا إلى مصر . فلما دخلوا الفسطاط ارتجز مرتجزهم :

خذها إليك واحذرَنَّ أبا حَسَنٍ      إنا نُحِبُّ الحربَ إِمْرَاءَ الرَّسَنِ  
بالسيفِ كى نُخَمِدَ نيرانَ الفتنِ<sup>(١)</sup>

ولما دخلوا المسجد صاحوا : إنا لسنا قتلنا عثمان ، ولكن الله قتله ، فلما رأى ذلك شيعة عثمان قاموا وعقدوا لهماوية بن حُدَيْجٍ عليهم وبايعوه .

ومن هؤلاء الشعراء المغمورين رجل يقال له أبو المصعب البلوى ، وله قصيدة يهجو فيها بعض رجالات العرب في مصر ، وكان معاوية كلما قدم عليه رجل سأله أن ينشده إياها . وليس فيها ما يستحق الوقوف عنده إلا الشتم<sup>(٢)</sup> .

ولو فهمناها على أنها من الشعر السياسي الذي يتخذ الهجاء صورة له ، عرفنا السر في إعجاب معاوية بها ، وسؤاله كل قادم من مصر أن ينشدها ، ومنها :

وليس بما جِدَ الجَدَّاتِ قيس<sup>(٣)</sup>      ولكن حَضْرَمِيَّاتِ قِقاءِ  
وأعرضَ نَفْحَه اليَرْبُوعُ عني      يزيد<sup>(٤)</sup> بعد ما رُفِعَ اللِّواءُ  
أشارَ بِكفهِ اليمَنِ وكانت      شمالاً لا يَجُوزُ لها عطاءُ  
أَكَلَمُ عائِداً<sup>(٥)</sup> ويصد عني      ويمنِّعُه السَّلامَ الكُبرياءُ  
وجُرُفٌ قد تَهْدَمُ جانباه      كُرب<sup>(٦)</sup> ، ذاك البرَمُ العَياءُ

(١) الولاية والقضاء ص ١٨ .

(٢) رواها ابن عبد الحكم في « فتوح مصر » ص ١٢٣ .

(٣) قيس بن كليب ، كان حاجب عمرو بن العاص ، وصار حاجباً لعبد العزيز .

مهوان بعد ذلك .

(٤) يزيد بن شرحبيل بن حسنة . والنفع = العطاء .

(٥) عائذ بن نعلبة البلوى ، قتل بالبرلس في حرب مع الروم سنة ٥٣ هـ .

(٦) كُرب بن أبرهة بن الصباح ، وكان من رجالات مصر في ذلك العهد .

وأما القحزى<sup>(٢)</sup> فذاك بطل أضرب به مع الدبر الحفاء  
ولهذا الشاعر قصيدة أخرى مدح فيها عبد الرحمن بن قيسية بن كلثوم  
التجيبى ، الذى وهب أبوه داره لتكون مسجداً بالفسطاط . وبقى من هذه  
القصيدة قول أبي المصعب لعبد الرحمن :

وأبوك سلم داره وأباحها  
لحباة قوم رُكعٍ وسُجود<sup>(٣)</sup>  
ولا يعرف عن قائل هاتين القصيدتين إلا اسمه وكنيته . فاسمه قيس بن سلمة  
وكنيته أبو المصعب . ولا ندرى إن كان جاء إلى مصر مادحا أو مقبلا .  
وقال شاعر آخر اسمه أبو قبان بن نعيم التجيبى ، مفتخراً بفتح بابليون ،  
ومادحا فعل قيسية بن كلثوم ، فى تصدقه بداره لتكون مسجداً :

وبابليون قد سعدنا بفتحها  
وحزنا، أعمر الله، فيثاومنا  
وقيسية الخير بن كلثوم، داره  
أباح حماها للصلاة وسلما  
فكل مُصلٍ فى فنانا صلاته  
تعارف أهل المصر ماقلت، فاعلما<sup>(٣)</sup>  
فا الذى يدل عليه مدح شاعرين لهذا المتبرع ؟ إنه يدل على تعدد الشعراء ،  
وعلى أهمية بناء مسجد فى ذلك الوقت ، ويدل على منزلة هذا المتبرع ، وقد ذكر  
القريزى أن المسجد الذى بنى مكان دار قيسية هو مسجد عمرو ، أو المسجد الجامع  
وهو أول مسجد بنى بمصر فى الإسلام .

وأمر معاوية واليه مسلمة بن مخلد فى سنة ٥٣ بالزيادة فى المسجد الجامع ،  
فهدم ما كان عمرو بناه وبنى آخر ؛ وأمر بإقتناء منار المساجد كلها ، وهو أول من  
فعل ذلك .

(١) القحزى هو عمرو بن فحزم الخولانى ، كان من شيعة عثمان .

(٢ ، ٣) خطط القريزى ج ٢ ص ٢٤٦ ، اسم المدوح « قيسية » فى بعض الروايات

وقال رجل يسمى عابد بن هشام الأزدي يذكر فعل مسلعة ويمدحه (١) :

لقد مَدَّتْ لِمَسْلَعَةِ اللَّيَالِي      على رَغْمِ العُدَاةِ مع الأمانِ  
وساعده الزمانُ بكلِّ سعد      وبَلَّغَهُ البَعِيدَ من الأمانِ  
أَمْسَلَمَ فارتَقَى ، لا زلت تَعْلُو      على الأيامِ ، مَسَلَمَ ، والزمانِ  
لقد أَحْكَمْتَ مَسْجِدَنَا فَأَضْحَى      كأَحْسَنِ ما يكون من المباني  
فَتَأَهَّأَ به البلادُ وساكنوها      كما تاهت بزِينَتِهَا الغواني  
كأن تجاؤِبَ الأصوات فيه      إذا ما الليل ألقى بالجِرانِ  
كصوت الرعد خالطه دوىُّ      وأرعبَ كلِّ مَخْطَفِ الجَنانِ

وليس في أسلوب هذه الأبيات الخمسة الأولى ، ولا عباراتها ، ما يصلها بالشعر الجيد في ذلك العهد ، لأنها مهلهلة ؛ ليس فيها شيء من جزالة الشعر عندئذ ، بل إن روح الضعف البادي فيها تجعلها شبيهة بمؤرخ - لا شاعر - قالها بعد ذلك بقرون . وكيف تنسب قوله : « فأضحى كأحسن ما يكون من المباني » - على جدته وحدائثه تركيبه - إلى عهد معاوية ؟ وكيف نجعل « تيه البلاد وساكنيها بالمسجد مثل تيه الغواني بزِينَتِهَا » شبيهاً بذلك العصر ؟

ولكن هكذا روى الشعر وهكذا نسب .

ولما قدم مروان بن الحكم على مصر ، أجمع أهل البلاد على رده عنهم ، وكان عليهم عبد الرحمن بن جحدم عامل ابن الزبير ، وهو الذي حفر خندقاً حول القسطنطين سنة ٦٤ في شهر واحد ، فقال شاعر يعرف بابن أبي زمرمة الحسني :

وما الجرد إلا جدُّ ابن جحدم      وما العزم إلا عزمه يومَ خندقِ

ثلاثون ألفاً هم أناروا ترابه وخدوة في شهر، حديثُ مصدق<sup>(١)</sup>

وسارت ثلاثة جيوش لرد مروان؛

أحدها في البحر وعليه الأكدري بن حمام فنزل عاصف بالمراكب ففرقها، ونجا أميرها وعاد إلى الفسطاط<sup>(٢)</sup>.

وأما الجيش الثاني فكان برياً، وعليه السائب بن هشام بن كنانة العاصري؛ فأخبر رُوْح بن زُبَيع أميره مروان أن للسائب ابناً مسترضماً في فلسطين؛ فأخذه. فلما التقى الجمعان أبرز مروان الصبي، وقال: أتعرف هذا يا سائب؟ قال: هذا ابني! قال: نعم، فوالله لئن لم ترجع عودك على بدنك لأرميتك برأسه. فرجع بجيشه ولم يقاتل.

وكان الجيش الثالث برياً أيضاً، وعليه زهير بن قيس البلوي، ووجهته «أيلة» ليمنع عبد العزيز من السير إليها، فالتقيا «ببصاق» وهي سطح عقبة أيلة، فهزيم زهير، ومن الغريب أنه قال لعبد العزيز مادحاً:

مَنْعَتْ بَصَاقًا وَالْبِطَاحَ فَلَمْ تُرَمَّ بِطَاحُكَ لِمَا أَنْ هَمَيْتَ ذِمَارَكَ  
قَسَرْتَ الْأُكْيَ وَتَوَّاعِنَ الْأَمْرَ بَعْدَمَا أَرَادُوا عَلَيْهِ، فَأَعْلَمَنَّ، اقْتَسَارَكَ

وسار مروان حتى نزل عين شمس، فخرج إليه ابن جحدم، فتحاربوا يوماً أو يومين. ثم رجع المصريون إلى خندقهم، فصُفِّفوا عليه، فكانت تلك الأيام تسمى أيام «الخندق»، والتراويح» لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوباً، يخرج هؤلاء ثم يرجعون، ثم يخرج غيرهم، واستحرق القتل في المعارك فقتل منهم جمع، وقتل كثير من أهل القبائل من مصر، وقتل من أهل الشام جمع كثير. قال عبد الرحمن بن الحكم<sup>(٣)</sup>:

(١) الولاية والقضاء ص ٤٢، خدوه = شقوه.

(٢) ص ٤٤

(٣) ص ٤٣

ألا هل آتاهما على نأبها      نَبَاءُ التروايح والخندقِ  
بلغنا بفيلقَ يفتى الظرابَ      بعيدَ السمو لمن يرتقى  
وجاشت لنا الأرض من نحوهم      بحَيِّ مُجِيبٍ ومن غافقِ  
وأحياءٍ مَدْحَجٍ ، والأشعرينَ      وحميرِ كاللهبِ المحرقِ  
وسدت مَعَاقرَ أفقِ البلادِ      بِمُرْعِيدِ جيشِ لها مُبْرِقِ  
ونادى الكُفَاةَ : ألا فابرزوا      فحُتَامَ ، حتى ، ولا نلتقى  
فلو كنت ، رَمْلَةٌ ، شاهدتِه      تمنيتِ أنكِ لم تخلقى

وبايع الناس لروان إلا المَعَاقرَ ، فقتل عدداً كبيراً منهم ، وقتل الأَكدر  
ابن حمام في جمادى الآخرة سنة ٦٥ ، وكان سيد لحم وشيخها ، وممن حضر فتح  
مصر هو وأبوه ، وكانا ممن سار إلى عثمان . ومات في اليوم نفسه عبد الله بن عمرو  
ابن العاص ، فلم يستطع الخروج بجنازته لتشغب الجند على مروان بسبب قتل الأَكدر ،  
فدفن عبد الله في داره ، وقال زياد بن قائد اللخمي يرثى الأَكدر (١) :

كما لقيت لحمُ ما ساءها      بأَكدرَ ، لا يَبْعَدُنُ أَكدرُ  
هو السيفُ أجردَ من غمده      فلاقِ النايَا وما يشعُرُ  
فلهني عليكَ غداةَ الردى      وقد ضاقَ وِرْدُكَ والصدرُ  
وأنتِ الأسيرُ بلا مَنعة      وما كان مثلكَ يَسْتَأْسِرُ

هذه الأبيات القليلة التي جاءتنا من شعر ذلك العصر ، فيها الهجاء والفخر  
والثناء والمدح والوصف ، ولكنها لا تصلح أساساً للحكم على الشعر عندئذ ،  
لقلتها ، ولما أصاب بعضها من تحريف جعل من المسير قراءته وفهمه فهماً صحيحاً .

(ب) عبد العزيز بن مروان :

إذا كان للشعر بواعث تثيره ، وعوامل تدعو إليه ، وظروف ترغب في الرحلة به ، ومزايا تشجع على روايته ، فقد تحققت هذه في زمن عبد العزيز بن مروان .  
ولى عبد العزيز أمر هذه البلاد لأبيه ، ولأخيه عبد الملك ، أكثر من عشرين عاماً ( سنة ٦٥ — ٨٦ ) ، وفي عهده الطويل ازدهر الشعر ، ووفد الشعراء لمدحه وسنرى أن شخصية عبد العزيز وصفاته ، كانت من أكبر الأسباب التي جعلت مصر في أيامه قبلة كثير من الشعراء ، ومطمع عدد من المادحين . وكان الذين قصدوا مصر لمدحه ، أكبر عدداً ممن وفدوا عليها من الشعراء في أى عهد آخر ، ولا نعرف والياً غيره طال عهده في البلاد كما طال عهد عبد العزيز ، مع العناية بالأدب والرواية ، والاهتمام بالمدح ووفادة الشعراء .

وكان قصره في مصر شبيهاً بقصر أخويه ، عبد الملك في دمشق ، وبشر في العراق . فكانت قصورهم مثابة الشعراء ومنتدى الأدباء ، وكانت لهم فيها مجالس يُسَقَوْنَ فيها من رحيق الأدب العربي ألذ ، ويسمعون من موسيقاه أحلاها ، ويستمتعون من نوادره بأعجبها ، ولهم فيه النقد القيم ، والتوجيه الحسن .

ولا ننسى أن عبد العزيز كان ولى عهد الدولة ، وكانت الآمال معلقة به بمد عبد الملك ، وكان له في مصر نعيم وملك كبير .

ومن الذين وفدوا عليه بمصر :

١ — أَيْمَنُ بْنُ خُرَيْمِ بْنِ فَاثِكِ الْأَسَدِيِّ :

وهو شاعر من الذين كثر تقلبهم في البلاد ، وتقلبهم في العقيدة . فقد كان

أيمن شيعياً ، ثم تولى آل الزبير ، ثم انقلب أموياً ، ووالى عبد العزيز ، ثم مال عنه إلى بشر .

وقد جاء إلى مصر غاضباً من يحيى بن الحكم ، عم عبد العزيز ؛ كما خرج منها غاضباً ، لأن عبد العزيز فضل عليه شاعراً آخر ، هو نصيب بن رباح .

كان مجيئه إلى مصر لمدح عبد العزيز ، ومن شعره فيه<sup>(١)</sup> :

لا يرغِبُ الناسُ أن يمدِّلوا بعبد العزيزِ بنِ ليلى أميراً

ترى قِدرَه مُملناً بالفِئاءِ يَلدِّمُ بعدَ الجزورِ الجزوراً

وهو شعر عربي في لفظه ومعناه ؛ فقد مدح عبد العزيز بما جرت به العادة ، إذ مدحه بالكرم ، وإطعام الطعام . وبمحببة الناس له ، حتى ما يرغبون أن يعدلوا به أميراً . وهو مدح هاديء معتدل ، لا مبالغة فيه ولا إسراف .

أما نسبة عبد العزيز إلى أمه فهي نسبة كان يحبها ، ويجب أن يراعيها الشعراء في مدحهم له ، كما كان معاوية يحب هذه النسبة لشرف أمه . وما أباهما عبد الملك في مدح ابن قيس الرقيات له إلا لسبب آخر ، إذ أضاف الشاعر عبد الملك إلى « بطن عائشة » أمه ، فكره عبد الملك أن يتحدث عن بطن أمه في الشعر .

وإذا أردنا أن نعرف منزلة أيمن عند عبد العزيز بن مروان فعلينا أن نقص بعض أخبار نصيب في مصر ، فإن لأيمن دوراً كبيراً فيها ، وكانت ذات أثر خالد في حياته ، إذ قطعت صلته بعبد العزيز وبمصر .

روى الأغاني وفادة نصيب على عبد العزيز بروايات مختلفة ، تجمع كلها على أنه لقي أيمن عنده ، ونكتفي منها بما روى في ترجمة أيمن نفسه ، قال أبو الفرج<sup>(٢)</sup> :  
« دخل نصيب يوماً إلى عبد العزيز بن مروان ، فأنشده قصيدة له امتدحه بها

(١) الولاية والقضاء ص ٥٢ وأول المدح هناك « لا يرهب » وهو تحريف

(٢) ج ٢١ ص ٧

فأعجبتة ؛ وأقبل على أيمن بن خريم فقال : كيف ترى شعره . ولأى هذا ؟ قال :  
هو أشعر أهل جلدته . فقال : هو أشعر والله منك ! قال : أمسى أيها الأمير ؟  
فقال : إي والله . قال : لا والله ، ولكنك طريفٌ مَلُولٌ . فقال له : لو كنتُ  
كذلك ما صبرتُ على مؤاكلتك منذ سنة ، وبك من البرص ما بك . فقال :  
أئذن لي أيها الأمير في الانصراف . قال : ذلك إليك . فمضى لوجهه حتى لحق  
ببشر بن مروان ، وقال :

رَكِبْتُ مِنَ الْمُقَطَّمِ فِي مُجَادَى      إِلَى بَشْرِ بْنِ مِرْوَانَ الْبَرِيدَا «  
ومدح بشراً بأبيات ختمها بقوله :

« كَأَنَّ التَّاجَ تَاجَ أَبِي هِرْقَلِ      جَلَّوْهُ لِأَعْظَمِ الْأَيَّامِ عِيدَا  
يُخَالِفُ لَوْنَهُ دِيْبَاجَ بَشْرِ      إِذَا الْأَلْوَانُ حَالَفَتِ الْخُدُودَا «

يعرض بنمَشٍ كان بوجه عبد العزيز ، فقبله بشر بن مروان ووصله ، ولم  
يزل أثيراً عنده .

ونرى أنفسنا في هذه القصة أمام شاعر يفد على عبد العزيز ، فيقيم عنده عاماً  
كاملاً ، يجالسه ويؤاكله ، على الرغم من مرضه ، وتلك منزلة عالية نزلها أيمن  
بشعره ، ولا أدري مبلغ ما أخذ من المال ، ولا عدد القصائد التي قالها في مدح  
عبد العزيز في ذلك العام ؛ ولا التي وفد بها إلى مصر . ولا ما أنشد وروى من  
أدب في مجالس عبد العزيز ، ولا ما كان له من فضل في تأييد سياسته والثناء  
على أفعاله .

ونجد أنفسنا أمام شاعرٍ مُدِلٍّ بمنزلته عند الأمير ، جرىء عليه ، لا يخشى  
أن يخالفه في الحكم على نصيب ، ولا أن يرد عليه رداً جافياً ، ولا أن يترك بلدته  
سريعاً حينما أحس أنها نَسَبَتْ به ، وأن جوار عبد العزيز لم يمد خصباً ممرعاً له  
وحده ؛ فاستأذن في الرحلة إلى العراق ، واثقاً أنه سيجد باباً آخر يأتيه منه الرزق

رغداً ، والمطاء جزيلاً .

ونجد أنفسنا أمام شاعر يخشى المنافسة ويحسب لها حساباً ، فيحاول أن يفض من قدر نصيب وإن رفعه الأمير ؛ إذ كان يتوقع تقدم منزلته ، وتقدير الأمير لشعره ؛ لما عليه الأمير من علم بالشعر ، ولما في شعر نصيب من جمال ، وما فيه من ولاء وإخلاص .

وكان ما توقعه أيمن صحيحاً فقد عظمت منزلة نصيب فيما بعد ، وتركه أيمن لنا نتحدث عنه فيمن قدموا مصر لمدح عبد العزيز .

### ٢ - نُصَيْبُ بْنُ رَكَّاحٍ .

اتفق الرواة على أنه كان عبداً أسود ، وأنه كان مولى لبعض بني كنانة ، وأنه وفد على عبد العزيز بن مروان بمصر ، فمدحه وصار مولى له .

ولكنهم يختلفون في تفصيل ذلك اختلافاً لا ينقض شيئاً مما تقدم ؛ فيختلفون فيمن أعتقه ، وفي زمن وفادته على عبد العزيز وأسبابها . وقد تقدم أنه لقي أيمن ابن خريم في مجلس عبد العزيز ، وأن أيمن نقضه قيمته عند ما علم أنه شاعر . وجيئه إلى مصر لا يخلو من قصص تشبه قصص المفامرات أحياناً ، وأول هذه وأقربها إلى الصواب ما يأتي :

كان نصيب يقول الشعر فيمجبه ، ثم عرض بعض شعره على مشيخة من بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة - وهم مواليه - ونسب بعض ما قاله إلى شعراء الجاهلية فأعجب به مواليه ، وقالوا : « هكذا يكون الكلام ! وهكذا يكون الشعر ! » فأخبرهم أنه شعره ، فشجموه على الرحلة به إلى مصر لمدح عبد العزيز . ثم عرف أخته أنه شاعر ، وأنه سيقصد عبد العزيز بمصر لمدحه ، عسى أن يكون على يديه عتقه ، وعتق أمه وأخته ، ومن كان مرفوقاً من أهل قرابته . فقالت أخته : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! يا بن أمِّ ، أجمع عليك الخصلتان : السواد وأن تكون ضحكة للناس » .

قال : قد قلتُ قاسمى ، فأنشدها فسمعتُ ، « فقالت بأبى أنت ! أحسنتَ  
والله ! فى هذا والله رجاء عظيم ؛ فاخرج على بركة الله » ، فخرج على قَمُود له  
حتى قدم المدينة ، فلقى الفرزدق بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض  
عليه شعره ، فقال له الفرزدق : « ويحك ! أهذا شعرك الذى تطلب به الملوك !  
إن استطعت أن تكتم هذا على نفسك فافعل » فتدفق عَرَقٌ نُصَيْبٌ . وسمع  
إنشاده وما قاله الفرزدق ، رجل من قريش كان قريبا فحسبه ، فذهب إليه نصيب  
فقال له القرشى : « ويحك ! أهذا شعرك الذى أنشدته الفرزدق ؟ » فقال نعم ، فقال  
القرشى : « قد والله أصبت ، والله إن كان هذا الفرزدق شاعراً لقد حسدك . فإنا  
لنعرف محاسن الشعر ، فامض لوجهك ولا يكسر نك » .

فسره قوله وأعانه على المضى ، قال : « فقدمت مصر وبها عبدالعزیز بن مروان ،  
فحضرت بابه مع الناس فنُجِّيتُ عن مجلس الوجوه ، فكنت وراءهم ، ورأيت  
رجلاً جاء على بغلة ، حسنَ الشارة سهلَ المدخل يؤذَن له إذا جاء ، فلما انصرف  
إلى منزله انصرفت معه أماشى بغلته ، فلما رآنى قال : ألك حاجة ؟ قلت نعم ، أنا  
رجل من أهل الحجاز شاعر ، وقد مدحت الأمير وخرجت إليه راجياً معروفه »  
فاستنشده الرجل ، فأنشده ، فقال له : « ويحك ! أهذا شعرك ؟ فإياك أن تنتحل ،  
فإن الأمير راوية عالم بالشعر ، وعنده رواة ؛ فلا تفضحنى ونفساك » . وطلب منه  
أن يقول أبياتاً يذكر فيها خوف مصر وفضلها على غيرها ؛ ففعل ، ولقيه من  
غده فأنشده :

سَرَى آلَهُمْ تَثْنِي إِلَيْكَ طَلَائِمُهُ      بِمَصْرِ وَبِالْحَوْفِ اعْتَرَتْنِي رَوَائِعُهُ  
وَبَاتِ وَسَادِي سَاعِدٌ قَلَّ لِحْمُهُ      عَنِ الْعَظْمِ حَتَّى كَادَ تَبْدُو أَشْجَاعِيْمُهُ

ثم وصف الغيث بعد هذين البيتين اللذين لا يصلحها بمصر إلا ورود اسمها  
واسم خوفها فيهما ، ولكنه أجاد فى وصف الغيث .

فلما أتمها قال له الرجل : « أنت والله شاعر ! احضر حتى أذكرك للأمر .  
قال فجلست على الباب ودخل ، فما ظننت أنه أمكنه أن يذكرني حتى دُعيتُ بي ،  
فدخلت فسلمت على عبد العزيز ، فصعد في بصره وصوب ، ثم قال : أنت  
شاعر ! ويلك ! » .

واستنشده شعراً فأنشده ، فأعجب به عبد العزيز ، واستأذن الحاجب لأيمن  
ابن خريم ، ولما اطمان سأله الأمير أن يُقَوِّمَ نصيباً ، فقال : والله لنعم الغادي  
في أثر المخاض ، وقومه بمائة دينار ، فلما علم أنه شاعر نقص قدره إلى ثلاثين  
ديناراً . وتستمر القصة بعد ذلك كما تقدمت في الكلام على أيمن مع فرق يسير  
في التعبير (١)

وفي رواية أخرى أن عبد الله بن أبي فروة أول من نوه باسم نصيب . وقدم به  
على عبد العزيز بن مروان ، « وهو وصيف حين بلغ ، وأول ما قال الشعر » ، فلما  
أعجب عبد العزيز بشعره قال : « إذا دعوت بالغداء فأدخلوه علي في جبة صوف ،  
محترماً بمقال ، فإذا قلت قوموه فقوموه وأخرجوه ، وردوه علي في جبة وشي ،  
ورداء وشي » ففعلوا ، وكان أيمن حاضراً هذا المجلس ، فنقص قيمته حين أخبر أنه  
شاعر ، فكان بين الأمير وبينه ما تقدم .

وتنتهي هذه الرواية بأن أيمن جاز بعبد الملك في طريقه إلى بشر ، فقال له :  
أين تريد ؟ فقال أريد أخاك بشراً . قال : أتجوزني ! قال : إي والله أجوزك إلى من  
قدم إلى وطلبني ، قال : فلم فارقت صاحبك ؟ قال : رأيتكم يا بني مروان تتخذون  
للفتي من فتيانكم مؤدباً ، وشيخكم والله محتاج إلى خمسة مؤدبين ! فسر ذلك عبد  
الملك ، وكان عازماً على أن يخلمه ويهتد لابنه الوليد (٢) .

وإذا صحت هذه الرواية كانت وفادة نصيب على عبد العزيز في أواخر أيامه بمصر ،

عندما كاتبه عبد الملك لينزل عن ولاية المهدي لابنه الوليد<sup>(١)</sup> .  
ولكن أخبار نصيب مع عبد العزيز تشير إلى أنه مدحه أكثر من مرة ،  
ووفد عليه أكثر من مرة ، وأنه أمره في أول خروجه إليه أن يرجع إلى مواليه  
فيشتري نفسه ثم يعود . ففعل .

ومن طريف الروايات ، وأدخلها في باب انقصاص<sup>(٢)</sup> أنه كان يرعى إبلاً لمواليه  
فأضل منها بغيراً ، فخرج في طلبه حتى أتى الفسطاط ، وبه إذ ذاك عبد العزيز بن  
مروان ، فرآه أهلاً لحاجته ، فاستأذن عليه ، وأخبر الحاجب أنه قد هبأ له مدحاً . فلما  
أخبر الحاجب عبد العزيز بسواده ، ورغبته في المديح ، ظن أنه ممن يهزأ به ويضحك  
منه . فقال للحاجب : *مره بالحضور ليوم حاجتنا ، فدعا نصيب وراح إلى باب عبد العزيز  
أربعة أشهر ؛ وأتاه آت من عبد الملك فسرره ، فأمر بالسريز فأبرز للناس ، وقال :*  
*عليّ بالأسود ، وهو يريد أن يضحك منه الناس ، فدخل ، فلما كان حيث يسمع  
كلامه قال :*

لعبد العزيز على قومه	وغيرهم نِعَمٌ غامره
فبأبك ألين أبوابهم	ودأرك مأهولة عامره
وكلبك آنس بالمعتفين	من الأم بالإبنة الزائر
وكفك حين ترى السائل	بن أندى من الليلة الماطره
فمنك العطاء ومنى الثناء	يكل مُحَبَّرَةً سائر

فقال : أعطوه أعطوه ، فقال : إني مملوك ، فدعا الحاجب فقال : أخرج فأبلغ  
في قيمته ، فدعا القومين ، فقال : قوموا غلاماً أسود ليس به عيب ، فقالوا . مائة  
دينار . قال : إنه راع للابل يبصرها ويحسن القيام عليها . قالوا : حينئذ مائتا

(٢) الأغاني ج ١ ص ٣٣٣ .

(١) ص ٩١ من هذا الكتاب .

دينار، قال: إنه يرى القيسي ويشفقها ، ويرى النبل ويريشها . قالوا : أربعمائة دينار .  
قال : إنه راوية للشعر بصير به ، قالوا ستمائة دينار . قال : إنه شاعر لا يلحق ، حدقا .  
قالوا : ألف دينار ، قال عبد العزيز : ادفعوها إليه . قال : أصلح الله الأمير ، نحن  
بعمري الذي أضلت . قال : وكم ثمنه ؟ قال : خمسة وعشرون ديناراً ، قال  
ادفعوها إليه . قال : أصلح الله الأمير . جازتني لنفسي عن مديحي إليك . قال :  
اشتر نفسك ، ثم عد إلينا .  
وقد فعل ، وعاد إليه لدحه .

هذه قصص عن وفادة نصيب ، أو روايات ممتدة ، وليس يضير هذا  
الكتاب أن يطول الحديث فيه عن وفادة نصيب ، ففي كل قصة منها من الإمتاع  
والطرافة ما يجعل روايتها لازمة للتسلية والسرور .

وهي تتصل بموضوعنا من قريب ، وفيها من الدلائل النافعة لمؤرخ الأدب  
والمعقب عليه ما يجعل روايتها واجبة .

وانظر إلى هذه الوفاة كما تقدمت ، تجد :

١ — أن عبدالعزيز كان مقصد الشعراء ، وكان « مُمَدَّحًا » يفد عليه الشعراء  
لدحه ، وأخذ جوائزهم .

٢ — وأنه كان أديباً ناقداً راوية ، وحوله رواة ، فلا يستطيع منتحل أن  
يحظى عنده .

٣ — وأن الشعراء الناشئين كانوا إذا رغبوا في الرحلة إليه — أو إلى غيره  
من الأمراء الأدياء — اختبروا شعرهم قبل مقدمهم على هؤلاء الأمراء ، فكان  
خوفهم داعياً إلى الحرص على الإجابة .

٤ — وأن الشعراء كانوا يتنافسون ، لما يعرفونه من الشهرة المنتظرة ، والخير

المرتب لمن ينال ثقة أمير أو خليفة . وكان كل منهم يطمع أن يكون صاحب المنزلة الأولى .

٥ — وما كان الشعراء يجدون بأساً في الطلب من الأمراء ، إذ كان عطاء الأمراء جزيلاً ، يفتى من فقر ، ويرفع من ضمة .

٦ — وكان الشعر تاريخاً يسجل حوادث عصره في بعض نواحيه ، وإن كان تاريخاً متهماً بالميل مع الهوى ، والقول كما ترغب السياسة .

وكانت نعم عبد العزيز غامرة على نصيب وعلى غيره ، وقد أبطأت جائزته عند عبد العزيز يوماً ، فقال :

وإن وراء ظهري يابن ليلى      أناساً ينظرون متى أوبُ  
أمامة منهم ولما قيئها      غداة البين في أثرى عُروب<sup>(١)</sup>  
ركت بلادها ونابت عنها      فأشبهه ما رأيتُ بها السُّلوب<sup>(٢)</sup>  
فأتبع بعضنا بعضاً فلَسنا      نثيبك ، لكن الله السُّيبُ  
فمجل جائزته وسرحه .

وكان يرحل إليه كل عام فيجيزه ويحسن صلته ، فقال نصيب<sup>(٣)</sup> .

يقول فيحسن القول ابن ليلى      ويفعل فوق أحسن ما يقولُ  
فتى لا يرزأ الخلان إلا      مسودتهم ، ويرزؤه الخليل  
فبشر أهل مصر فقد أتاهم      مع النيل الذي في مصر نيل

(١) ماق العين = حرفها الذي يلي الأنف ، والغروب = الدموع حين تخرج من العين ، واحدها غروب .

(٢) الظية السلوب والسالب ، التي سلبت ولدها ، والمراد أن أمانة كثيرة البكاء والدمع ، كالظية التي فقدت ولدها .

(٣) الأغاني ج ١ ص ٣٥٢

ومدح نصيب ليس تقليداً ، إذ أنه نتيجة تجربة خاصة في التصيدة التي استعمل فيها المطاء ، فأثار المطف ، بذكر أولئك الذين تركهم ينظرون متى يتوب ، وبالحدِيث عن بكائهم من أجل فراقه ، ولكن الصورة عربية لجمالاً ودماءً ، وبخاصة في تشبيهه أمامة بالظبية التي سلبت ولدها فلا تزال تبكيه حتى يعود .

وفعل نصيب ما فعله أيمن في مدح عبد العزيز ، فمدح « ابن ليلي » بالكرم ، وأنه يفعل فوق أحسن ما يقول . ولكنه رأى النيل بمصر وأحس به ، فخرج عن الطريقة التقليدية في تشبيه الكريم بالبحر ، وشبه عبد العزيز بالنيل ، وبشر به أهل البلاد .

ومرض عبد العزيز فاستأذن عليه نصيب ، فأذن له : فقال يدعو له بالشفاء ، ويغديه لو كان يُقبَلُ الفداء :

ونزور سيدنا وسيدا غيرنا      ليت التَّشكىَّ كان بالعوادِ  
لو كان يقبلُ فديةً لعديته      بالمصطفى من طارفي وتلادي

فلما سمع عبد العزيز شعره ، فتح عينيه ، وأمر له بألف دينار<sup>(١)</sup> .

وحفظ نصيب معروف عبد العزيز ، وأثنى عليه حياً وميتاً . فإن عبد العزيز مات في طاعون حل بمصر سنة ٨٦ هـ ، وكان موته بقرية يقال لها « سُكَّر » خرج إليها فراراً من الوباء ، فقال نصيب يرثيه<sup>(٢)</sup> :

أصبت يوم الصعيد من « سُكَّر »      مصيبةً ليس لي بها قبيل<sup>(٣)</sup>

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٢٧

(٢) الأغاني ج ١ ص ٣٦٠

(٣) « سُكَّر » مدينة من مدن الإطفيحية ، تجاهها واد به إلى وقت الميرزي ، حمل من الحجر ، « المخطط ج ١ ص ٣٣١ » . ونسب هذا البيت إلى كثير في رثاء غير عبد العزيز - الولاة والقضاة ص ٦٦ »

تالله أنسى مصيبتى أبداً ما أسحمتني حينها الإبلُ  
ولا التَّبكيُّ عليه أَعْوَلُهُ كلُّ المصياتِ بعده جَلَلُ (١)  
لم يعلم النَّعش ما عليه من الـ مُرِف ولا الحاملون ما حملوا  
حتى أَجَنُّوه في ضَرِيحِهِمْ حينَ انتهى من خَلِيلِهِ الأملُ  
وسأله عبد الملك أن ينشده بعض مارثي به أخاه عبد العزيز ، فأنشده  
هذه القصيدة (٢) :

عرفتُ وجربتُ الأمورَ فما أرى كإضِّ تلاءُ الغابرُ المتأخرُ (٣)  
ولكنَّ أهلَ الفضلِ من أهلِ نعمتي يمرُّون أسلَفاً أمامي وأغبرُ  
فإن أبكهُ أَعذَرَ ، وإن أُغلبِ الأسي  
بِصَبْرٍ فشلى عندما اشتدَّ يَصِيرُ  
وكانت رِكابِي كما شئتُ تَدتحي إليك ، فتقضى نَحْبَهَا وهي ضَمَّيرُ  
رى الوردُ يُسرّاً ، والثواءَ غنيمَةً لديك ، وتُسئني بالراضحين تصدُرُ  
فقد عَيرتُ بعد ابنِ ليلي ، فأنما ذراها لمن لاقتُ من الناسِ مَنظرُ  
ولو كان حيًّا لم يزل بدُفوفها جَمَادُ لغربانِ الطريقِ ومنقَرُ (٤)  
فإن كُنَّ قد نلنَ ابنَ ليلي فإنه هو المصطفى من أهله المتخَيَّرُ

وإذا كان في القصيدة الأولى أثر الحسرة والبكاء على عبد العزيز ، فإن القصيدة الثانية تميل إلى الحديث عن آثار نعمته على نصيب ، وما كان يعطيه من مال ، وما كان لنصيب من رحلات كثيرة إليه أهزلت راحلته ؛ وتذكر أنه كف عن ذلك.

(٢) الأغاني ج ١ ص ٣٦١  
(٤) الدفوف جمع دف وهو الجنب .

(١) جَل = صغيرة .  
(٣) الغابر = الباقي .

وأراحها بعد موته ، لأنه لم يعد هناك من يقصده من المدوحين ، وأخيراً يمدح « ابن ليلي » بأنه المصطفى من أهله والمختار منهم . فيذكره منسوباً إلى أمه لعله يرضيه بهذه النسبة ميتاً كما كان يرضيه بها حياً .

ولما سمع عبد الملك قوله :

فإن أبك أعذر ، وإن أغلب الأسي بصبرٍ فثلى عندما اشتد يصبر

قال له : ويلك ! أنا كنت أحق بهذه الصفة في أخي منك ! فهلا وصفتني بها !

وجعل يبكي .

وحفظ نصيب جميل مولاه ؛ فبكاه ورثاه أكثر من مرة ، وروى له الكندي قصيدة في رثائه ورثاء ابنه الأصبع الذي توفي قبله بشهرين<sup>(١)</sup> ، ومنها :

هما أخوأي الصالحان توالياً بمحمد فهدياً للفراق أخاها  
جزى خيرُ مولىٍ مولَىٍ ، ولا جزى من الناس خيراً من أحب رداها

ولا أدري من أين جاءت هذه الأخوة بين نصيب وبينهما ، وكيف اجترأ على تلك المنزلة ؟ ولقد عرّض ؛ ودعا على من أحب رداها ؛ ولا أظنه كان يقصد عبد الملك أو ابنه الوليد ، فليست به حاجة إلى عداوتها بعد موت عبد العزيز ، وليس في قدرته أن يعاديهما ، وهو يأمل فيهما الخير والمطاء الجزيل .

٣ — ابن قيس الرقيات :

وهو شاعر مداح ، أراد يوماً أن يكون له مبدأ ، فوالى ابن الزبير في سلطانه ثم دار الزمان ، وصار الأمر لبني أمية ، فلفظته البلاد إليهم ، وتشفع بابن جعفر لديهم فعفا عنه عبد الملك وقبل مدحه . وله عليه بعض النقد ، والآخذ المشهورة .

ومما يَسَّرَ لابن قيس الرقيات موالاة بني أميه ، وهونه على نفسه ، أنه كان يؤمن بقريش ؛ وهؤلاء منها في المحل الأرفع ، وأعلام قدرأ هو عبد الملك .

ووفد على عبد العزيز بمصر فدحه ، وامتاز على غيره من مادحيه بالحديث عن بعض المناظر في مصر ، وربما كان الباقي من شعره في الوصف أكثر من أي شاعر آخر في عهد بني أميه على قلته ومن قصائده المشهورة في مدحه قصيدته البائية<sup>(١)</sup>

لم يَصْحُ هذا الفؤادُ من طَرَبِهِ      ومَيْلِهِ في الهوى وفي كعبه  
أهلاً وسهلاً بمن أتاك من الرُّ      رقة يَسْرِي إليك في سُخْبِهِ<sup>(٢)</sup>  
باتت بحلوان تبتغيك كما      أرسلَ أهل الوليد في طَلْبِهِ  
فدلهما الحب فاشتقيت كما      تشنفي دماء الملوك من كَلْبِهِ<sup>(٣)</sup>

وفي هذه المقدمة كثير من الالتفات والانتقال كالحديث عن فؤاده ، وعن خيال المحبوب ثم مخاطبة نفسه ، ثم الحديث عن تلك التي باتت بحلوان تبتغيه ودلهما الحب عليه . ولا شك أن هذا الالتفات أحدث غموضاً في الأبيات مجتمعة .

ثم يقول في وصف حلوان ونخلها :

سَقِيًّا لِحَلْوَانَ ذِي الكرومِ وما      صُنِّفَ من تينهِ ومن عنبِهِ  
نخلٌ مواقيرُ بألفِئاءٍ من الـ      بَرْنِيٌّ ، غُلْبٌ ، يهتزي شَرَبَهُ<sup>(٤)</sup>  
أَسْوَدُ سُكَّانِهِ الحمامِ فما      تَنْفَكُ غِرْبَانُهُ على رُطْبِهِ

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٨١

(٢) جمع سخاب بكسر السين وهي قلائد من الزهر وفسرها في الديوان بأنها ضرب من الثياب والحلى .

(٣) الكلب : داء يصيب من عضه الكلب السمور ، وعند العرب لا يبرأ المكلوب حتى يسقى دماء ملك شريف .

(٤) مواقير : منقلة . والبرني : التمر . الشرب : حوض حول أصل النخلة فيه ماء يسقيها . غلب : جمع غلباء ، وهي النخلة المتكاثفة الكثيرة السعف .

وقد كانت حلوان عاصمة في أيام عبد العزيز ، وكانت جديرة بأكثر من قصيدة في وصفها والحديث عن عمارتها ، ولكن ابن قيس جاء مادحاً للامير ، وكفاه هذه الأبيات الثلاثة في الوصف .

ثم يبدأ المدح فيقول :

أئن علي الطيب ابن ليلي ، إذا  
من يصدق الوعد والقتال ، ويخ  
ومن تفيض الندى يداه ، ومن  
أمك بيضاء من قضاة في ال  
وأنت في الجوهر المهدب من  
يخلفك البيض من بنيك كما  
ليسوا من الخروع الضعيف ولا

أثنت ، في دينه وفي حاسبه  
شي الله في حلمه وفي غضبه  
ينسب الحمد عند منسبه  
بيت الذي يستظل في طنبيه  
عبد مناف ، يدك في سبيه<sup>(١)</sup>  
يخلف عود النضار في شعبيه  
أشبهه عيادانه ولا غربه

وابن قيس ينوع في مدحه ، فيمدح عبد العزيز بالدين والحسب والشجاعة ، والوفاء ، وخشية الله في الحلم والغضب ، وبأنه رجل كريم كل أفعاله محمودة . وبأن أمه بيضاء ، وأصلها ثابت ، وملجأ للناس ؛ وأن آباءه كرام الأصل ، فهو من عبد مناف ، وفي الجوهر المهدب منهم . أما أبناؤه فليس فيهم خور ولا ضعف ، بل إنهم صلاب شداد . وهذه الصفات الكثيرة التي تضمنتها هذه الأبيات القليلة قد صيغت صياغة جميلة ، فجاءت أبياتها سائغة عذبة ، ليس فيها شيء من الضعف الذي تحس به عند خروج الأدب إلى السرد والتعداد .

أما قصيدته القافية<sup>(٢)</sup> في مدح بني أمية عامة ، ففضلهم على قوم لم يعينهم

(١) في سببه : مستمسكة به ، والضمير للجوهر أو البيت .

(٢) أدبوان ص ٢٦٤

فيها ، ولم يعينهم ظرف هذه القصيدة كما رواه الديوان والمؤرخون .

وقال ابن قيس الرقيات في ذلك :

لَحَىٰ مِنْ أَمِيَّةٍ لِيَدِ سِ فِي أَخْلَاقِهِمْ رَدَقُ  
يَكُونُ لِحَابِطِ المَعْرُوفِ فِي وَادِيهِمْ وَرَدَقُ  
أَحَبُّ إِلَىٰ مِنْ قَوْمِ إِذَا مَا أَصْبَحُوا نَعَقُوا

وقد كان موسى بن نصير والياً على المغرب لعبد العزيز ، ففتح الله عليه الفتوح بالمغرب . وخرج عبد العزيز إلى الإسكندرية المرة الثالثة سنة ٨١ ، وخرج معه إليها وجوه الناس من الأشراف والشعراء . ووصف ابن قيس عودة الراكب كله ؛ وخص السفن المصعدة في النيل إلى حلوان جماعات ، من قرية الكير يون قرب الإسكندرية وأشار إلى ما كانت تحمله من أنواع الحرير والحز ونخل الأرجوان . وختم ذلك بمدح عبد العزيز بن ليلى . قال :

غَدُوا مِنْ مَدْرَجِ الكِيرِ يُونِ نِ حَيْثُ سَفِينُهُمْ حَزَقُ (١)  
كَمَا يَفْعُدُو نِشَاصٌ مِنْ سَحَابِ الصَّيْفِ مَنْطَلِقُ (٢)  
فَلَمَّا أَنْ عَلَوْنَ النِّيْلَ لُ وَالرَّايَاتُ تَحْتَفِقُ  
رَأَيْتُ الجَوْهَرَ الحَكِيمِ يَ وَالديبَاجَ بِأَتَلِقُ  
وَخَزَّ السُّوسِ وَالإِضْرِبِ حَ فَصَلَ بَيْنَهُ السَّرَقُ (٣)  
وَخَلَّ الأَرْجُوانِ عَلَى السَّ فِيمِ كَأَنَّهُ المَلَقُ  
سَفَانٌ غَيْرَ مُقْلَمَةٍ إِلَى حَلْوَانَ تَسْتَبِقُ

(١) حزق : جماعات .

(٢) نشاص : ( بفتح النون وكسرهما ) مرتفع ومتراكم .

(٣) أنواع من الحرير جيء بها من بلاد المغرب ، بلاد السوس على شاطئ المحيط

الأطلسي في مراكنش . والسرق = شقق من الحرير الأبيض .

ثم يثنى على حلوان ، وما ارتفع قدرها إلا بعبد العزيز ، فيقول :  
محلٌّ ، من يحلُّ به      لذيذٌ عيشُهُ ، غَدَقُ  
يحلُّ به ابن ليلي والنذ      سدى والحلم والصدِّقُ  
تكون جفانه رُدُّما      فصبوح ومفتَبَقُ<sup>(١)</sup>  
إذا ما أزحفت رُفُق      أتت من دونها رُفُق

ومن مدائحه في عبد العزيز قصيدته الميمية التي مطلعها :

طرقته أسماء أم حلما      أم لم تكن من رِحَالنا أُمَّما  
أما أول المدح فهو قول لا تراح إليه النفس ولا يهدأ عنده القلب ؛ لأنه أشبه  
بالرثاء . ولا يخفف منه الاستثناء الذي جاء به في البيت ، يقول :

فَجُمْتُ بِالْفُرِّ من أُمِّيَّةَ حَا      شئ واحدًا نَجْتَلِي بِهِ الظُّلَمَا  
أعنى ابن ليلي عبد العزيز بيا      بِلِيلِيُون تَغْدُو جَفَانُهُ رُدُّمًا<sup>(٢)</sup>  
يلتفُّ الناسُ حولِ منبره      إذا عَمُودُ السُّبْرِيَّةِ انهدَمَا  
مُجَرَّبُ الحِزْمِ في الأُمُورِ ، وإنَّ      خَفَّتْ حُلُومٌ بأهلها حَلَمًا  
ينتهبُ الحمدَ بالبيدين كما      نَاهَبَ فَرَسَانُ غَارَةَ نَعَمًا  
أغرُّ ، أشياخه المصاةُ ، بَنُو      أُمِّيَّةَ ، المرغُمُونَ من رَغْمًا<sup>(٣)</sup>  
أشياخِ صَدِّقٍ كُنُوا بَمَتَلِجِ ال      بَطَّحَاءِ كَانُوا لِقَوْمِهِم عَصَا  
نَالُوا مَوَارِيثَ من جَدُودِهِم      فَوَرَّثُوهَا صَرَوَانَ وَالْحَكَمَا

(١) رذما ممتلئة تفيض جوانبها من الشحم .

(٢) الديوان ص ٢٥٥

(٣) بالبيون : حصن بناه الفرس ، وما زالت آثاره باقية إلى الآن جنوب القسطنطينية ، واسمه عند العرب قصر الشمع .

أهل الحِمالات والدَّسِيمَةِ وال  
اخْتَرْتُ عبد العزيزَ مرَّاتٍ مَبَّأً  
من البهاليل من أَمِيَّة ، يز  
لا يحسب المدحة الخداع ، ولا  
جاءت به حُرَّةٌ مَهْدَبَةٌ  
مُفْتُونٌ عند الشدائد البَهَمَا (١)  
والله للمرء خيرٌ من قَسَمَا  
داد إذا ما مدحتَه كَرَمَا (٢)  
يُدْرِكُ تيارَهُ إذا التظما  
كَلْبِيَّةٌ كان بيتها دَعْمَا  
وتدور معاني المدح عنده في دائرة المتعارف المتفق عليه من صفات الفضل  
والكرم في الفرع والأصل ، كما كانت عند أكثر شعراء ذلك العصر .

٤ - عبد الله بن الحجاج (٣) :

شاعر آخر من مادحى عبد العزيز وهو شاعر فاتك شجاع ، من معدودى  
فرسان مضر ، ذوى البأس والنجدة فيهم ، خرج مع عمرو بن سعيد على عبد الملك ،  
فلما قتل عمرو وخرج مع نجدة بن عامر الحنفي ، ثم هرب فلحق بعبد الله بن الزبير  
حتى قتل ، ثم جاء إلى عبد الملك متنكراً ، واحتال عليه حتى أَمَّنَه .  
ورحل إلى عبد العزيز ، ومدحه بمصر .

يقول أبو الفرج (٤) : « ونسخت من كتاب ثعلب عن ابن الأعرابي : قال :  
وفد عبد الله بن الحجاج إلى عبد العزيز بن مروان ومدحه ، فأجزل صلته ، وأمره  
بأن يقيم عنده ، ففعل ، فلما طال مقامه اشتاق إلى الكوفة وإلى أهله ، فاستأذن  
عبد العزيز فلم يأذن له ؛ فخرج من عنده غاضباً ، فكتب عبد العزيز إلى أخيه بشر  
أن يمنعه عطاءه ، فمنعه ، ورجع ابن الحجاج ، لما أضرَّ به ذلك ، إلى عبد العزيز ،  
وقال بمدحه ويعتذر :

(١) الحِمالات جمع حمالة بفتح الحاء = الدية يحملها قوم عن قوم . الدسيمة =

العطية العظيمة . البهم جمع بهمة ، وهي صغار الضأن والمعز والبقر .

(٢) البهاليل جمع بهلول ، وهو السيد الجامع لكل خير .

(٣) الأغاني ج ١٢ ص ٢٤

(٤) شرحه ص ٢٩

تركت ابن ليلي ضلّةً وجريئةً      وعند ابن ليلي مَمْعِلٌ ومَمَوَّلٌ  
ألم يَهْدِنِي أَنْ الْمُرَاغَمَ وَاسِعٌ      وأن الديارَ بالمقيم تَنَقَّلُ (١)  
سأُحْكِمُ أَمْرِي إِذْ بَدَأَ (٢) لِي رُشْدُهُ      وأختارُ أهلَ الخيرِ إن كنتَ أعقلُ  
وَأَتْرِكُ أَوْطَارِي وَالْحَقُّ بَأَمْرِي      تُحَلِّبُ كَفَّاهُ النَّدَى حِينَ يُسَالُ  
أَبْتُ لَكَ يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ مَا تَرُ      وَجَرِي شَأَى جَرِي الْجِيَادِ، وَأَوَّلُ  
أَبِي لَكَ ، إِذْ أَكْتَدُوا ، وَقَلَّ عَطَاؤُهُمْ ،

مَوَاهِبُ فَيَاضُ وَمَجْدٌ مُؤَثَّلُ (٣)  
أَبُوكَ الَّذِي بِنَمِيكَ ، مَرْوَانَ ، لِلْعَلَا  
وَسَمَدَ الْفَتَاةِ الْخَالُ ، لِأَمْنِ يُخَوَّلُ

فقال له عبد العزيز : أما إذ عرفتَ موضعَ خطائك واعترفتَ به ، فقد  
صفحتَ عنك . وأمر بإطلاق عطاءه ، ووصله ، وقال له : أقم عندنا ما شئتُ ،  
أو انصرفْ مأذوناً لك إذا شئتُ .

### • - كثيرٌ وجميلٌ :

ووفد عليه كثيرٌ بمصر مراراً . وروى أنه كان قصيراً لا يزيد طوله على ثلاثة  
أشبار ، وكان إذا دخل على عبد العزيز يمازحه ويقول له : « طاطيء رأسك  
لا يصيبه السقف » . ويقال إنه دخل عليه بعموده في مرضه وأهله يتمنون أن  
يضحك . فلما وقف عليه قال : « لو أن سرورك لا يتم إلا بأن تَسُلمَ وأَسَقَمَ ،  
لُدعوتِ رَبِّي أَنْ يَصْرَفَ مَا بَكَ إِلَيَّ ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى لَكَ الْعَافِيَةَ ، وَلِي فِي

(١) المرغام = الطريق ، يرغام الرجل أهله يسلكه . أي يفارقهم على رغم أنوفهم .

(٢) رويت « أو » في الكندي ، وأظنها « إذ »

(٣) شأى = سبق . أكدى = قطع عطاءه وأمسك خبره .

كنفك النعمة » . فضحك عبد العزيز وسرَّ أهله<sup>(١)</sup> .  
وهو شبيه بما قاله نصيب له عندما زاره وهو مريض<sup>(٢)</sup> .

وأما جميل بن معمر<sup>(٣)</sup> فقد أشار في قصيدته الدالية إلى رحلته إلى مصر ،  
وإلى تحسر بثينة على فراقه عندئذ ، فقال :

وما أنس مِ الأشياءِ لا أنس قولها      وقد قرَّبت نضوي ، أمصرَ تريد؟  
وكان قدوم جميل إلى مصر لادح عبد العزيز بن مروان ، وإن كانت شهرته في  
الغزل غالبية ، وأذن له عبد العزيز ، وسمع قصائده ، وأحسن جائزته . وسأله عن  
حبه لبثينة ، وأمره أن يقيم معه في مصر في منزل أعدده له . ولم يلبث جميل إلا  
قليلاً حتى وافته منيته بمصر سنة ٨٢ هـ . ونى نفسه قبل موته فقال :

بكر النميُّ وما كنى بجميل      وثوى بمصر نواءَ غير قُفول  
قومي بثينة فاندبى بهـويل      وابكى خليلك قبل كل خليل  
وليس غريباً أن يحى . هذان الشاعران إلى مصر كما جاء غيرهما ، حيث النعم  
الغامرة ، والمطاء الجزيل ، والتقدير الصحيح للأدب ، والتذوق السليم لشعره  
وثره وأخباره .

وهذه المدائح التي تقدمت في عبد العزيز متشابهة المعاني والصفات ، مثل  
كرم الأصل والفرع ، وعلو النفس ، والسخاء ، والجود ، وحسن القول والفعل ،  
وقد يُمدح بالدين والملك .

ولكن لكل من هؤلاء الشعراء فنه وطريقته في التعبير وأسلوبه الذي يميزه  
عن غيره . من أجل هذا ظهر كل منهم مستقلاً عن غيره ، متميزاً في فنه وطريقته :

(١) الأغاني ج ٨ ص ٢٧ ، زهر الآداب ج ٢ ص ١٦٩

(٢) ص ١٤٤ من هذا الكتاب .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٢٩ ، ص ١٠٣ . حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٢٢

يقراً القارىء شعر الواحد منهم فيشعر بجدة وتنوع واستقلال ، بل إن قصائد الشاعر الواحد ترك مثل هذا الشعور عند القارىء ؛ بسبب مهارة أولئك الشعراء وحسن تصرفهم في التعبير ، ومقدرتهم على إظهار المعاني في صورة تزيينها موسيقى الألفاظ ، وجمال النغم ، وحسن النظم .

وكثر رثاء عبد العزيز كما كثر مدحه ، بل إن فيمن رثوه قوماً لم نسمع بمدحهم له : ومن هؤلاء ذو الشامة ، محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبه بن أبي معيط ، وقد رثاه ورثى ابنه الأصمغ الذي توفي قبله بشهرين قال (١) .

فما مصرُ لي بمد عبد العز	يز والأصمغ الخير بالموتقنه
سقى الله قبريهما ، والصدى	وماجا ورا ، ديمة مفدقه
فإن تك مصر أشارت بها	إلى الشر يوماً يد موبقه
فقدماً تقر بمصر العيو	ن في لذة العيش محدودقه

ورثاها سليمان بن أبي حدير الأنصاري ، ومن ذلك قوله في عبد العزيز (٢)

فمن ذا الذي يبنى المكارم والملا	ومن ذا الذي يهدى له بمدك السفرُ
فكنت حليف العرف والخير والندی	فتن جميعاً حين غيبك القبر

ولقد كان عهد عبد العزيز أزهى عصور الشعر في عهد الولاة ؛ وكانت شخصيته أكبر مشجع على وفادة أولئك الشعراء ، فلما قل العطاء قلت الوفادة أو انقطعت ، ولم نعد نسمع بها إلا قليلا . وقد يكون ذلك من الأسباب التي هيأت الفرصة فيما بعد لظهور الشعراء المقيمين ، ولعناية الرواة بشعرهم .

(ح) من عبد العزيز إلى العباسيين .

وروى لنا شعر عربي في مصر بعد عبد العزيز بن مروان ، بعضه قادم من بلاد أخرى للمدح ، وبعضه مصري الدار والحوادث والمناسبات ، ولكنه في جلته شعر ضعيف مقتضب محرف ، احتفظت به كتب التاريخ استشهاداً على حادثة ، أو تأييداً لخبر ، أو دليلاً على صدق رواية ، أو بياناً لخلق أحد من الولاة ، أو رثاء لشهيد ؛ أو شبه ذلك مما يهيم المؤرخ أن يشير إليه ، ويؤيده بالدليل الأدبي من شعر أو نثر . ولا نسمع بشاعر قدم بعد عبد العزيز إلا بالجزين الكنانى ، الذى جاء إلى مصر لمدح واليها الجديد عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وليس عبد الله غريباً علينا بعد ما قدمنا من فضله في نقل الديوان إلى اللغة العربية<sup>(١)</sup> .

وأما الجزين الكنانى مادحه<sup>(٢)</sup> فقد اختلف فيه ، فقبيل عربي وقيل مولى ، واختلف في أخلاقه ، فقبيل شاعر متكسب ، ينتجع الولاة والأمراء ، يمدح على العطاء ، ويهجو على الحرمان . وقيل إنه لم يبرح الحجاز . واختلف في شعره ؛ فنسب إليه ونسب إلى غيره ، ومن هذا الشعر قصيدة قبيل إنه قالها في مدح عبد الله بن عبد الملك ، وارتحل بها إليه في مصر ؛ وقد بدأها بالحديث عن تنقله في البلاد فقال

الله يعلم أن قد جئت ذا يمن      ثم العراقي لا يثنينى السأم  
ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها      كذاك تسرى على الأهوال بي القدم  
ثم المواسم قد أوطأها زمناً      وحيث تخلق عند الجرة اللمم  
قالوا دمشق يُنبئك الخبير بها      ثم انت مصر فم النائل العمم

ثم ينتقل إلى المدح ، ويتحدث عن ممدوحه فيقول :

لما وقفت عليه في الجموع ضحى      وقد تعرّضت الحجاب والخدم  
حيثه بسلام وهو مُرتفق      وضجة القوم عند الباب تزدهم

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٧٦

(١) ص ٩٢ من هذا الكتاب

في كفه خيزران ريمه عبقُ      من كف أروع في عمر نينه شمُ  
يُغضى حياءً ويُغضى من مهابته      فلا يكلم إلا حينَ يتسم  
ترى رءوس بني مروان خافضةً      يمشون حول ركابيه وما ظلموا  
إن هش هشوا له، واستبشروا جدلاً      وإن هو آسوا إعراضه وجوا

وأرجح أن تكون هذه القصيدة لمدح عبد الله بن عبد الملك ، وأن شاعرها جواب آفاق منتجع ، دارت به الأيام حتى جاء إلى مصر حيث النائل العمم عند عبد الله . وهو يعرفه من قبل ، حينما ذهب إلى الحجاز ووصاه أبوه عبد الملك بالإحسان إليه ، ولكن من الرواة من يجعل هذه الوفاة على عبد العزيز والمدح له .

ومنهم من روى البيتين السابع والثامن فيها للفرزدق في مدح علي زين العابدين .

وقيل كثير من الشعر في هجاء عبد الله ، وذلك أن الطعام غلا في أيامه ، فتشام الناس واضطربوا ، فهجاه ابن أبي زمزمة ، فطلبه عبد الله ، فهرب ؛ وبلغ عبد الله أن القاضي عمران بن عبد الرحمن الحسني ، آواه . وبلغه كذلك أن القاضي قال شعراً يفخر فيه بنفسه وأهله ، وشعراً آخر يهجو فيه عبد الله ، فمزله وولى مكانه عبد الواحد ، حفيد معاوية بن حديج ، وكان شاباً ، إلا أنه كان عالماً فقيهاً . فقال عمران يهجو الوالي مرة أخرى (١) :

لحما الله قوماً أمروك ، ألم يروا      بأعطافك التخنيث كيف يُريبُ  
أنصرفني جهلاً عن الحكم ظالماً      ووليته عجزاً فتاةً تجيبُ  
نكلتك من والٍ ، وأيضاً نكلتُهُ      ألم يكُ في الناس الكثر يصيبُ  
هكذا روى هذا الشعر ، وفي البيت الثاني منه هجاء غريب ؛ فقد جعل

القاضي الجديد « امرأة » ولم يسلم البيت نفسه من عيب فني هو الإقواء ، إذ اختلفت حركة الروى في « تجيب » وهو اسم قبيلة ، عن حركة آخر البيت الذى قبلها والذى بعدها .

وكان جزاء القاضي من عبد الله جزاء غريبا ، كما كان طريقا أيضا ، فقد أمر أن يقطع له قميص من قراطيس ، تكتب فيه عيوبه ، ويوقف للناس ، ولكن عبد الله صرف قبل أن ينفذ هذا العقاب .

وفى سنة ٨٨ هـ خرج إلى أخيه الوليد ، وكان الناس فى شدة عظيمة ، فقال زرعة بن سعد الله بن أبى زمزومة الحسنى :

إذا سار عبد الله من مصر خارجا      فلا رَجعت تلك الـبِغَال الخوارجُ  
أنى مصر والمكيالُ وافٍ مُنْزَبِلُ      فما سارَ حتى سارَ والمُدُّ فارِجُ  
فأهدر عبد الله دمه ، فهرب إلى المغرب ، وكتب إلى الوليد .

ألا لآتته عبد الله عني      كما قد قال يجعلنى نكالا  
ولم أشتم لعبد الله عرضا      ولم آكل لعبد الله مالا  
ويظهر أن عبد الله لم يكن شرأ كله ، ولم يكن كل الناس يكرهونه ، فإن الوليد لما عزله ، وولى قُرّة بن شريك كتب إليه رجل من قریش :

عجيباً ما عجبتُ حين أتانا      أن قد أمّرت قُرّة بن شريكُ  
وعزلت الفتى المبارك عنا      ثم فآلت فيه رأى أيبكُ

وفى ولاية عبد الله بن كنانة نزل الروم بتنيس سنة ١٠١ هـ ، وقتلوا أحمربن مسلمة المرادى أميرها فى جمع من الموالى ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ألم ترَبَعُ فتخبرك الرجال      بما لاقى بتنيس الموالى<sup>(١)</sup>

وكتب يزيد بن عبد الملك إلى حنظلة بن صفوان أن يكسر الأصنام سنة ١٠٤  
فكسرت كلها ومحيت التماثيل ، وكسر فيها صنم حمام زبّان بن عبد العزيز ، الذي  
يقال له حمام أبي مرة ، وله يقول كَرِيْبُ بن مخلد الجيشاني :

من كان في نفسه للبيض منزلة      فليأت أبيضَ في حمام زبّان  
عَبْلُ لطيف هضم الكشح معتدل      على ترائبه في الصدر ثديان  
وعرف الناس مكابيل مصر واطمأنوا إليها ، حتى كان عهد هشام بن عبد الملك (١)  
فدعت بالمدى إلى مصر ، وأمرهم أن يتاملوا به ، فقبله بعض الناس ، وأباه المعافر ، وكسره  
واحد منهم ثم قال . إن لنا وية وإردباً قد عرفناها ، ولسنا نحتاج إلى هذا .  
وقال شاعرهم : يفتخر .

قوى الذين تبادروا      مُدَى الخليفة بالحجر  
وتحزبوا وتمصبوا      وجتوا عليه فأنكسر  
من بعد ما ذلت له      أعناقُ يعرِبَ أو مضرَ

ولما استخلف هشام ولي يحيى بن ميمون بن ربيعة الحضرمي قضاء مصر ،  
وكان كتابه متهمين بالرشوة ، وعرف بذلك فلم يعزل أحداً منهم ، وكان قد ولي عريفاً  
من العرفاء أمر يقيم من قومه ، وتظلم اليتيم من العريف بعد البلوغ زماناً ، وجاء  
بيينة من قومه ، فلم ينصفه يحيى ، فكتب إليه مسجلاً الحادثة بالشعر :

ألا أبلغ أبا حسان عنى      بأن الحكم ليس على هوا كما  
حكمت بباطل ، لم تأت حقاً      ولم يسمع بحكم مثلُ ذا كما  
وتزعم أنها حق وعبدل      وأزعم أنها ليست كذا كما

ألم تعلم بأن الله حقيق وأنت حين تحكم قد برا كما  
فبلغه الشعر ، فسجن اليتيم ، فرفع أمره إلى هشام ، فعظم ذلك عليه ، وكتب  
إلى الوليد بن رفاعه بصرفه<sup>(١)</sup> .

وقال سعيد بن شريح مولى تجيب يهجو حفص بن الوليد ، والى مصر لمروان  
ابن محمد ، وكان سعيد منقطعاً إلى زيان بن عبد العزيز بن مروان .

يا باعث الخيل تردى في ضلاتها من المقطم في أكاف حلوان  
لا زال بنفسي ينمى في صدوركم إذ كان ذلك من حبي لزبان  
وكان زيان بن عبد العزيز شديد التحريض على حفص بن الوليد حتى قتله  
الحوثة بن سهيل الباهلي والى مصر لمروان سنة ١٢٨ هـ .

وقال مسرور الخولاني يرثي ويحذر .

فياك لا تجنى من الشر غلظة فتودى كحفص أورجاء بن الأشيم  
فلا خير في الدنيا ولا العيش بعدهم فكيف وقد أضحو بسفح المقطم<sup>(٢)</sup>

وقال ابن ميادة المري يحبذ فعل حوثة :

لقد سرتني ، إن كان شيء يسرتني مُفسارُ ابن هبار على بلخ والسفر

(١) ص ٣٤١

(٢) رجاء بن الأشيم : كان والياً على الصعيد لحفص بن الوليد في ولايته الثانية . زمن يزيد بن الوليد ( ص ٨٤ : الولاة والقضاة ) ولما قدم حنظلة بن صفوان من إفريقية ، وولاه مروان بن محمد ، أبى المصريون ذلك وثاروا . ومضى إليه رجاء بن الأشيم بالجيزة ، فأخرجه إلى الحوف الشرق . ولما ولي حوثة بن سهيل لمروان بن محمد أمن أهل مصر . واستدعى من دخل في الطاعة أن يقابله في ردهائه . فخشى ذلك رجاء بن الأشيم ، وقال لحفص بن الوليد : دعني أقف في جبل لأرى ما يصيبك . فأبى حفص . ثم ذهب إليه حفص ورجاء . فقيداها ، ثم طلب رؤساء الفتنة فجمعوا له ، وقتلهم سنة ١٢٨ وفيهم رجاء بن الأشيم ، وعقبه بن نعيم الرعيني ، وعمرو بن يزيد الشيباني وفهد بن مهدي ، وابن السليط ( ص ٩٠ الكندي )

وحوثة المهدي بمصر جياده وأسـيافه حتى استقامت له مصر  
وقال مرسل بن حمير يبكي حفصاً وأصحابه :

يا عين لا تبقى من العـبرات جودي على الأحياء والأموات  
يا حفص يا كهف المشيرة كلها وأخا النوال وسائر العودات  
إما قُتِلتْ فأنت كنت عميدهم والكهف للأيتام والجارات  
أودي رجاء ، لا كمثل رجائنا رجُل ، وعقبه فارج الكـرُبات  
وشبابنا عمرو وفهد ذو الندى وابن السليط وعامر الفارات  
قُتِلوا ولم أسمع بمثل مصابهم سروات أقوامٍ بئو سروات

وقدم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية هارباً من جيوش العباسيين ( يوم  
الثلاثاء ٢ شوال سنة ١٣٢ ) فوجد أكثر الناس قد « سودوا » ؛ وأمر  
بإحراق الدار الذهبية ، فقال له زبان بن عبد العزيز : إنها دار بني عبد العزيز ، وقد  
أعظمت فيها النفقة . فقال مروان : إن أبق أبنا لبنة من ذهب ولبنه من فضة ،  
وإلا ، فما تصاب به من نفسك أعظم . ثم دخل مروان إلى الجيزة وحرق الحسين ،  
فقال عيسى بن شافع يبكي الدار الذهبية ، وهو شعر مليء بالحسرة ، على قلته :

يا طلالا أقوى وحل الـبلى منه لدى العلو وفي السفل  
قد كنت ممّنتي لميون المـما وكنت مأوى لظبـبا الرمل  
وكان أربابك ما إن لهم في الناس من نوع ولا شكل

وقتل مروان ببوصير من كورة الأشمونين ، ٢٣ ذى الحجة سنة ١٣٢ ،  
ودخل صالح بن علي<sup>(١)</sup> الفسطاط يوم الأحد لثمان خلون من المحرم سنة ١٣٣ .

ولهذه الأبيات الأخيرة قيمة في تاريخ الأدب ، لما فيها من اتجاه غير مألوف في الشعر ، وهو رثاء القصور التي أخنى عليها الزمن ، وبكاء الآثار التي تبدل عزها ذلاً ، وصار عامرها خراباً . ورأينا له صدى بعد ذلك في رثاء البحترى لإيوان كسرى ، وفي رثاء شعراء الطولونيين لمنايهم ومرابعمهم ، وقصورهم وميادينهم ، وفي بكاء شعراء الأندلس على آثارهم التي أبادها الفاتحون الإسبان . وليس ذلك من نوع الوقوف على الأطلال والدمن الذي رأيناه في الجاهلية وبعدها ؛ لاختلاف الباعث ، وهو العظة والاعتبار في الأول ، وذكرى الأحباب في الثاني . وقد صار هذا الأخير تقليداً عند بعض الشعراء ، يرونه حتماً لازماً في أول القصائد : جرباً على الطريقة العربية القديمة .

هذا هو الشعر العربي في مصر زمن الأمويين ، وهو قسمان كما رأيت : قسم منه وافد زائر للمدح والثناء ، وأكثر ما بقى لنا منه ظهر في عهد عبد العزيز بن مروان ، وهو شعر طابمه التقليد في المعاني . أما الأسلوب فكان فيه استقلال وذاتية . والقسم الثاني شعر المقيمين ، وهو أقل ما بقى وأضعفه : وفيه كثير من التحريف والتبديل ، ولكننا نلمح في ثناياه استقلالاً في المعاني والأسلوب ، وفي رجاله استقلالاً في الرأي وحرية في التعبير والنقد ، فغلب عليه الهجاء واللوم . وليس في هؤلاء الشعراء شاعر محترف ، فكان هذا الشعر ، على قلته وضعفه ، نتيجة وحي خاص ، وشعور مستقل ، وتجارب ذاتية . وهو « شعر مناسبات » ، ولكنه من النوع الذي تثيره أحوال وظروف خاصة ، تؤثر في الشاعر ، فتطلق لسانه بالتعبير عما يملأ نفسه ، وليس من ذلك النوع الذي يقوله الشعراء للجاملات أو للشهرة ، بغير وحي من الشعور والماطفة .

وربما كان اتجاه هذا الشعر إلى الحياة العامة ، واتخاذه سجلاً للحوادث وتطورات التاريخ ، سبباً في ضياعه وعدم اهتمام الرواة به ، بجانب ضعفه وعجزه عن منافسة شعر الحجاز والشام والعراق ، الذي تجمعت له العوامل الفعالة للبقاء والشهرة وأقواها السياسة .

# الفصل السابع

## شعر العصر العباسي

- ١ -

### الشعر التاريخي

كان حظ مصر من الشعر قليلا في عهد ولاة الأمويين كما رأينا؛ ولولا الشعراء الزائرون الذين رعاهم عبد العزيز بن مروان لما كان للشعر في هذا العهد حديث يذكر .

أما في عهد العباسيين فكان حظها أوفر ، وأدبها أرقى ، وشعرها أكثر ، وإن لم تصل إلى منزلة بغداد ، ولا إلى درجة قريبة منها ؛ لما كان في بغداد من حضارة ونعيم ، ومن جاذبية وإغراء ، ومن نهضة شملت العقل والذوق والخيال ، ومن رعاية كان يسبغها خلفاؤها ووزراؤها على العلوم والفنون والآداب ، فسمت بهذا على غيرها من الأقطار .

وكانت مصر تابعة لدار الخلافة ، فلم يكن فيها من الحكومة المستقرة ، والثروة الواسعة ، والمطاء الجزيل ، ما كان في حاضرة الدولة . ولم يكن فيها من حماة الأدب ومجالسه وبواعثه ، مثل ما كان في بغداد ؛ فانصرف الشعراء عن قصدها ؛ إذ كان ولائها أتباعاً ، وكان عهدهم قصيراً ، وعطاؤهم قليلاً ، وحسابهم من رؤسائهم عسيراً ؛ وإن لم يخل هذا العهد من ولاة رعاة للأدب ، صفت أذواقهم فقدره ، وسخت نفوسهم فأجزلوا له المطاء :

ولكن بغداد أفاءت على البلاد الأخرى بعض حضارتها ورخائها ، ونفخت فيها من روحها ، وبثت فيها من علومها ومذاهب أدبائها ، فكان لذلك آثار ظاهرة في تاريخ البلاد التابعة لها ؛ ونالت مصر قسطها من ذلك ، فارتقت بها الآداب والفنون والأذواق ، وتقدمت العلوم الشرعية واللسانية ، وظهر فيها أدباء من أهلها لا ينكر أدبهم .

غير أنه كان بين الشعر هنا وفي بغداد ما بين التابع والتبوع من تفاوت في المنزلة ، وفرق في تقدير الناس . وأخص منهم الرواة ، ومؤرخي الأدب ، والمحدثين بالأخبار والنوادر ، الذين استضعفوا ما كان منه ، وآثروا عليه رواية القديم ، أو الجديد الجيد من أدب بغداد وغيرها . واستطاعت مصر — بالرغم من ذلك كله — أن تخرج شعراء في عهد العباسيين يتحدث عنهم تاريخها .

وهذا الشعر الذي فاضت به خواطر الشعراء المقيمين بمصر كان صفحة من تطورات الوقائع والحوادث ، وديواناً للتقلبات السياسية ، وسجلاً من سجلات التاريخ المصري ، كما نرى في الباقي من مختاراته في كتب التاريخ . فاهتم به المؤرخون لأنه حفظ لهم ما لم يحفظه الرواة ، واهتم به مؤرخو الأدب لما رأوا كثيراً منه ذاتياً في معانيه ، مستقلاً في فكرته ، مصرياً في وحيه وموضوعاته . أما أسلوبه وعباراته فلم تخل من طابع مصري يبدو في بعض الأحيان .

وإذا نظرت إلى ما آثر من هذا الشعر وجدت منه شعراً يحرص على الولاية الذين فسد حكمهم ، ويفرى بالهال الذين ضل سعيهم ، كموسى بن مصعب الخثعمي الذي كان والياً للهدى ( سنة ١٦٧ ) وتشدد في استخراج الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولاً ، وقبل الرشوة في الأحكام ، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب ؛ فكره الناس فعله ، وقال شاعر يثير الخليفة عليه ، ويحبد رأي الوزير يعقوب بن داود في وجوب عزله :

لو يعلمُ المهديُّ ماذا الذي يفعله موسى وأيوب<sup>(١)</sup>  
بأرضِ مصرِ حينَ حَلَّ بها لم يُتَّهمَ في النصحِ يعقوبُ

ومنه شعر جمع بين المدح والتأييد ، وبين التشفي والشماتة ؛ فإن أهل الخوف  
والفسطاط تحالفوا على موسى بن مصعب ؛ وكان ظالماً غاشماً ، فضايق الجند والناس به .  
وخرجوا عليه وقتلوه ( سنة ١٦٨ ) .

وقال سعيد بن عفير يذكر الذين قتلوه . ويحمد لهم أعمالهم<sup>(٢)</sup> .

الم ترهم أَلَوْتُ بموسى سيوفهم وكانت سيوفاً لا تدين مُتَّرف .  
فا برحت فيه تعود وتبتدى إلى أن تروى من حمام مُدَرَّف .  
فأصبح من مصر وما كان قد حَوَى بمصرٍ من الدنيا ، سلبيا بنفنف .

وقد يتحدث الشعر بلسان أهل البلاد فيعبر عن آلامهم وسخطهم ، وينطق  
بمشاعرهم وإحساسهم ، ويتكلم بما يحبون من طعن في واليهم وأعوانه ؛  
ولي مصر الحسين بن جميل للرشيد سنة ١٩٠ ، وجعل على شرطه كاملاً الهُنَّائي ،  
وسخط بعض الناس عليه ، وامتنع أهل الخوف عن أداء الخراج ، فقال سعيد بن  
عفير<sup>(٣)</sup> : يطمن في الأمير وأعوانه ، ويذم قبائل من أشقاهم الحظ بهجائه .

ما كنت أحسب أن الحين يجمع ما أمسى بمصر من الأندال في الإمر  
أما الأمير حنَّاجٌ ، وصاحبه على الخراج سوادى من الأكر<sup>(٤)</sup>  
هذا الهُنَّائي من الفسطاط يخلفه والباهلُّ على أعماله الأخر  
كل لصاحبه شكلٌ يلاءه فهم سوايسية في اللؤم كالحر  
وما هناةٌ إلا ظلفُ ذى بين والباهلون ماوى اللؤم من مضر

(٢) شرحه ص ١٢٧

(١) الولاية والقضاء ص ١٢٥

(٤) حنَّاج : مخنث . سوادى : فلاح .

(٣) شرحه ص ١٤٢

فما يسوغ لنا عيش فينقنا مع ما زرى لهم من رقة الخطر

وهذا شعر آخر ينسده ناثر على الدولة ، خارج على السلطان هو أبو الندى  
عولى بلى ، الذى خرج فى نحو ألف رجل فقطع الطريق « بأيلة » وغيرها ، وأغار  
على بعض مدن الشام ، ثم ضوى إليه رجل من جذام يقال له أبو المنذر بن عابس ،  
وأرسل الرشيد يحيى بن معاذ فى طلبهم ، وطلبهم الحسين بن جميل من مصر  
أيضاً (١) .

وكان أبو الندى يقول محرصاً لأصحابه ، مشيراً لحماستهم عند اللقاء :

أقول إذا الرِّفاقُ بدت لوجهى      إلا حُتلوا رحالكم وطيروا  
وإن لم تتركوها فاستمدوا      لحرب مثل جابية تفور  
أقول لصحبتى كُروا عليهم      فليس يُهرُّهم إلا الكُرور

وظفر يحيى بن معاذ بأبى الندى وصاحبه ابن عابس وأرغم أهل الحوف على  
الخراج بعد امتناعهم ، وقدم الفسطاط سنة ١٩٢ ، فنزل دار ابن عون ، وقال أبو  
عمان السكرى : يفخر بما كان ويمدح يحيى (٢) :

قد جبيننا قيساً ولم تكُ تجبى      وقتلنا أبا الندى وابنَ عابسٍ  
وتركنا لجا وحيى جذامٍ      لا يطيقون رفعَ كفِّ تلاميِسٍ  
أمن الله بالبارك يحيى      حوِّفَ مصرٍ إلى دمشقَ قبائِسٍ (٣)  
وأباد الخُلَّاعَ من كل أرض      بعد ما حاد عنهم كل فارس

وقال أيضاً يحذر قيساً ، وينصح لهم أن يؤدوا الخراج (٤) :

يا قيسَ عَيْلانَ إني ناصح لكم      أدوا الخراجَ وخافوا القتلَ والحرَّبا

(٢) ص ١٤٥

(١) الكندى ص ١٤٣

(٤) ص ١٤٥ .

(٣) بالس : بلدة على الفرات .

إني أحذركم بحبي وصولته فإريت له تقياً إذا غضباً  
ثم خرج يحبي من مصر بعد أن أهان القيسية واليانية .

### النزاع بين الأمين والمأمون :

ولم ينفل الشعر عما كان من النزاع بين الأمين والمأمون ، وامتد أثره إلى مصر  
فقد كان بها واليان أحدهما : عباد بن محمد بن حيان من قبل المأمون ؛ والثاني ربيعة  
ابن قيس الذي جعله الأمين والياً . فتجاربا، وعقد عباد لابراهيم بن حوى العذرى ،  
وحرابه يزيد بن الخطاب من معسكر الأمين ، فقتل ابن حوى ، وقال سميد بن  
عفير<sup>(١)</sup> يلوم يزيد بن الخطاب الكلبى على قتله ، ويحرض قضاة على الأخذ بثأره .

قتلوا ابن سيدهم وفارس حزبهم عن غير نأرة ولا إجرام  
فلئن قضاة لم تطالب ثأره بكتيبة خشناء ذات غرام  
ما فى قضاة بعدها ما يرتجى للنائب ، وما هم بكرام<sup>(٢)</sup>

ولم تنفع المأمون ولاية عبد العزيز الجروى ولا السرى بن الحكم ، وكادت  
ريحه بمصر تذهب ، لولا أن أدبر أمر الأمين بالعراق ، وقتل سنة ١٩٨ . عندئذ  
رجحت كفة المأمون ، ودانت له البلاد .

ووليها المطلب الخزاعى للمأمون ( ربيع الأول سنة ١٩٨ ) . فأقر على شرطه  
هبيرة بن هاشم بن حديج ، وكان السرى بن الحكم تلقاه وهو قادم من مكة فأغراه  
بأهل مصر ، وخوفه إبراهيم بن نافع الطائى ، فجد المطلب فى أثره ، فأعياه ، وآتهم  
ناساً بإخفائه منهم هبيرة ، فحسهم ليظهروه ، أو ليدلوا عليه ، وعرض هبيرة على

(١) الكندى ص ١٥٠ .

(٢) النائرة : الثورة والهاج ، الغرام : الهلاك .

السيف ، فأبى أن يدل عليه ، فلما سكن الطلب هرب إلى الصميد .

وقال سميد بن عفير : يذكر وفاء هبيرة ويمدحه مدحاً خالصاً<sup>(٣)</sup> :

لعمري لقد آوئى ، وفاقَ وفاؤه ، هَبَّيرَةٌ ، في الطائى وفاءَ السموءَلِ<sup>(١)</sup>  
وقاه المنايا - إذ أتاه - بنفسه وقد بَرَّقت في عارضٍ مهلل  
فما انفك محبوساً ومُطَلِّبٌ له عليه قصيف بالوعيد المَهْوَل  
فما زاده الإيماذُ إلا تَوَقُّراً وصبراً ، ولم يخشع ولم يَتَفَسَّلْ  
إلى أن تجلت عنه أبيض ماجداً كريم التثا في المشهد المُتَدَخَّلِ<sup>(٢)</sup>

وبلغ المطلب اجتماع ربيعة بن قيس ويزيد بن الخطاب على حربه بأسفل الأرض  
فبعث إليهم عبد العزيز الجروى ، فهزمهم بشظنوف ، وبعث السرى بن الحكم فكان  
مقيماً بالحوف . وتفرقت قيس وسكن أمرهم .

وعُزل المطلب عن مصر في شوال سنة ١٩٨ ، ثم وليها العباس بن موسى من  
قبل المأمون فولى عليها ابنه عبد الله - وهو الذى جاء إلى مصر بالإمام محمد بن  
إدريس الشافعى رضى الله عنه سنة ١٩٨ هـ<sup>(٣)</sup> - وانضم إليه عبد العزيز  
ابن الوزير الجروى ، وسجن المطلب . واستبد عبد الله بن العباس والجروى  
والأنصارى بالجند والناس ، فثاروا بهم وأخرجوا المطلب من سجنه وولوه  
أمرهم<sup>(٤)</sup> .

وانضم إبراهيم الطائى إلى المطلب وكذلك الأنصارى . ثم عرف المطلب بكتب  
من العباس إلى الطائى والأنصارى . فبعث المطلب بهبيرة بن هاشم فقتل الطائى ،  
وسلط الجند على الأنصارى فقتلوه . وقال المعلى الطائى يذم العباس ، ويحرض

(١) ص ١٥٢ . (٢) لم يتفكّل : لم يجين ولم يضعف قلبه . الثنا : الخبر .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦١ . (٤) ص ١٥٥ .

المأمون عليه ، ويذكر فضل المطلب في إراحة المأمون والناس منه :

كفاهم من العباس ما لو منوا به      لأحيا لهم من جور فرعون ماعدل  
فمن مبلغ المأمون عن نصيحة      وما عالم شيئاً سواً ومن جهل  
بأن ابن عبد الله لولا مكانه      لعرفت للعباس داهيةً جليل

وقال سعيد بن عفير في مقتل أبي بشر - الحسن بن عبيد بن لوط - الأنصاري

ويذم المطلب فيما فعل : ويتهمة بالغدر بأبي بشر الأنصاري (١) :

أرى كل جار قد رمى بجواره      وخان أبا بشر جواراً ابن مالك  
أطلب هلاً منعت ابن غادر      وأديته قبل انسداد المسالك

### الجرؤى والسرى بن الحكم :

وامتنع الجرؤى بتنيس على الرغم من ولايته عليها للمطلب ، فولى غيره ، فسار  
الجرؤى بمراكبه إلى شطونوف . فقابله السرى في جمع من الجند للصلح ، فأجابهم  
ثم اجتهد في الغدر بالسرى وأسرته في زلاجه ، وسار به إلى تنيس سنة ١٩٩ .  
ثم عقد المطلب لمحمد بن هبيرة على الإسكندرية ، فاستخلف عليها عمر المعروف  
بأبن هلال من أسرته ، ثم عزله المطلب بأخيه الفضل بن عبد الله بن مالك .  
فتار عمر بن هلال بإيعاز من الجرؤى ، وأخرج الفضل ودعا الأندلسيين ،  
وعند عودته عاون أهل الإسكندرية الفضل . وردوا الأندلسيين إلى مراكبهم التي  
كانت مرابطة تجاه الإسكندرية .

وجد المطلب في أمر الجرؤى ، فأخرج الجرؤى السرى من سجنه ، واستعان  
به ، والتقى هبيرة بن هاشم بجنود السرى ، الذي تحير به فرسه فسقط في حفرة ، فأدركه

(١) الكندى ص ١٥٦ .

(٢) الكندى ص ١٥٦ وما بعدها .

الجند قتلوه ، وجزع المصريون لذلك أشد الجزع . فقال سعيد بن عفير يرثيه ،  
ويذكر مصرعه في ميدان الشرف ، بعد أن مدحه في موقف آخر يوم أن أوفى  
وفاق وفاؤه وفاء السمومل :

لعمري لقد لاقى هَبِيرَةً حَتَفَهُ      بأفضل ما تُلقى الختوفُ السوارعُ  
بأنفٍ حَمَى لَمْ تَخَالطه ذِلَّةٌ      وعرضٍ تَقَى لَمْ تَشِينهُ المطامعُ  
عشيةً يستكفيه مُطَلَبُ الذي      به ضاق ذرعاً والمنايا كوارعُ  
فما انفك يحميه ، ويحمل نفسه      له جنةً ، حتى احتوته المصارعُ  
فلاقى المنايا فوق أجردٍ ساجِحٍ      وفي الكف مأثورٌ من الهند قاطعُ  
فبينما يحوض الهول من غمراته      وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا  
تَقَطَّرَ في أهويةٍ عن جواده      فصادفه حَبْنٌ من الموت واقعُ<sup>(١)</sup>  
وطلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم الأمر إليه ، ويخرج عن مصر  
فقبل السرى ، وخرج المطلب في بحر القلزم إلى مكة .

قال دعبل الخزاعي للمطلب :

فكيف رأيت سيوف الجريشِ      ووقمةً مولى بنى ضببةِ  
أحججتك أسيافهم كارها      ومالك في الحج من رغبةِ  
وقد ولي السرى مصر بإجماع الجند (رمضان سنة ٢٠٠)<sup>(٢)</sup> ، وكان مسالماً  
للجروى وثار ابن هلال المعافري بالإسكندرية ودعا للجروى . وخاصم الأندلسيين

(١) تقطر في أهوية : سقط في حفرة .

(٢) كانت هناك ثورة داخلية من سنة ١٩٧ — ٢٠٠ انتهت بتولى السرى بن الحكم  
أمر مصر ، وقد حكم البلاد هو وإبناه من بعده حوالي عشرة أعوام . وتستحق أسرته أن  
يطلق عليها أول أسرة كانت مستقلة نصف استقلال بمصر . مقدمة الكندي ص ٣ Gfuest

وظهرت طائفة الصوفية بالإسكندرية فانفقوا مع الأندلسيين على ابن هلال .  
واعترضوا بلخيم ، وكانت أعز من في الإسكندرية .

وذهبت الجموع إلى قصر بن هلال وحاصروه فيه ، وخشى أن يدخلوه  
وبنتهكوا حرمانه ويفتكوا بالحرم ، فاغتسل وتحنط ، وتكفن ، وأمر أهله أن  
يُدلّوه إليهم ، فدلوه فأخذته السيوف ، ودلى عدد من أهل بيته فقتلوا جميعاً  
سنة ٢٠٠ .

قال سعيد بن عفير يرثي ابن هلال ويذكر دفاعه عن الإسكندرية ، ويشير إلى  
علمه وحبه للخير ، وإيائه للضميم :

لا يَعمَدَنَّ ابن هلالٍ فقد ذهبت منه النون بعلم طيب اللّسم  
لا يرأَمُ الضمِيمَ من حب الحياة ، ولا يقبل دون فعال الخير بالقسم  
ولا يزال له من مجده طارف يُسند ما حاز عن آباءه القدم (١)  
ما انفك يحمي ذمار اسكندرية في هذه حميد وعز غير مهتضم  
حتى إذا جاءه من كان بأمنه وصرح الموت جهراً غير مكتم  
خاض الأسنة والهندي محتسباً حتى تجرع كأس الموت من أمم

وفسد الأمر بالإسكندرية بعد مقتله واضطرب ، فسار إليها الجروى سنة ٢٠١  
وكاد يفتحها ، لولا أن بعث السرى إلى تنيس بعمرو بن وهب الخزاعي ليخالف إلى  
منزل الجروى ، فرجع الجروى إلى تنيس ، وفسد ما بينه وبين السرى .

وقال ابن عفير للجروى (٢) :

ألا من مبلغ الجروى عني . مفلّلة يعاتب أو يلوم

(١) القدم : الشجمان .

(٢) الكندي ص ١٦٥ .

أقت تنازل الأبطال حتى تميز ذو الحفيظة والسُّومُ  
وُصِّلَ بهم فما وهنت قواهم وطيرُ الموت دائرة تحوم  
ولو هجمت جوعك حين حَلُّوا عليهم باد جمعهم المقيم  
ثم وثب الجند على السرى وعزلوه ، وأظهروا كتاباً من طاهر بن الحسين  
بتولية سليمان بن غالب بن جبريل . وكان ذلك في أول ربيع الأول سنة ٢٠١ .  
ونهب الجند دار السرى ، وسيره سليمان بن غالب إلى أخيم . ولكنه استعان ببني  
مدج وهم كثير ، وسار بهم إلى الفسطاط ، فبعث إليه سليمان بجيش فالتقوا  
«بقمن» فهزم السرى ، وأسر هو وابنه ، وردا إلى أخيم (جمادى الأولى سنة ٢٠١)  
فقال المعلی الطائی يمدح سليمان ويجماله :<sup>(١)</sup>

إذا شن في أرض سليمان غارةً أثار بها نقماً كثير المصائب  
الم تر مصراً كيف داوى سقيمها على حين دانت للعدو المناصب  
جماها ، ولولا ما تقلد أصبحت حبيساً على حكم القنا والمقانب<sup>(٢)</sup>

ثم فسد الأمر على سليمان بن غالب ، ولحق بالجروى .  
وولى السرى الأمر مرة ثانية بمصر من قبل المأمون وكان مجبوساً بأخيم .  
فقدم الفسطاط ( ١٢ شعبان سنة ٢٠١ ) وتبع من حاربه قتلاً وصلباً وتمذيباً .  
فانتظم أمره وقوى سلطانه .

ثم جاءه كتاب المأمون يأخذ البيعة لعلي بن موسى بن جعفر بن علي بن  
أبي طالب ، في المحرم سنة ٢٠٢ ، فأبى هذه البيعة إبراهيم بن المهدي ، وخرج علي  
المأمون ببغداد ، وكاتب وجوه الجند بمصر لخلع المأمون وولى عهده ، وعرف  
السرى بالخارجين فخاربهم ، وفيهم الجروى وسلامة الطحاوى وعبد العزيز الأزدي .

(١) الكندي ص ١٦٨

(٢) المقانب جمع مقنب ، وهو جماعة الخيل ، من ثلاثين إلى أربعين .

وسار الجروى إلى الإسكندرية فاستولى عليها ، واستعد كل من الجروى  
والسرى لصاحبه ، والتقت جموعهما بشطنوف . فقتل ميمون بن السرى وأنهزم  
عسكره ( جمادى الآخر سنة ٢٠٣ ) .

وقال معل الطائى رثى ميموناً<sup>(١)</sup> :

لوردٍ غربَ منية بشجاعة      أخذٌ لدافع ركنها ميمونُ  
لو كان تجريد السيوف يردها      لحماه منها مُنْصَلٌ وثمان  
ما زالت أطمع في رجوعك سالماً      ويرُوعِنِي شفقاً عليك ظنونُ  
فليُفْجَعَنَّ غداً بقتلك طاهرُ      وليُفْجَعَنَّ بقتلك المأمونُ

ثم فشلت حركة إبراهيم بن المهدي ومات على الرضا ، وعادت البلاد إلى طاعة  
المأمون فولى السرى مرة ثالثة ؛ ثم اختلف الجروى مع الأندلسيين بالإسكندرية ،  
فتاروا عليه ، ودعوا للسرى ، فخرج إليهم الجروى (رمضان سنة ٢٠٣) فثار القبط  
وساعدتهم بنو مدج بسخا . فخرج إليهم الجروى فهزمهم .

فقال المعل الطائى يمدح عبد العزيز بن الجروى<sup>(٢)</sup> .

فقل لأمير المؤمنين نصيحةً      وما حاضر شيئاً كآخر غائبِ  
أقد حاطنا عبد العزيز بسيفه      ولولاه كنايين قتل وناهبِ

وبعث السرى بأخيه إلى الصعيد لمحاربة سلامة الطحاوى ، فظفر به وبابنه إبراهيم  
وبعث بهما إلى الفسطاط فقتلا هناك ( المحرم سنة ٢٠٤ ) فقال المعل الطائى يعيب  
فعل الطحاوى ، ويبرر قتله .

أراد الطحاوى التي لا شوى لها      فأوقد ناراً ، كان بالنار صالحاً .  
ودب لأقطار البلاد بفتنة      فجاشت بسقم لا يجيب مداويا

(٢) الكندى ص ١٧١ .

(١) الكندى ص ١٧٠ .

وراسله من كان يحقى بفساقه  
وأصبح ذا مئيل إليه مما لياً  
جنت ما استحق القتل يا صالح كفه  
وكل امرئ يجزى بما كان جانباً<sup>(١)</sup>

وحاصر الجروى الإسكندرية من شعبان سنة ٢٠٤ إلى صفر سنة ٢٠٥ ونصب  
عليهم المجانيق وأصابته فلقة من حجر منجنيقة فقتلته في آخر صفر سنة ٢٠٥ ،  
ومات السرى بالفسطاط بعده بثلاثة أشهر .

وانتقلت العداوة والصراع والولاية إلى وليهما ، أبو نصر بن السرى ، وكان  
معه الصعيد ؛ وعلى بن عبد العزيز الجروى ، وكان يحكم أسفل الأرض ( الوجه البحرى )  
والتقت جيوشهما بشطنوف فانهزم أحمد بن السرى أخو أبي نصر ، ولم يتبعه  
على الجروى ، فقال سعيد بن عفير :

الأمن مبلسخ عنى علياً  
رسالة من يلوم على الرُّكوك  
علام حبست جمعك مستكفاً  
بشط ينوف فى ضنك ضنيك  
وقد سنحت لك الغفران ممن  
رماك يجيشه الوهن الركيك<sup>(٢)</sup>

ثم اصطالحا ومات أبو نصر ( ٨ شعبان سنة ٢٠٦ ) ، وولى أخوه عبید الله بن  
السرى مكانه ، وأرسل المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وحالفه على بن عبد  
العزيز الجروى ، وجبى خالد ما صر به من القرى ، والتقى بجيش ابن السرى بفاقوس  
ثم التقت جيوش الفريقين بدمهور ، على أميال من الفسطاط ، وانتهت المعارك  
بانتصار عبید الله فى اليوم الرابع سنة ٢٠٧ .

واحتج كل من خالد ، وعبید بن السرى بكتاب المأمون إليه بالولاية .  
فقال سعيد بن عفير هذه الأبيات الثلاثة يقدم النصيحة ، ويود أن يرتقب الفريقان  
رأى المأمون الواضح .

(١) الكندى ص ١٧١ .

(٢) ص ١٧٣ . الغفران محرفة عن كلمة أخرى مثل « الغفوات » .

بأيها المتحاربان وإنما دعواهما المأمون في الصدقات  
هل ترجعان إلى التَّقِيَّةِ والتَّقِيَّهِ وتناور الغارات  
حتى يجيء من الخليفة أمره فَيَمِيزُ بين الحق والشبهات  
ثم مكر على بن عبد العزيز بخالد في زمن الفيضان وتركه محصوراً في جهد  
وشدة (في نهيا) فقال معلى وكأنه يؤيد فعل ابن الجروي :

سلا خالدا لما أنجلى عنه شكه وأسلمه في معدوة البحر خاذله  
فزالت أمانيه غداة سماننا بمرض جيشٍ يطر الموت وإبله  
ولما انكشف النيل سار عبيد إلى « نهيا » فأسر خالداً ، واستأمن أكثر  
جيشه في (شوال سنة ٢٠٧) . قال معلى الطائي : يمدح القائد ويذم أعوانه الذين  
أسلموه (١) :

ألا لا أرى خيلاً أضرمه الوغى وأجبن في الهيجاء من خيل خالد  
وقواده أشرار كل قبيلة كتمالوا على إسلامه في الشدائد  
فإن يقتلوه يقتلوا منه سيداً شجاعاً جواداً ماجداً وابن ماجد  
وإن كففوا عن قتله فهي منة لآل سري في مناط القلائد  
فمن عليه عبيد وأكرمه ، وسيره إلى مكة من القلزم برغبته :  
وولى المأمون عبيد الله على ما في يده ، وعلى بن الجروي على ما في يده وضمهما  
الحراج ، ولكن أهل الحوف منعوا الجروي الحراج واستعدوا عليه ابن السري  
فأمدهم بأخيه ؛ وتحمل ابن الجروي بمن معه إلى دمياط بعد أن التقوا ببلقينة (١٣  
صفر سنة ٢٠٧) .

فقال معلى الطائى منتصرا لعبيد<sup>(١)</sup>

ألا هل أتى أهل المراقين وقمة  
وما كان منا قتلهم عن جهالة  
ولما تبينت المنية فى القنـا  
فوليت عن ربيع المحلّة هاربا  
فكيف رأيت الله أنزل نصره  
سنهدى إلى المأمون منا نصائحاً  
لنا بحمى بلقين شبيت الوؤلدا  
خطاءً ولكننا قتلناهم عمدا  
نكصت تنادى، حين ضل النّدا سعدا  
على أبله ما تركب الجور والقصدا  
علينا وولاك المذلة والطردا  
عليه بإظهار الخلاف الذى أبدى

وسار ابن السرى وراء ابن الجروى ، ففر هذا من دمياط إلى الفرما ، ثم  
العريش ، ثم نزل ما بين العريش وغزوة .  
قال سعيد بن عفير :<sup>(٢)</sup>

ألا يا على بن عبد العزيز  
فلست بأول من كاده  
وأجر مصيرك أن يسحبوا  
فتدرك ثارك من أهله  
إلى أين صرت تريد الفرارا  
عدوٌ فكر عليه اعتكارا  
إليك فتوحاً عظاماً كبارا  
وتلبس بعد الكبوّ الفسارا<sup>(٣)</sup>

وعاد ابن الجروى فأغار على الفرما ، وهرب أصحاب عبيد من تنيس ودمياط  
إلى الفسطاط ، وأقبل ابن الجروى إلى شطنوف ، فقابله محمد بن سليمان بن الحكم  
من قبيل عبيد فانهزم ابن الجروى آخر النهار ، ومضى عبيد إلى تنيس ودمياط ،  
ولحق ابن الجروى بالعريش سنة ( ٢٠٩ )

قال المعلى الطائى :<sup>(٤)</sup>

ألم تر خيله صبحت عليا  
تُدِفُّ على مناسجها النّساعا

(٢،١) الكندى ص ١٧٧ .

(٣) شرحه . والفسار : التاج ، فارسى معرب أفسر وفسار .

(٤) الكندى ص ١٧٩ . تدف : تحرك . المناسج : جمع منسج كبير وهو أسفل الحارك .

النساع : جمع نسع وهو السير من الجلد .

فولى عن عساكره وخَلَّى  
ولكن فات فوق أقبَّ نَهْدِ  
على الأسل المدائن والرِّبَاعِ  
كرجع الطرف لا يَخْشَى اضْطِلاعا  
فحسبك أن قومك من جُذام  
وسعدِه لا ترى لهم اجتماعا  
دعهم طاعةً لك فاستجابوا  
ومن عجب لمثلك أن يطاعا

وأقبل عبد الله بن طاهر إلى مصر سنة ٢١٠ وانضم إليه ابن الجروى ، وأبى  
عبيد الله بن السرى أن يسمع له ويطيع<sup>(١)</sup> ، فنزل بلبليس ، ودعا عبيداً وخوفه  
ومناه ، فلم يستجب ، وأخذ يحفر خندقه ، ويحكم أموره ، ويشحن سفنه ، وسار  
ابن طاهر من بلبليس حتى نزل « زفيتا » وعقد بها جسرا ، وبعث عيسى بن يزيد  
الجلودى إلى شطنوف ، وأقبلت سفنه من الشام ، وجعل عليها ابن الجروى لمعرفة  
بالحرب فى البحر ، وجعل عبيد على مراكبه أبا السرور عسامة بن الوزير الشيبانى  
والتقى الجمعان فانهزم عبيد ، وأقبل ابن طاهر إلى خندق عبيد الذى احتفراه فنزل  
عليه ( محرم سنة ٢١١ ) فاستأمن أبو السرور فى جمع كبير إلى ابن طاهر .

---

(١) الكندى ص ١٨٠ ، وفى النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٨١ أن المأمون بعث بابن  
طاهر لحرب عبيد الله بن السرى ، وقال له : « إني استخرت الله تعالى منذ شهر ، وقد رأيت  
أن الرجل يصف ابنه ليظريه ويرفعه ، وقد رأيتك فوق ما وصفك أبوك ، وقد مات السرى  
وولى ابنه عبد الله ، وليس بشيء ، وقد رأيت توليتك مصر ومحاربة الخوارج بها » فقال عبد  
الله : « السم والطاعة ، وأرجو أن يجعل الله الخير لأمر المؤمنين » ولما ضيق ابن طاهر على  
عبيد الله طلب الأمان وشرط شروطا ، وبعث إليه بتقدمة من جملتها ألف ووصيف ووصيفة ،  
مع كل وصيف ووصيفة ألف دينار فى كيس حرير ، وبعث بهم ليلا ، فرد عبد الله بن طاهر  
ذلك عليه ، وكتب إليه :

لو قبلت هديتك نهرا لقبلتها ليلا ، « بل أنتم بهديتكم تفرحون »  
فلما بلغه ذلك طلب الأمان بلا شرط .

كَمُرى لَقَد كَانت بِمِصرَ وَقِيمَةً  
عَلَى الخندقِ الأَقصى وَمَا كَانَ حَوْلَهُ  
رَأَى ابنُ السَّرى النَّصرَ أَوَّلَ يَوْمِهِ  
لَوِىنَ جَموعَ ابنِ السَّرى وَخِيَلَهُ  
أَقَامتْ عَلَى قَصْدِ الهوى كُلِّ مَائِلِ  
وَمَا قَدِيلِهِ مِنْ فِضَاءٍ وَسَاحِلِ  
وَأوَدَى بِلَيْثٍ مِنْ أبى السَّرى بِاسِلِ (١)  
شَمَاطِيطَ تَتَرى كَالنِّعَامِ الجَوَافِلِ  
كَفَاحُ الردى فِي كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلِ  
فَمِنْ فَارسٍ يَأْتِيهِ طَوْعاً وَرَاجِلِ  
تَوَخَّوْا أَمَانَ الأَرِيحى ابنِ طَاهِرِ

وقدم أبو صالح التميمي من بغداد بكتاب أمان لابن السرى ، وبتوقيع المأمون إلى ابن طاهر ، لما كتب إليه هذه الأبيات يفوض الأمر إليه ، ويجعل له السلطان المطلق في أمر ابن السرى (٢) :

أخى أنت ومولاي الذى أحفظُ نِعْمَاهُ  
فما تهوى من الأمرِ فإني سوف أهواه  
وما تسخطُ من شيءٍ فإني لست أرضاه  
لك اللهُ على ذاكَ لك اللهُ ، لك اللهُ

ومن الشعر الذى قيل هجاء لعبيد الله ما قاله شاعر يسمى أحمد الحرأوى :  
أَرْجُو مَعَهَا دَفْعَ ضَرْغَامِ غَابَةٍ  
وَإِنْ أَحَقَّ النَّاسُ أَنْ يَشْهَدَ الوَعَى  
وَلَمْ يَحْتَجِبْ صُحْباً لَسَطِ الضَّفَائِرِ  
فَقَد هَجَاءَ بِمِشَابَهَتِهِ النِّسَاءَ ، وَهُوَ هَجَاءٌ قَلَّ مِثْلُهُ فِي الأَدبِ العَرَبِيِّ السَّابِقِ ،

(١) شَمَاطِيطُ : مَتَفَرِّقَةٌ .

(٢) السكندی من ١٨١ ، ورويت في النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٩٢ مع اختلاف يسير ، ولمناسبة أخرى . هي أن المأمون كتب إلى ابن طاهر بأمره بالزيادة في الجامع العتيق ، فزاد مثله ، وكتب يعلم المأمون بذلك ، وأرسل إليه هذه الأبيات

وفيه إشارة إلى إرسال الرجل شعره ، وجعله ضفائرٍ يعشطها ويرجلها .  
ثم وليها ابن طاهر من قبل المأمون ( ربيع الأول سنة ٢١١ ) . وخرج  
عبيد بن السري إلى بغداد (جمادى الأولى سنة ٢١١) . فقال حبيب بن أوس الطائي :

فأورده بغداد تهوى برحله      ذمّولٌ ترى في قلاص ذوامل  
فأصبح قد زالت ظلالُ نعيمه      وأى نعيم ليس يوماً بزائل !

وقد عاش عبيد بعد ذلك زمناً ثم مات بسر من رأى سنة ٢٥١ هـ .  
وعادت البلاد تابعة للخلافة ، ولكن شعرها ظل كما هو - فيما يبدو لنا  
من هذه الأمثلة القليلة - مهتماً بالسياسة ورجالها ، وبالحوادث وتسجيلها .  
ثم خرج منها ابن طاهر ، واستخلف عيسى بن يزيد الجلودى ( ١٧ ذى القعدة  
سنة ٢١٣ ) وقدم الخبر بولاية أبي إسحاق بن هرون الرشيد ( المعتصم ) وعزل  
ابن طاهر ، فأقر الجلودى ، ولكنه ظلم وزاد الخراج ؛ فانتفض أهل البلاد ،  
وحاربهم ابن الجلودى في بلبيس فهزموه ( وذلك في صفر سنة ٢١٤ ) .

ثم وليها عمير بن الوليد باستخلاف أبي إسحاق له ( ١٩ صفر سنة ٢١٤ ) .  
فاستمد لحرب أهل الحوف . وخرج عليه القيسية واليانية ، وعلى الأولين  
قيس بن عبد الله بن حليس الهلالى ، وعلى اليانية عبد السلام بن أبي الماضى ،  
وهزمهم عمير أولاً ولكن كينا خرج عليه عند اليهودية ، وقتله مبارك بن الأسود  
( يوم الثلاثاء ١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٤ ) ، فكانت ولايته ستين يوماً . قال  
حبيب بن أوس الطائي :<sup>(١)</sup>

ألا رُزئت خراسانُ فتاها      غداة ثوى عميرُ بن الوليد

(١) روى الكندى هذه الأبيات ص ١٨٧ ، وهى فى الديوان ص ٣٥٩ من

رماه الحزن فيك ، وكم عميد  
وكم أغبرت فينا من حدود  
ولا طلعت نجومك بالسمود

غيا يوم الثلاثاء كم كثيب  
فكم سخنت فينا من عيون  
فأزجرت طيورك عن سنيح  
وقال أيضاً :

بكر من الفارات أو ليموان<sup>(١)</sup>  
قولي ، وأنعى فارس الفرسات

أنى عمير بن الوليد لغارة  
أنى فتى الفتيان غير مكذب  
وقال سعيد بن عفير :

بأمرة لم يكن فيها بمسعود  
ثوبين من حبرات البأس والجدود  
يوماً ، وإن كرمت<sup>(٢)</sup> أفعاله ، يودي

سأقت عمير إلى مصر منيته  
حتى أتته المنايا وهو ملتحف  
فاذهب حميداً فلا تبعه فكل فتى

ووليها عيسى بن يزيد الجلودي مرة ثانية لأبي إسحاق وحرابه أهل الحوف  
هزموه إلى الفسطاط ، قال حبيب بن أوس يهجو الجلودي :

ذهبت بمال جنوده شامبا  
جذبتك أحبال الردى جذبا  
أنهبن روحك في الوغى نهبا  
قحطان ، لا ميلاً ولا نكباً  
ألقى عليك ظلامه حجبا  
والبيض تجذب هامهم جذبا  
لك بالبقا فركبتها ركبا<sup>(٣)</sup>

قل للجلودي الذى يده  
الله أرهقك الهزيمة إذ  
وأنتك خيل لو صبرت لها  
من حى عدنان وإخوتهم  
أعصمت بالليل البهيم وقد  
وتركت جندك للقتنا جزراً  
فاشكر أياذى ليلة سنحت

(١) البيتان من قصيدة نونية في الديوان ص ٣٨٩

(٢) وردت هذه الكلمة « كريت » ولا معنى لها .

(٣) البيت الأول من الديوان ص ٤٩٠ ، وبقية الأبيات مختارة من قصيدة في تلك الصفحة

ثم قدم أبو إسحاق إلى مصر وحارب أهل الخوف وهزمهم ، ودعا رئيس قيس عبد الله بن حليس ، ورئيس اليمانية عبد السلام بن أبي ماضي ، وقيدهما وسجنهما ، ثم دخل بهما القسطنطينية وقتلها وصلبها بالجيزة ( الاثنين ١٨ ذى القعدة سنة ٢١٤ ) . قال معلى الطائى وخص بأكثر شعره عبد الله بن حليس (١) :

إِنَّ الْحَلَيْسِيَّ غَدَا سَابِقَا	فِي حَلْبَةِ الْجَسْرِينَ قَدْ قَصَّبَا
عَلَى طِمْرٍ مَالَهُ أَرْجُلٌ	مِنْ صِنْعَةِ النَّجَارِ قَدْ شُدَّ بَا
وَلَيْسَ يَدْرِي عِنْدَ الْجَامَةِ	مِنْ أَثْفَرِ الطَّرْفِ وَمِنْ لَبَّابَا
مَسْمَرُ الْخَلْقِ أُمُونُ الشَّوَى	يَأْنَفُ أَنْ يَأْكُلَ أَوْ يَشْرَبَا
وَلَوْ سَرَى لَيْلَتَهُ كُلَّمَا	مَا جَاوَزَ الْجَسْرَ وَلَا قَرِيبَا
لَوْ كَانَ مِنْ بَعْضِ نَخِيلِ الْقَرْيِ	كَانَ أَبُو الْقَاسِمِ قَدْ أَرْطَبَا
كَسَا أَبُو إِسْحَاقَ أَوْدَاجَهُ	أَبْيَضَ لَا يُعْتَبُ مِنْ أَعْضَابَا
وَقَدْ سَقَى عَبْدَ السَّلَامِ الرَّدَى	فَكَيْفَ بِاللَّهِ إِذَا جَرَّ بَا

وهو شعر ساخر يتهم فيه بهذا البائس المصابوب . ويصف الصَّلب وحصانه ومكانه وصفًا دقيقًا موجزًا .

وخرج أبو إسحاق إلى الشام في أترابه ومعهم جمع من الأسارى ، وذلك في أول المحرم سنة ٢١٥ .

ووليها إسحاق بن يحيى بن معاذ من قبل المنتصر بن المتوكل ، وولى عهده ؛ في ١١ ذى القعدة سنة ٢٣٥ . وقيل إنه عزم أن يثور بها ، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى عزل ومات بها بعد عزله سنة ٢٣٧ .

قال شاعر بصرى يرثيه ويسقى جدته (٢) :

سَقَى اللَّهُ مَا بَيْنَ الْمُقَطَّمِ وَالصَّفَا      صَفَا النَّيْلِ صَوْبَ الزُّنْحَيْنِ يَصُوبُ

(١) الكندى ص ١٨٨

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٨٥

وما بى أن أسقى البلاد وإنما  
فإن تك يا إسحاق غبت فلم توب  
فلا يبعدنك الله ساكن حفرة  
أحاول أن يسقى هناك حبيب  
إلينا ، وسفر الموت ليس يثوب  
بعضر عليها جندل وجنوب

ثم وليها عنبة بن إسحاق الضبي من قبل المنتصر سنة ٢٣٨ فأخذ المال برد  
المظالم ، وأقامهم للناس وأنصف منهم ، وظهر بالخوف من المدل ما لم يسمع بمثله  
في زمانه ، وكان يروح إلى المسجد ماشياً من المسكر ، وكان ينادى في شهر رمضان  
بالسحور ، وكان مشهوراً بمذهب الخوارج فلم يسلم من لسان الشعراء .  
قال يحيى بن الفضل (١) :

من فتي يبلغ الإمام كتابا  
بئس والله ما صنعت إلينا  
خارجياً يدين بالسيف فينا  
صراً يمشى إلى الصلاة نهارا  
عريباً ويقتضيه الجوابا  
حين وليتنا أميراً مصابا  
ويرى قتلنا جيماً صوابا  
وينادى السحور : ضل وخابا

وفي ولايته نزلت الروم دمياط يوم عرفة سنة ٢٣٨ فلكوها وما فيها ، وقتلوا  
وسبوا ، فخرج إليهم عنبة فلم يدركهم فقد ارتحلوا إلى تنيس ، فأقاموا بأشتومها  
فلم يتبعهم عنبة . فقال يحيى بن الفضل للمتوكل بثيره على عنبة ، الذي ضعف  
وتواكل عن تتبع الروم وتأديبهم (٢) :

أرضى بأن توطأ حريمك عنوة  
حاراً أتى دمياط والروم ووثب  
مقيمون بالأشتوم يبعون مثل ما  
وأن يستباح المسلمون ويحربوا  
بتنيس منه رأى عين وأقرب  
أصابوه من دمياط والحرب ترتب

(١) الكندي ص ٢٠١

(٢) خطط المقرئ ج ١ ص ٢١٤

فما رام من دمياط شبراً ولا درى      من العجز ما يأتي وما يتجنب  
فلا تنسنا إنا بدار مَضِيعَةٌ      بمصرَ ، وإن الدين قد كاد يذهب

وزى فيما تقدم أن هذا الشعر قد مال ، قصداً أو بغير قصد ، إلى السياسة  
والإدارة والأمن :

فمضى بالولاء والوفائع والطاعة والمصيان والحرب والسلام وشبه ذلك . ومن الطبيعي  
أن يذكر الشاعر هؤلاء الولاة بغير أو بشر . وهنا يقترب من السياسة ولا يستطيع  
أن يتجنبها عند ما يؤيد والياً رضى عنه ، أو يعيب عاملاً سخط عليه ، أو عندما  
يقدم نصيحة لأمر المؤمنين أن يعزله أو يقره ؛ فتختلط السياسة بالمدح والهجاء  
والنصح والوصف وسواها ، ولم تسكت عنه دوافع العصبية القبلية في بعض الأحيان .  
وليست هذه الأحداث وحدها هي التي أثارَت الشعراء ، ولا أظن هذا القدر  
هو كل ما قيل . ولولا كتب التاريخ واهتمامها بأدب هذه الفترة لما بقي لنا منها  
شيء يذكر ، فلها فضلها في بيان زمن النصوص على وجه الدقة أو التقريب ، وفي  
توضيح معناها ، وبيان إشاراتها والإفصاح عن الشخصيات والأماكن والحوادث  
التي وردت فيها .

ولكن كتب التاريخ تحفظ ما يعنىها ، وكتب الأدب تروى ما يعجبها  
ويرضيها . وقد يضيع بين هذين قدر كبير لم يجد من يهتم بروايته .

# الفصل الثامن

## شعر العصر العباسي

- ٢ -

### الشعر القضائي أو شعر الخصومات

لعل من الغريب أن نجد شعراً مدرجاً تحت عنوان كهذا ؛ وقد تحسب أن المقصود به قضايا تصاغ شعراً ، وترفع إلى القضاة منظومة ؛ أو أن المراد به دفاع موزون عن حقوق ؛ أو محاورات مقفاة بين خصوم ؛ أو أن أصحاب هذه القضايا ، أو القائمين بهذا الدفاع ، يعتمدون على المنطق ، أو يحتكمون إلى مواد القانون ، ونصوص الفقه وأصول التشريع .

ولكنك تقرؤه فتراه بعيداً عن هذا كله ، فهو شعر كثيره من الشعر ، فيه مدح وهجاء ، وفيه خيال وحقائق ، وفيه عواطف وانفعالات ، وفيه حق وفيه تحامل . ولكن المناسبات التي قيل فيها ، والحوادث التي أوحى به ، كانت في مجالس القضاة ، أو بسبب فصل القضاء ، أو لدافع يمت إلى شيء من ذلك .

ومن الطبيعي أن يكثر الحديث في مثل هذا الشعر عن العدل والظلم ، والقضاء والحكم ، والخصوم والشهود ، والبينة واليمين ، والحق والباطل وشبه ذلك . وإذا تعرض هذا الشعر للقضاة هجاء بما يشينهم كأكل أموال اليتامى ، أو أخذ الرشا ، أو الميل في القضاء ؛ أو مدحهم بما يشرفهم ، كالمؤاساة بين الناس في وجههم ومجلسهم وعدلهم ، والبعد عن الشبهات في تصرفهم ، والتخلق

بكريم الأخلاق وجميل الصفات .

وترى في أثناء ذلك الشعر صوراً متعددة من حياة المجتمع ومشكلاته ، ومن المنازعات العامة والخاصة التي تعرض على مسمع القاضى وتقدم إلى حضرته . وأكثر ما بقى من شعر هذه المنازعات متصل بالأمور العامة كما سترى .

وكان لهذا النوع من الشعر مقدمات في عصر بنى أمية ، رأينا منها هجاء عمران بن عبد الرحمن الحسنى لخلفه في القضاء عبد الواحد بن عبد الرحمن . . . بن معاوية بن حديج . إذ رماه بالتخنث والأنوثة ؛ وهجاء لمن ولاه ، وهو عبد الله بن عبد الملك ، ودعا على الوالى وقاضيه<sup>(١)</sup> .

ورأينا منها شعر اليتيم الذى لم ينصفه القاضى يحيى بن ميمون الحضرمى ، فقال فيه أبياتاً ، هي أقرب إلى الشكوى منها إلى الهجاء . وبلغ أمره هشام بن عبد الملك ، فعزل يحيى عن القضاء<sup>(٢)</sup> .

وأول شعر نعرفه من هذا النوع في عهد العباسيين ، قاله عبد الأعلى بن سميد الجيشانى :

فقد كان أبو خزيمة الرعيى والياً على القضاء من قبل يزيد بن حاتم سنة ١٤٤ هـ . فرفع إليه أن عبد الأعلى بن سميد تزوج امرأة من بنى عبد كلال ، فقام بمض أولياتها وأنكروه ، وترافعوا إلى أبى خزيمة ، فقال : ما أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله ؛ إذا زوجها ولى فالنكاح ماض . فارتفعوا إلى يزيد ابن حاتم ، وهو الأمير يومئذ . فقال يزيد : ليس عبد الأعلى من أكفائها ، وأمر أبا خزيمة بفسخ نكاحها ، فامتنع ؛ ففرق بينهما يزيد . فقال عبد الأعلى يعرض بالأمير ، ويتهمه بالكفر ، ويطمن في قضائه<sup>(٣)</sup> :

(٢) ص ١٥٨ من هذا الكتاب .

(١) ص ١٥٦ من هذا الكتاب .

(٣) الولاية والقضاء ص ٣٦٧ .

« و » أعلنت الفواحش في البوادي      وصار الناس أعوانَ المريبِ  
إذا ما عيَّبُهم عابوا مقالِي      لما في القوم من تلك العيوبِ  
وودوا لو كُفِرنا فاستوينَا      وصار الناس كالشيء الشوبِ  
وكنا نستطبُّ إذا مرضنا      فصار هلاكنا بيد الطيبِ

وقد يعيب البيت الأول من هذه الأبيات أن نقص حرفاً فقد جمال الموسيقى وحسن النغم ؛ وهذا شعر عام لم تذكر فيه القضية ، ولا إشارة إليها لولا رواية الكندي للقصة ؛ ولكن الأبيات برغم ذلك تعد من الشعر الجيد ، وليست دون غيرها من الشعر القوي في المهجاء .

وعندنا قصيدة أخرى كانت الخصومة فيها شخصية بين القاضي والشاعر .

أما القاضي فرجل عظيم يسمى المفضل بن فضالة ، وإلى القضاء من سنة ١٦٨ هـ - ١٦٩ هـ . وأما الشاعر فهو إسحاق بن معاذ بن مجاهد بن خير . وكان بينهما مودة حتى مدح الشاعرُ القاضيَ فقال<sup>(١)</sup> :

لَفَضْلِكَ أَضْحَى ، يَا مُفَضَّلُ ، ظَاهِرًا      لِمَنْ كَانَ يُعْنَى بِالْأُمُورِ وَيَعْقَلُ  
لَقَدْ سُسِّتَ فَضْلَ الْحَكْمِ فِي الدَّهْرِ حَقِيبَةً      فَلَا أَنْتَ ذُو خُرْقٍ وَلَا أَنْتَ تَجْهَلُ  
وَلَا أَنْتَ مِمَّنْ يَطَّيَّبِيهِ<sup>(٢)</sup> مَطَامِعٌ      وَيُمرضُ عَنِ قَصْدِ السَّبِيلِ وَيَعْدِلُ  
فَإِنْ قِيلَ أَى النَّاسِ أَهْجَرَ لِلْهَوَى      وَأَقْضَى بِفِصْلِ الْحَكْمِ ؟ قِيلَ الْمَفْضَلُ  
فَأَنْتَى نَخَافُ الْجُورَ مِنْكَ ، وَإِنَّمَا      دَلِيلُكَ فِي الْحَكْمِ الْكِتَابُ الْمَنْزَلُ

لكنه تغير عليه وهجاه بعد الرضا عنه ، وذهب إليه يوماً في خصومة ، وأدخل يده في كفه ليخرج قصته ، فأخرج المهجو قدفمه إليه وهو :

(٢) يفتنه ويستميله

(١) الولاية والقضاة ص ٣٧٩

خف الله واسمع من مقالى ، مفضلُ فإنك عن فصل القضاء ستسأل  
وقد قال أقوام ، عجبت لقولهم أقاض له شعر طويل مُرَجَّل  
فروى المفضل الرقمة وقال . قم لحيائك الله !

وروى الكندى الأبيات الآتية لإسحق بن معاذ فى هجاء القاضى أنفضل .  
ويفهم من رواية الكندى أنها من قصيدة أخرى ، ولكن النظرة السريعة  
تقضى بأن القصيدة واحدة تغير فيها بعض الألفاظ ، وزيدت أبيات . قال إسحق :

خف الله وارفق واتد يا مفضل وإنك موقوف به ومحاسب  
فإنك عن فصل القضاء ستسأل فدونك ، فانظر ، كيف فى الحكم تفعل  
وتدنى بفضل منك خصمى ، ويدخل وفى العدل أن أقصى وأخرج متمبأ  
ويغلق دونى ، إن دنوت ، ويُقفل ويُفتح - إن يدنو - له الباب جهرة  
ويقبل منه فى مغيبى شهوده وتقبل منى لست ، إذا غاب ، تقبل  
قضيت به ، والحق ما ليس يجهل فهأنذا أصبحت خصمك فى الذى  
بأى وجوه الفقه أصبحت تعمل ؟ فأصغ إلى السمع منك ، وأنيدنى

وهذا شعر فى الهجاء كأنه عتاب عنيف قوى ، تخير التهم التى توجه إلى قاض  
فتقضى عليه ، كالمحاباة وعدم التسوية بين الخصوم فى المعاملة ، ومجاورة ما يقضى به  
الفقه والمدل .

وروى المفضل القضاء مرة ثانية من سنة ١٧٤ - ١٧٧ ورسم أقواماً للشهادة  
فلم يرض عنه إسحق . ودعا عليه وذمه ؛ قال (١) :

سأدعو إلهى حتى الصباح لكيا يعيدك كلباً هزيبلا  
سننت لنا الجور فى حكمنا وصيرت قوماً لصوصاً عدولا

وهناك قضية أخرى كان المفضل فيها حكماً عدلاً أو قاضياً رحيماً ؛ وهي قضية أبي الكرويس تمام بن الكرويس الكلبي ، الذي تزوج امرأة من المغافر يقال لها أم شاكر ؛ فنافرته يوماً فطلقها ! وادعت عليه مهراً . فخاصمته إلى المفضل فقال أبو الكروس :

ألا طرقتنا سُجْرَةً أمُّ شاكر      بكاراً ، وهل يؤذيك إلا الباكِرُ  
تخاصمنا ذَحْلاً ؛ لأن بان وصلها      وذلك أمرٌ ، أين منه المقادرُ  
وقد أخذت مهراً ، لما كان عندها      وهذي شهودي حَمِيرٌ والمغافرُ  
فقال له المفضل : يا أبا الكروس . إن شهد لك بالبراءة حكمنا لك ، وإن شهد عليك فعلينا الوفاء عنك .

وترى في هذا الشعر تقريراً للخصومة وعرضاً موجزاً للقضية ، ودفعاً للاتهام ، ولكنه لا يمرض للقاضي ، وكان موقف المفضل من أبي الكروس في حالي البراءة والإدانة موقفاً كريماً .

### قضايا القاضي العمري :

وإذا كانت هذه القضايا التي سجلها الشعر عن المفضل قضايا فردية ، فهناك قضايا أخرى سجلها الشعر عن قاض آخر ولى قضاء مصرفي أواخر عهد الرشيد ، من سنة ١٨٥ — ١٩٤ وهو القاضي عبد الرحمن بن عبد الله العمري ، الذي كان معروفاً بمحبته لعامة الأحياس « الأوقاف » ، وكان يقف عليها بنفسه ، ويجلس مع البنائين أكثر نهاره .

وكان له كُتَّابٌ ، ومن أجَلَّهم سعيد بن كثير بن عفير ، ويحيى بن عبد الله ابن بُكَيْرٍ ، واتخذ من أهل المدينة من موالى قريش والأنصار وغيرهم نحواً من مائة ، كانوا يشهدون ، ورئيسهم المطرف . ولكن شاعراً من عرب مصر ، من خولان ،

كان موكلًا به ، يتتبع زلاته ، ويهجو به بعبوبه ؛ وكان يطمئن في أصحابه . فيتهمهم  
بالفنى بعد الفقر ، وبأكل أموال اليتامى وقبول الرشوة : ذلك الشاعر هو يحيى  
الخولاني ، الذي يقول (١) :

كم قفـير كان قد مَوَّاهُ      بالوارث التي كان مَنَحَ  
زكريا وكَيْشٌ منهمُ      والمدِينِيُّونَ أصحابَ البَلَحِ  
فأفادوا الدور فضلا ، بعد ما      كَلِبَ الفقرُ عليهم وألحُ  
كم يتيم قد حوَّوا أمواله      وشهيد عادل كان جُرح

وقال قصيدة أخرى يهجو فيها العمري وأصحابه ومنها (٢) :

تَصَيَّرَ أموالُ اليتامى جوارِزا      لأصحابه حتى استقلوا وأتربوا  
كَيْشٌ وطَلقَ والقريري منهمُ      وخالدُ والجمدِيُّ ذو الفِئَةِ أشهبُ  
وما ابنُ بُكَيْرٍ دونهم وسرَّاقَةٌ      وسابقٌ لا تنساه ذاك المذب  
وفي حَكَمِ والمُطَرِّفِ عجيبة      وما إن أبو يعقوبَ عنها مُغَيَّبُ  
وفي زكريا آية ، فاعجبوا لها      فقد صار بعد الذل ، للجور يُرْهَبُ  
وبعد قرآنِ العُمرى أصبح فاكْتسى      وبعد الحفَّا والمشي قد صار يَرْكَبُ  
وغيرُ الأتلي عدَّدتُ ممن نسيته      رجالٌ كثير منهمُ يتعجب

وضعف بعض الأبيات والتراكيب ، كالبيت الأخير ، لا يهمننا بقدر ما يهمننا  
تصويرها لحال ذلك القاضي ورجاله الذين عنى الشاعر بسرد أسمائهم ، مثل زكريا  
ابن يحيى ، وكَيْش بن سلمة ، وسابق بن عيسى ، وأشهب بن عبد العزيز ، ويحيى  
ابن بكير . وكان لبعض هؤلاء عمل مع القاضي ، فاتهمهم الناس بالرشوة ، كما

لأنهم يحيي الخولاني في هذه الآيات السابقة .

### قضية الحرس (١) :

وهي قضية مشهورة شغلت الناس زمناً ، وشغلت الشعر معهم أيضاً ، وأصل هذه القضية أن بعض العرب بمصر ؛ منهم أبو رَحَب الخولاني ، الملاء بن عاصم وهاتم بن حديج ، وأبو الدهمج رباح بن ذؤابة الكندي ، « كانوا يتحرشون أهل الحرس ويؤذونهم » ، وهم من القبط الذين أسلموا ، كما يفهم من بقية القصة ، وكان أولئك العرب يأبون عليهم أن ينسبوا إليهم ، وأن يكون لهم مثل مزايامهم . فشى أهل الحرس إلى زكرياء بن يحيى كاتب العمري ؛ وكان منهم ؛ فقالوا له : حتى متى تؤذى وبطن في أنسابنا ؟ فأشار عليهم زكرياء بجمع مال يدفعونه إلى العمري ، ليسجل لهم سجلاً بإثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، ووكل لهم في الأمر سابق بن عيسى ؛ وكبيش بن سلمة ولوط بن عمر . فلما صار المال إلى العمري لم يجسر على أن يسجل لهم ، وقال : ارفعوا إلى الرشيد في ذلك . فخرج عبد الرحمن ابن زياد الحرسى وأبو كنانة إلى العراق ، وأنفقا مالا عظيماً هناك ، وادعيا أن الفضل ابن فضالة قد كان حكم لهم بإثبات أنسابهم ، وأنهم بنو حَوْتَكَة بن أسلم بن الحلاف بن قُضَاعَة .

أما نسبة الحكم بعريبتهم إلى الفضل بن فضالة أولاً فكانت تزويراً ، كما يفهم من الكندي (٢) ، وأن الذى زورها وأقر بالتزوير رجل يسمى عبد الكريم القراطيسى ، وكان ماهراً في تقليد الخط « وكان يضع على الخطوط نظيرها » . وقد أخذ في وضعها ألف دينار ؛ وأخذ المتولى لديوان الفضل ألف دينار حتى أثبتهم في الديوان .

(١) الولاة والقضاة ص ٣٩٧ وما بعدها . (٢) الولاة والقضاة ص ٣٩٨ .

ورجع عبد الرحمن بن زياد بكتاب من محمد الأمين إلى العمري « بعد موت الرشيد » بالتسجيل لهم ، ودعاهم إلى إقامة البيعة ، فقدموا جماعة من بادية الشام ، ومن أهل الحوف ، والشرقية ، فشهدوا أنهم عرب ، فسجل لهم العمري نسبهم ، ولم يرد من اليهود غير حوَيِّ بن حوي بن معاذ المذري ، لمنازعة كانت بينه وبين أشهب بن عبد العزيز ؛ فقال يحيى الخولاني يذكر هذا الاتساب .

ومن أعجب الأشياء أن عصابةً من القبط فينا أصبحوا قد تعرّبوا وقالوا أبونا حوتك ، وأبوهم من القبط علج حبله متذبذب<sup>(١)</sup> وجاءوا بأجلاف من الحوف فادّعوا بأنهم منهم ، سفاهاً ، وأجلبوا إلا لعن الرحمن من كان راضياً « بزعمهم<sup>(٢)</sup> » مادامت الشمس تغرب

أما حوَيُّ بن حوي فلم يفقه من الهجاء أن رُدَّتْ شهادته ، إذ لم تكن له حيلة في ردها ، وكان يرغب أن تقبل ، وكان راضياً بما كرهه يحيى الخولاني ، فقال فيه يحيى :

يا ليت أمَّ حوَيِّ لم تَلِدْ ذكراً أوليت أن حوَيّاً كان ذا خرس  
كسا قضاة عاراً في شهادته لله دَرُّ حوي شاهيد الحرس !  
شهادة رجعت ، لو أنها قبِلت لألحق الزور منها العير بالفرس

وود يحيى ، في هذه الأبيات ، لو كانت أم حوي ولده أنثى ، أو أنه خرس عن أداء الشهادة التي كست قضاة عاراً ، ولو قبِلت شهادته بالزور لألحقت الأذى بالأعلى ، والوضيع بالشريف ، أو ألحقت الحير بالخيال . ولكن شهادة اليهود قبِلت ، وحكم القاضي للحرس بنسبتهم إلى حوتكة ، وكان

(١) العليج = الكافر من العجم .

(٢) في الأصل « بهم رغماً » والبيت مكسور جعلتها « بزعمهم » ليستقيم المعنى والوزن .

أهل الحرس يطيفون بالعمري مع زكرياء بن يحيى كاتبه ، وصاروا أقرب إليه .  
وعرف عن العمري أنه يحب الغناء ، ويستمتع إليه ، ويعرف فنونه ، ويرد  
ما يسمعه إلى كبار المغنين بالدينة فيقول : هذا غننى به ابن سُريج ، وهذا به  
الدَّلال ، وهذا من جيد غناء الفريض<sup>(١)</sup> ؛ ولم تكن بمصر مُسمِعةً إلا  
ذكب إليها يسمع غناها ، وربما قوم ما انكسر من غنائها ، ويرى ذلك من  
الدين . فقال فيه يحيى الخولاني :

سَمَّ بِنَا رَاكِبَ عَلَى فَرَسٍ      يَا مَنْ رَأَى هَرَبِيذًا عَلَى فَرَسٍ<sup>(٢)</sup>

يقدمه خالد ويتبعه      لوط ، قران الكلبين في سراس  
فقلت من ذا الاعمين ؟ قيل أبو الائمة      دى ، غدا مسرعا إلى عرس  
كيا يرى قينة ذكرت      تشدو بصوت يُخَالُ كالجرس  
أصبح في الخزيات منغمسا      وليس في غيرها بمنغمس

وكان العمري في نظره لاهيا لاعبا صاحب خمر وطرب ، ضيف المصيبة للعرب ،  
حتى ألحق بهم من لا يساويهم . واستبكى الخولاني سامعه لذلك ، واتهم القاضي  
بالجور في أحكامه ، والسهر في أماكن الريبة ، وشرب الخمر وسماع الغناء ، وتلك  
كلها مطاعن تسقط من عدالة القاضي ، وتلم شرفه . فأتحفه بقصيدة أخرى في  
هجائه . قال :

أَلَا قُمْ فَانْدِبِ الْعَرَبَا      وَبَكَ الدِّينَ وَالْحَسَبَا  
وَلَا تَنْفِكْ تُنَمِّي الْعَدَّ      لَ مَا بَانَ فَاغْتَرَبَا  
لَقَدْ أَحْدَثَ قَاضِي السِّ      وَءِ فِي فُسْطَاطِنَا عَجَبَا

(١) ابن سريج والدلال والفريض من مشاهير المغنين بالحجاز في عهد بني أمية .

(٢) الهريذة : خادم النار عند المحوس ، وخادم بيت النار عند الهنود .

يظل نهاره يقضى      بغير العدل منتصبا  
ويسهر ليله لاسما      عيه القينات والطربا  
ويشربها معتقة      عقارا تشبه الذهبا  
ويعجبه سماع المو      د والزمار ، يا عجبا !  
فيا للناس من قاض      يحب اللهو واللعبا !

وأبي المعلي الطائي إلا أن بشارك في الحملة على القاضي العمري ، وأن يخرجه وأن يجعل مصيره إلى النار ، وذلك كله في شعر سهل يشبه الحديث في تدفقه وسهولته ، ولكنه قوى بما فيه من التهم القاسي ، والإحراج الفحيم ، إذ يقول للقاضي :

كم ، كم تطول في قرانك      والجور يضحك من صلاتك<sup>(١)</sup>  
تقضي نهارك بالهوى      وتبيت بين مفناتك  
فاثرب على صرف الزما      ن بما ارتشيت من الحواتك  
إن كنت قد ألحقتهم      عمربا فزوجهم بناتك  
ولتكشفن بما أتية      ت صدور قوم من مساتك<sup>(٢)</sup>  
وكأني بمنية تسمى إلي      ك بكف فاتك  
لا تعجلن أبا الندي      حتى تصير إلى وفاتك  
إن القامع تطلت      ن من الجحيم إلى مماتك  
بل لو ملكت لسان أكر      ثم ما وصلت إلى صفاتك

وقد ناله من الهجاء في هذه القضية ما كشف عن سيئاته ، فشبهه الشعراء

(١) قرانك : قراءتك .

(٢) مساتك : مساءتك .

بأبي الندى الذى كان قاطع طريق فى أيامه ، وأعلنوا ما عرفوه عنه من لهو وحب للفتاء والشراب ، وشكاه أهل مصر إلى الرشيد كى يعزله فأبى وقال : ليس عندى من ولد عمر بن الخطاب غيره . ولولا ذلك لعزله .

### قضية السباق : أو الزعفران وجناح ،<sup>(١)</sup>

وتلك قضية أخرى كان العمري قاضياً فيها ، ولم يوفق فى حكمه ، وأثار عليه ثائرة الشاعر الخولانى . أما أصل هذه القضية فهو سباق بين فرسين ، أحدهما لمراد ويسمى الزعفران ، والثانى ليَنحَصُبُ ويسمى الجناح . وقد انفقت مراد ويحصب على أن يتسابق الفرسان ، ومن سبق فرسه أخذ الاثنين . وجعلا للسباق غاية فخرجوا ، وخرج عامة مصر معهم ، فسبق فرس مراد ، حتى كاد يدخل الغاية ، فخرجت يحصُبُ فضربت وجه الزعفران حتى تحير ، وسَمِدَ الجناحُ ، فرسُ يحصُبُ ، فدخل الغاية . فاقتتلوا ، وانضم مع كل فريق منهم طائفة من الناس ، وركب الأمير ليث بن الفضل يحجز بينهم ، ورد الأمر إلى العمري لينظر فيه ، فأنته يحصُبُ بأموال عظيمة ، فحكم لهم بالفرس ، وودع إليهم الزعفران ، وقضى لهم به . ولم يفت يحيى الخولانى أن يسجل ذلك فى شعره فقال :

فكم يد لبني زَوْفٍ وإخوتهم      فى آلِ فِهْرِ تَغُصُّ الشَّيْخُ بِالرِّيقِ  
إن حاكمُ عُمَيْرِيٍّ جارٍ فى فرس      فسوف يُرْجِعُهُ عدلُ ابنِ صَدِيقِ

والبيت الأخير يرجح أن هذه الأبيات قيلت بعد عزل العمري ، أو عند إشاعة عزله . وأن القصة نفسها كانت فى آخر أيامه ، وما أشبهها بقصة داحس والغبراء وكأنها صورة منها ؛ لولا انتهاء الخصومة هنا برد الفرس إلى أصحابه لما تولى القاضى البكرى .

(١) الكندى ص ٤٠٢ .

وكان ليحيى الخولاني خصم في هذه المرة يدفع عن القاضي العمري ، وهو شاعر يسمى عبد الله التجيبي ، من نسل معاوية بن حديج . قال ليحيى يدافع عن يحصب ، ويتوعد مراد :

طلبت فلم تألُ حسنَ الطلبِ      ورُميتَ عظيماً ولما تُصبُ  
وعوات مَوْتاً على رميهم      بقوس الضلال ونبل الكذب  
فإن كان في فرس عَتَبكم      فعندي لكم فرس من قصب  
وإلا فهُرُّ كريمٍ النجارِ      قليلُ العظام كثير العَصَبُ

فرد عليه يحيى بشعر فيه معنى الدفاع القضائي أو المحاورة بين الشاعرين :  
قال يحيى لخصمه ، يدافع عن مراد :

ألا أيها الشاعرُ المنتدبُ      يحامى عن العمريِّ العطبُ  
ورأى مرادٍ وخولانها      بنبل من الجهل غير الصيبِ  
«فأ» أنقص العمريِّ بامرئٍ      من الناس إلا كريمَ الحسبِ<sup>(١)</sup>  
ملا الأرض جوراً بأحكامه      وأظهر فيها جميع الرّيبِ

وترى في هذه القصيدة والتي قبلها روح المصيبة الجاهلية ، والدفاع عن القبيلة .

وأشار الفضل بن الربيع وزير الأمين بعزله سنة ١٩٤ هـ فعزله الأمين ، بعد أن ولي هذا المنصب تسع سنين . وقال رجل من أهل مصر :

بحمد الله ورأى الفضلِ      نُحَيِّ عن الحكمِ عدوَّ العدلِ  
هذا سوارٌ لرسولِ العزّلِ

(١) رويت كلمة « لعمرك » في أول البيت وبها ينكسر الوزن . الصيب : جمع صيوب وهو الذي لا يخطئ الهدف .

### القاضي البكري :

ووليها بعده رجل من ذرية أبي بكر الصديق يسمى « هاشم بن أبي بكر البكري » في جمادى الآخرة سنة ١٩٤ ، وكان من أهل الكوفة يذهب بمذهب أبي حنيفة .

ونقض ما فعله العمري في أهل الحرس ، وما قضى به في قضية الفرس ، وحبسه ومعه جماعة من أعوانه ، وطالبه بما صار إليه من الأموال . ولكن العمري هرب من السجن ، وشيمه يحيى الخولاني بالبيتين الآتين :

هرب الخائن ليلاً فجنحَ      وأتى أمراً قبيحاً فافتضحُ  
هاربٌ تحمله ناجية      يصل الإدلاج عدواً بالروحُ

وكان هذين البيتين أول القصيدة التي تقدمت منها أبيات في أول الحديث عن القاضي العمري ، فالقائل واحد ، وكذلك البحر والقافية ، والنرض الذي قيل فيه الشعر وهذا بدء بلا تمهيد ، تحدث فيه في الموضوع ، من غير أن تقدم لذلك بمقدمة من المقدمات التقليدية .

وهرب العمري من السجن ليلاً ، وذهب إلى مدين حيث أمواله ، فأخذها وسار حتى بلغ « فسيداً » فلقية قوم من أسد وطبي فأوقعوا به ، وأخذوا جميع ماله ، فأتخلص منهم إلا بمحاشاة نفسه ، قال يحيى :

إن يكن أفلتَ منا سائماً      يوم ولي مسرعاً حين هرب  
فلقد وافى نفيدي عصباً      يسرون الحرب حتى تذهب

وقال طاهر القيسي لأبي رَحِب<sup>(١)</sup> ، وهو الذي أشار على البكري بحبس

القاضي العمري :

(١) الولاية والفضة ص ١٤٢ .

ولقد كسوت أبا الندى بفعاله      حرباً يلوح قناعه المتشعب  
وزحمته لما تخمط ، زحمة      ضاقت عليه بها العراق ويثرب<sup>(١)</sup>  
ونجا ، لخوفك ، هاربا بخزاية      وأخو الخزاية والشرارة يُقَلب<sup>(٢)</sup>  
وأوفد أبو رحب وهاشم بن حديج ، وفداً من أهل مصر إلى الأمين فأتاروا قضية  
الحرس ، فكتب الأمين إلى البكري يأمره بردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم .  
القضية عند البكري :

ودعا البكري أهل الحرس أن يجيئوا بقضية العمرى لهم ، فأتوها ، وتوهموا أنه  
يزيدهم شهوداً ، فأخرج البكري كتاباً من تحت مصلاة تقض به قضية العمرى  
فقال معلى الطائي<sup>(٣)</sup> :

يا بني البظراء موتوا كذا      واستخنوا عينا بتخريق السجيل  
لو أراد الله أن يجعلكم      من بني العباس طراً لفعل  
لكن الرحمن قد صيركم      قبط مصر ، ومن القبط سفك

وقيل إن البكري أثار قضيتهم من جديد . وحضر من أهل مصر عبد الله  
ابن وهب ، وسعد بن أبي مرثد ، وسعيد بن عفير ، وناس كثير من أهل القنعة  
والعدالة ، فشهدوا عند البكري أن أهل الحرس من القبط ، وأن العمرى قضى  
فيهم بجور ، فنقض البكري قضية العمرى فيهم وأشهد على قضائه بردهم إلى أصلهم  
من القبط .

قال يحيى الخولاني<sup>(٤)</sup> :

اشكروا الله على إحسانه      فله الحمد جميعاً والرغب<sup>(٥)</sup>

(١) تخمط : تكبر . (٢) الشرارة : الشر .

(٣) الكندي ص ٤١٤ (٤) الكندي ص ٤١٥

(٥) الرغب : جمع رغبة ، وهي الضراعة .

رجع القبط إلى أصلهم      بعد خزي طوقوه وتمب  
ودنانير رشوها قاضياً      جأراً قد كان فينا يفتصب  
أخذ الأموال منهم خدعةً      وتولى عنهم ثم هرب  
أبلغ البكري عنى أنه      عادل في الحكم فرأج الكرب  
قد أمت الجور فينا والرشا      وأشاع العدل فينا فرتب  
إنه قد كان يقضى بالهوى      ويبيع الحكم جوراً ويهب  
وإذا نخلو حساها مرة      مثل عين الديك من ماء العنب  
فأت كالشمس إلا أنها      كسيت في دنها لون ذهب  
ما كفته رشوة ظاهرة      وقضايا جوركم<sup>(١)</sup> فيها عجب  
أن أتى أعظم ما يأتي به      أحد أن صير القبط عرب  
وقال طاهر القيسي لأبي رجب الذي كان زعيماً في الثورة على انتساب أهل  
الحرس إلى العرب<sup>(٢)</sup> :

ولقد قمت بنى الخبائت عندما      راموا العلاء وتحوتكوا وتعربوا  
فرددتهم قبطاً إلى آبائهم      ونسب أصلهم الذي قد غيبوا  
وتركتهم مثلاً لكل ملصق      نسباً ، إذا التقت المحافل يضرب  
وتنتهى هذه القضية بعد أن تركت للقاضي العمري ذكرى في الشعر العربي  
لا ترضيه .

وفرض ابن هزيمة فروضاً للمطوعين الذين كانوا يعمرون المواخير . وصارت سنة

(٢) الكندي ص ٤١٥ .

(١) لعلها « جوره » .

بعده ، وصحاحها الناس فروض لهيعة ، فقال فراس المرادي (١) :

لعمري لقد سارت فروضُ لهيعةٍ      إلى بلد قد كاد يهلكُ صاحبهُ  
إلى بلد تُنقى به البومُ والصدى      تعاوِرهُ الرومُ الطغامُ تحاربهُ  
رشيدٌ وإخنا والبرلس كلهما      ودمياط والأشتموم تقوى يفالبه  
لهيعة ، لقد حزت المكارم والثنا      ومن عند ربى فضله ومواهبه  
فقد عُمرت تلك الثغور بسنةٍ      تُعدُّ إذا عُدَّت هناك مناقبه

وقدم المطلب الخزامى فعزل لهيعة عن القضاء في شهر ربيع الأول سنة ١٩٨  
ثم ولاء ثانية في المحرم سنة ١٩٩ فاستكتب سعيد بن تليد المصري (٢) .

وقال أبو شبيب أنيس بن دارم مولى نجيب في صحابة لهيعة :

قَبَحَ اللهُ زَمَانَا      رَأْسَ فِيهِ ابْنُ تَلِيدِ  
بَعْدَ مِقْرَاضٍ وَخَيْطِ      وَأَبْيَاتِ حَدِيدِ  
وَأَبُو الزَّنْبَاعِ خَفِ      سَاقُ غَرَامِيلِ الْعَبِيدِ  
بَعْدَ سَيْفِ خَشْبِي      وَسَهَامٍ مِنْ حَدِيدِ  
وَأَبُو الرُّوسِ الْمَرِيَسِ      سَىُّ ابْنِ دَبَاغِ الْجَلُودِ

وَاللَّقِيْطِ ابْنِ بُكَيْرِ      نَظْفَةَ الْفَدَمِ الطَّرِيدِ  
وَابْنِ سَهْمِ حَارِسِ الْجِ      سِيزَةَ حُلُوَانِ الْبَرِيدِ  
عَصْبَةَ مِنْ طِينَةِ النَّيِّ      لِمَنْ مَنَاسِيُّ الْجُدُودِ  
لَيْسُوا بَعْدَ التَّبَايِبِ      مِنْ نَفِيسَاتِ الْبُرُودِ (٣)

(١) ص ٤١٩ والمواخير يقصد بها الثغور .

(٢) ص ٤٢٣ .

(٣) التباين = السراويل القصيرة جدا ، والبرود = الثياب الموشاة .

لازموا السجد ضللاً      لا من الأمر الرشيد  
لحوانيتَ بنوها      بفنا كل عمود  
وتسمتوا وتكثرتوا      بعد جرحه وشنود  
والاحوا بجباه      من نطاح الحصر سود  
تحت أميال طوال      كبراطيل اليهود<sup>(١)</sup>  
نصبوها كالقاعيد      يد على رؤس القرود  
وتراهم للوصايا      وعدالات الشهود  
في مرآء وجدال      وقيام وقمود  
وخشوع وابتهاال      وركوع وسجود  
وعلى القسمة أضزى      من تماسيح الصميد  
وأشاروا للهدايا      بأبي عبد الحميد

وانظر إلى ما في هذه القصيدة من قوة في التصوير والتهكم ، وما كان يراه العرب من فرق بينهم وبين غيرهم ، ورأى هؤلاء في اللحاق بالعرب لتكون لهم مثل منزلتهم .

وولى قضاء مصر تسعة رجال من حضرموت آخرهم طيبة ، وكان هناك ولاية آخرون في الأندلس وفلسطين وبرقة الخ ، فقال الشاعر في هؤلاء الحضارمة<sup>(٢)</sup> :

ما من بلاد من البلدان نعلمه      إلا وفيه من الأشياخ والحدث  
قضاة عدل لهم فضل ومعرفة      مبرءون من الآفات والرفث

(١) الأميال = أنواع من العمام ، والبراطيل = الفلاس ، والمقصود أن أغلبية الرأس عالية كبيرة .

(٢) الكندي ٤٢٥ .

وقال آخر :

لقد ولى القضاء بكل أرض  
رجالٌ ليس مثلهم رجال  
وقال يزيد بن مقسم الصديقي :  
يا حضرموت هنيئاً ما خصصت به  
في الجاهلية والإسلام يعرفه  
من الفُر الحضارمة الكرام  
من الصيد الجحاحجة الضخام  
من الحكومة بين العُجم والعرب  
أهل الرواية والتفتيش والطلب

وكان بعض القضاة يروي رقيق الشعر ، وكان فيهم شعراء . وهذا قاض منهم واضح الصباية ، أو جيد التقليد ، وهو هرون بن عبد الله ، الذي ولى القضاء من قبل المأمون سنة ٢١٧ ، وكان من خير القضاة وأحسنهم إشرافاً ، وأدقهم مباشرة لما يليه ، ويروي عنه أنه أنشد عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون<sup>(١)</sup> .

ولما رأيت البينَ منها فجاءة  
ولم يبق إلا أن تودع ظاعن  
نظرت إليها نظرة فرأيتها  
وأخبره أن قائلها رجل قرشي .  
هرون : أنا والله قلتها في طريق سرتها إليك . قال : قد والله عرفت الضعف فيها حين أنشدتني !

ويذكرنا هذا بما رواه القاضي الجرجاني<sup>(٢)</sup> من أن إسحاق الموصلي أنشد الأصمعي شعراً نسبته إلى الجاهلية فأبدى إعجابه به ، فقال له الموصلي : إنهما ليليتهما . فقال الأصمعي : لا عجب ؛ والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر . وذلك تعصب منه للقديم مصدره الهوى لا الذوق ولا العقل .

(١) الكندي ص ٤٤٨ .

(٢) الوساطة ص ٢٣ .

## الشعر في خلق القرآن والخلافات المذهبية :

وولى القضاء محمد بن أبي الليث من قبل المعتصم سنة ٢٢٣ . وكان مقبياً بها من سنة ٢٠٥ ، وفتحها بمذهب الكوفيين - كان حنفياً - وفي أيام الواثق أمر بامتحان الناس بخلق القرآن ، واشتد في ذلك ، وأمر أن يكتب على باب المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن الخلق . ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد وأمرهم ألا يقربوه . ومن امتحن بذلك هرون بن عبد الله .

قال الحسين بن عبد السلام الجمل<sup>(١)</sup> لمحمد بن أبي الليث : وكأنه يستعرض أعماله أو يسجل حوادثه وأخباره في ميدان الصراع المذهبي والفقهي ويمدحه بالبشاشة والسماحة ، والعلم النافع . وكان ابن أبي الليث حنفياً متمصباً لمذهبه ، فحذ الحسين بن عبد السلام عمله في محاربة مخالفيه ، والتشهير بمن قال بغير رأيه أو مذهبه :

وُلِّيتَ حَكْمَ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ تَكُنْ      بَرَمَ اللَّقَاءَ وَلَا بِيَقَظَةَ أَرْوَرَ  
وَلَقَدْ بَجَسْتَ الْعِلْمَ فِي طَلَابِهِ      وَفَجَّرْتَ مِنْهُ مَنَابِعًا لَمْ تُفْجِرْ  
لَحْمِيَّتِ قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ بِالْهَدَى      وَمُحَمَّدَ وَالْيُوسُفِي الْأَذْكَرَ  
وَفُتِّي أَبِي نَيْلِي وَقَوْلَ قَرِيْبِهِمْ      زَقَرَ الْقِيَّاسَ أَخِي الْحِجَّاجَ الْأَنْظَرَ

وحطمت قول الشافعي وصحبه      ومقالة ابن عُلَيَّةٍ لَمْ تُصَحَّرْ  
أزقت قولهم الحصير فلم يجز      عَرْضَ الْحَصِيرِ فَإِنْ بَدَا لَكَ فَاشْبِرْ  
والمالكية بعد ذكر شائع      أَخْلَتَهَا فَكَأَنَّهَا لَمْ تَذْكَرْ

(١) الكندي من ص ٤٥٢ - ٤٥٦ .

أين ابن هرمز أوربيعة لا يرى  
كسرتة، فهوى، برايك كسرة  
أعطتك السنة أتك ضميرها  
فأطفت بالإيلي ينمق صأحاً  
ومحمد الحكى أنت أطفته  
كل ينادى بالقران وخلقه  
لم ترض أن نطقت بها أفواههم  
لما أريتهم الردى متصوراً

ماذا تقول بالقال الأجور  
لبثت على قدم المدى لم تجبر  
وأنتك السنة بما لم تضر  
في كل مجمع مشهد أو محضر  
وأخاه ينمق بالصياح الأجر (١)  
فشهرتهم بمقالة لم تشهر  
حتى المساجد خلقه لم تنكر  
زعموا بأن الله غير مصور

واشتدت المحنة، فهرب بعض الناس، واختفى بعضهم، مثل يوسف بن أبي طيبة،  
وأحمد بن صالح، ومحمد بن سالم القطان، وأبو يحيى الوقار، وهرب ذو النون بن  
إبراهيم الإخيمى، ورأى أن يرجع فوقع في يده؛ قال الجمل:

أحجرت يوسف في خزانة بيته  
أخليت من عمر الزناء مقامه  
وكفرك الأرضون حين سألها  
جحدتك أقطار البلاد فما على  
وثوى ابن سالم خفية في بيته  
فأتى به كفر ينج أو كآبى الندى

فطوته عنك وطلما لم يُجحر  
وعمرت منه مداخلا لم تعمر  
خير ابن صالح الخبيث الأكفر  
حركاته وسكونه من مظهر  
ثم امتطى غلس الظلام الأستر  
والناس بين مهلل ومكبر

(١) أخرج الأيلي من المسجد وعمامته في رقبته، ومطر غلام ابن أبي الليث يسوقه،  
وهو ينادى بخلق القرآن، وفعل مثل ذلك بمحمد بن عبد الله بن الحكم. ولما هم مطر بتناول  
قلنسوته بادر فأخذها فجعلها في كفه. الكندى ص ٤٥٢ — ٤٥٣.

وكذاك داود بن حَمَّادِ اختفى      بمد الإجابة بالخبيث الأغدر  
أسقى على شُطآنِه إذ أفلتت      من سائق يشتاها أو مُجَرِّد  
الآ أرى مطرا يطوف بنصفها      والنصفُ عند مخلق ومقصر  
وطالب ابن أبي الليث يونس بن عبد الأعلى بأموال كانت عنده ، وقال الجمل  
يحمده ذلك ويذكر حرصه على الأموال العامة .

ودعوت أصحاب الوصايا بالذي      قعدوا عليه من التراث الأوفر  
فأتاك من خشى العقاب بماله      وطوى الوصية كل عود مجسر  
فجملت أطباق السجن بيوتهم      لا يأنسون بمقبل أو مدبر  
وثليت وحدثهم بيونس مؤنسا      وفتى أبي عون الخثون الأكبر  
طرحوا لها الأموال خلف ظهورهم      ولقوا السجن بعقدة وتبصر  
أرضى لهم فذنبك السجن وضيقها      ولجأ رأيك في الألد الأنخر  
لم يُشبع الثلثان جوع بطونهم      حتى غشوا تلك الضعيف الأفقر  
فكأننى بك قد حشوت بيمضهم      وعمر السجن وكل حبس أقدر

ابن القطاس وابن أبي الليث :

وكان سعيد بن زياد الملقب بابن القطاس ، يتنقص ابن أبي الليث ويتكلم  
في المسجد بالطعن فيه ، والدعاء عليه ، فاستدعاه فأنكر ، وأتى إلى ابن  
أبي الليث رجل فأخبره أن ابن القطاس مملوك لم يجر عليه عتق ، وشهد  
الشهود بذلك ، وادعى رقبته رجل من الأزدي ، يقال له ابن الأبرش ، فحبسه القاضي  
خمس أيام ، ثم حكم بشهادة الشهود ، وأمر به فنودي عليه ، فبلغ ديناراً ، فاشتراه  
محمد بن أبي الليث ثم اعتقه ، فقال الجمل :

وبطشت بالقُطوس بطشة قائم      بالحق غير مُقصر ومبذر  
ما زلت تفحص عن أمور شهوده      في السر والعلن المبين الأظهر  
قربطته في رقبته ومنعته      بطلاً الحرائر وهو غير مُحَرَّر

### ابن الليث والعمائم العالية :

وكان زى أهل مصر ؛ وجمال شيوخهم وأهل الفقه والمداللة منهم ، لباس<sup>(١)</sup>  
القلائس الطوال ، وكانوا يبالغون فيها . وأشار ابن دارم إلى ذلك في قوله :  
تحت أميال طوال      كبراطيل اليهود  
فأمرهم ابن أبي الليث بتركها ومنعهم لباسها ونهاهم أن يتشبهوا بلباس القاضي  
وزيه ، فلم ينتهوا ، فجلس ابن أبي الليث في مجلس حكمه في المسجد ، واجتمع  
أولئك الشيوخ عليهم القلائس ، فأقبل عبد الغنى ومطر : فضربا رؤوس الشيوخ  
حتى ألقوا قلائسهم . ولعب بها الصبيان والرعاع ، وكانوا بعد ذلك لا يدخلون إلى  
ابن أبي الليث ولا يحضرون مجلسه في قلنسوة :

وأُشد اسماعيل بن اسحاق بن ابراهيم بن تميم ، من شعر الجمل في هذا :  
وأخفت أيامَ الطوال وأهلها      فرموا بكل طوبلة لم تُقصر  
ما زلت تأخذهم بطرح طوالهم      والمشي نحوك بالرؤوس الحُسر  
حتى تركتهم يرون لباسها      بعد الجمال خطية لم تغفر  
يتفزعون بكل قطعة خرقة      يجدونها من أعين ومخبر  
فإذا خلا بهم المكان مشوا بها      وتأبطوها في الكان الأعمر

(١) وهي التي أمر بلبسها يحيى بن داود الخرسى والى مصر سنة ١٦٥ . ( الكندى ص  
١٢٣ ) وقد أخذ الفقهاء والأشراف بلبس القلائس الطوال في الدخول بها على السلطان يوم  
الانئين والخميس .

فلئن ذعرت طواهم فطلما  
كانوا إذا دلفوا بهن لفضل  
كم موسر أفقرته ومفقر  
ما إن عليك لقيت منهم واحداً  
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة  
مالي أراهم مطرقين كأنما  
ذعرت ، ومن برؤ أمها لم يدع  
أمضى عليه من الوشيح الأسمر  
أغنيته من بعد جهد مفقر  
وإن العجاج مدججاً في مفقر  
واقوا القضاة بمشية وتبخر  
دُمفت رؤوسهم بحمي خير

وتوقف النيل فاستسقى أهل مصر ، وحضر ابن أبي الليث معهم ، فوثب  
المصريون ، وأخذوا قلنسوته فلبسوا بها ، بعد ما آذى قلانسهم<sup>(١)</sup> .  
ولما عزل ترك الكثير منهم لبس القلانس وكأنهم قد تعودوا هذا .

وقد تجد في هذه القصيدة ميلاً إلى تكلف الاستعارات ، وضمف التأليف ،  
واجتلاب الكلمات التي تم بها القافية ، ولكن طبيعة الموضوع ترغم الشاعر  
على هذا ، فالتسجيل والسرد من عمل المؤرخ لا الشاعر ، والجل قد جعل من  
نفسه مؤرخاً ومحامياً ، ولكنه استطاع أن يجيد في كثير من الأبيات :

وكان رجل يسمى يحيى بن زكريا ، مولى كندة ، يجلس في المسجد فيخبر بعزل  
محمد بن أبي الليث ويشنع عليه فأرسل إليه ابن أبي الليث فلم يكف ، فضربه وحبسه  
حيناً ، قال الجمل :

كم يعزلونك من يوم ويكذبهم  
سيعلمون من المعزول عندهم  
هيات ! منتهم الآمال باطلها  
أما قضاياكم فيهم فمعملة  
حل القمطر فما انحاشوا وما وكلوا  
أنت أم هم ، إذا فاتهم الأكل  
وأي مستضف لم يمدح الأمل  
ما إن لإرجافهم من فسخها عمل

يا أوجها لهم ، ما كان أصفقها من أوجه! كيف لا يثنيهم الخجل!  
قالوا عُزِلت ، وما يدرون أنهم عن الشهادات والزور الذي عُزلوا

وترى أن هذا الشعر كله لم يخل من إشارات ودلالات اجتماعية تبين بعض أخلاق الناس أو عاداتهم كقصيدة أنيس بن دارم التي تشير إلى قوة العنصرية في مصر بين طبقتين من المسلمين ، إحداها عربية ، والثانية مصرية .

ففي قصيدته<sup>(١)</sup> الدالية ذم لأصحاب القاضي ابن لطيفة من المصريين ، وعلى رأسهم ابن تليد . وفيها أن الأسماء والكنى يجب أن تكون وفقاً على العرب لأنها للرفعة . ونفهم من شعر يحيى الخولاني أن اللهو كان معروفاً ، وكان في الحاضرة شراب وغناء ، وأن بعض القضاة كان يسمع الغناء ، ويركب إلى الملامى علناً في جماعة من أصحابه ، وأن الرشوة كانت شائعة في أتباع القاضي وكتابه ، وأن العرب أبوا أن يشاركونهم مسلمو مصر في الانتساب لأنهم أقل منهم قدراً .

فلما وصل القبط إلى ذلك سخط العرب وثار تآثرتهم على القاضي العمري ، ولم يسكتوا حتى رفض القاضي البكري ما فعله القاضي العمري ، وأخرجهم من نسبهم العربي .

وفي قصيدة الحسين بن عبد السلام الجمل<sup>(٢)</sup> ، وأنيس بن دارم دلالة على أن ملابس الرأس كانت عمائم عالية ، ثم حاربها القاضي ابن أبي الليث حتى قضى عليها سنة ٣٢٠ . وفي قصيدة الحسين أيضاً صورة عنيفة من الخلافات المذهبية والدينية . وفي شعر إسحاق بن معاذ أن المفضل بن فضاله كان قاضياً « له شعر طويل مرجل » .

ولو جاءنا كثير من هذا الشعر لكانت دلالاته أقوى وفائدة التاريخ منه أعظم .

(٢) الكندي ص ٤٦١ .

(١) الكندي ص ٤٢٣ .

## الفصل التاسع

### الشعراء في عهد العباسيين

#### (١) شعراء مصر :

أما شعراء مصر في هذه الفترة فلم يكن عددهم كثيراً ، ولا كان الشعر عملهم إذا استثنينا المَعَلِّيَّ والحسين بن عبد السلام الجمل . لكن الشعر الباقي لنا يدل على استعداد قديم ، وعلى مواهب لوقيض لها من يشجعها أو انصرف أصحابها إلى ترقيتها لأبدعوا وأجادوا ، كإسحاق بن معاذ بن مجاهد بن خير ، ويحيى الخولاني . وأشهر هؤلاء الشعراء سعيد بن عفير ، والعلی الطائي ، والحسين بن عبد السلام الجمل .

#### ١ — سعيد بن كثير بن عفير : (١٤٦ — ٢٢٦ هـ)

أول شعراء هذا العصر ، وهو رجل متعدد النواحي إذ كان فقيهاً ومحدثاً وكاتب قضاء ، كما كان شاعراً راوية للأدب ، عالماً بالأنساب والأخبار ، وأيام العرب وما أثرها ووقائعها ، والمناقب والمثاب ، وكان في ذلك كله شيئاً عجيباً<sup>(١)</sup> . أما شعره فيمتاز بالصدق والصراحة ، والبعد عن الزلفي . وفيه النقد الحر للوالى . وقد تقدم أكثر شعره الذي جاء به الكندي . وأول ما روى له من الشعر متصل بسنة ١٦٨ هـ ، وآخر ما روى له كان في سنة ٢٠٩ . وقد يبدو في

(١) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٧٥ .

شعره أثر المصيبة والميل إلى قحطان وإلى قضاة ، وشعره في جملة جيد الأسلوب .  
صادق المعنى .

### ٢ — المعلى الطائى :

عاش المعلى وسعيد بن عفير زمنا . والأشعار التي رواها الكندي له تمتد من سنة ١٩٤ — ٢١٤ هـ . وقد شغلا شعرهما بالأخبار والحوادث ، أو رجال الدولة وأعمالهم ، أو بالسياسة وتطورها ، ولكن اختلفت طباعهما وثقافتها وصلتهما بالولادة ، ويظهر أن المعلى كان أقربهما إلى الشعر ، وأكثرها تجويداً له وعناية به ، كما كان أصغرهما سناً .

وللمعلى الطائى شعر في غير الكندي . فقد روى له الأغاني بيتين<sup>(١)</sup> في الدعوة إلى الصبّوح صبيحة النيروز ، وفي تبسم الربيع عن نواره . وروى له قصيدة في مدح عبد الله بن طاهر والاعتذار إليه بعد تغلبه على ابن السرى<sup>(٢)</sup> .

وقصة هذا المدح أنه لما فتح ابن طاهر مصر « سوغه المأمون خراجها ، فصعد المنبر ، فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف دينار أو نحوها ؛ فأتاه معلى الطائى ، وقد أعلموه ما صنع عبد الله بن طاهر بالناس في الجوائز ، وكان عليه واجداً ، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال : أصلح الله الأمير . أنا مُعلى الطائى ، وقد بلغ منى ما كان منك من جفاء وغلظ ، فلا يغلظنَّ على قلبك ، ولا يستخفنك الذى بلغتك . أنا الذى أقول :

يا أعظم الناس عفوا عند مقدرة	وأظلم الناس ، عند الجود ، للمال
لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهباً	لما أشرتَ إلى كُزْنٍ بِمِثْقَالِ
تُغلى بما فيه رِقِّ الحمد تملكه	وليس شيء أعاضَ الحمدَ بالغالى

(٢) ج ١١ ص ١٢ .

(١) ج ١٧ ص ١٢٧ .

تَفُكْ بِاليسْرِ كَفَّ العسر من زمنٍ      إذا استطال على قومٍ بإقـلالٍ  
لم تَحُلْ كَفَكَ من جودِهِ مُخْتَبِطٍ      ومرهفٍ قاتلٍ في رأس قتالٍ  
وما بَيَّنَّتْ رَعِيلَ الخيلِ في بلدٍ      إلا عصفن بأرزاقٍ وآجالٍ  
إن كنتُ منكَ على بالٍ منتَ به      فإن شكركَ من قلبي على بالٍ  
ما زلتُ مقتضِبًا لولا مجاهرةً      من السُّنِّ خُضنَ في صدري بأقوالٍ

قال : فضحك عبد الله ، وُسْرًا بما كان منه ، وقال : يا أبا السمراء . أقرضني عشرة آلاف دينار ؟ فما أمسيت أملكها . فأقرضه ، فدفعها إلي .

وهذا من جيد المدح لحسن السبك ولطف المعاني .

واستدل بعض المؤرخين بهذا المدح على أن المعلي كان متنقلا في ولائه ، وأنه كان متكسبا بشعره . ولكن ذلك كان شائعا في أكثر الشعراء . فكيف يؤخذ المعلي وحده بذنبه ؟ أما ابن طاهر فكان سخيا ، سريع الغفو عنه ؛ لما كان يعرفه عن الشعراء من ولاء متنقل ، وإخلاص لمنصب الوالي وعطائه ، ولما فيه من ذوق رقيق وحس مرهف يتأثر بهذا البيان القوي ، والشعر السائر .

وروى ابن عبد ربه خبر رثاء المعلي لجاريته ، فقال (١) :

« كان لمعلي الطائي جارية يقال لها « وصف » وكانت أديبة شاعرة . فأخبرني محمد بن وضاح قال : أدركت معلي الطائي بمصر وأعطيت بجاريته « وصف » أربعة آلاف دينار فباعها ، فلما دخل عليها قالت له : بعثني يا معلي ؟ قال نعم . قالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعثتك بالدنيا وما فيها ! فرد الدنانير

(١) العقد الفريد ص ١٨٩

واستقال صاحبه . فأصيب بها بعد ثمانية أيام . فقال يرثيها :

ياموت كيف سلبتني « وَصَفَا »  
 هلا ذهبت بنا معاً ، فلقد  
 وأخذت شق النفس من بدني  
 فعليك بالباقي بلا أجل  
 ياموت ما بقيت لي أحداً  
 هلا رحمت شباب غانية  
 ورحمت عيني ظبية جمعت  
 تُفِضِي إِذَا اتَّصَفْتِ مَرَابِضَهُ  
 فإذا مشى اختلفت قوائمه  
 متحيراً في المشى مرتمشاً  
 فكانها « وصف » إذا جمعت  
 ياموت أنت كذا لكل أخي  
 خليتني فرداً وبنيت بها  
 فتركتها بالرغم في جدث  
 دون المقطم لا يلبسها

قَدَّمْتَهَا وَتَرَكْتَنِي خَلْفًا  
 ظفِرت يداك ، فَسَمَّتَنِي خَسِيفًا  
 فقبرته ، وتركت لي النصف  
 فاللوت بعد وفاتها أغنى  
 لما رفعت إلى البلى « وَصَفَا »  
 رِيًّا الْعِظَامِ وَشَعْرَهَا الْوَحْفَا<sup>(١)</sup>  
 بين الرياض تناظر الخسفا<sup>(٢)</sup>  
 وتظلل ترعاه إذا أغنى  
 وقت الرضاع فينطوى ضمعا  
 يخطو فيضرب ظلفه الظلفا  
 نحوي نُحِيرُ محاجرا وطفا<sup>(٣)</sup>  
 ألف بصوت يره الإلفا  
 ما كنت قبلك حاملا وكفا<sup>(٤)</sup>  
 للريح تنسف ترابه نسفا  
 في زينة قلبا ولا شنف<sup>(٥)</sup>

(١) الوحف : الكثير الأسود .

(٢) الخسف : بفتح الحاء وكسرها : ولد الظبي أول ما يولد ، أو أول مشيه .

(٣) شعر أجفانها كثير : جمع وطفاء .

(٤) الوكف : الضعف ، والثقل ، والشدة .

(٥) القلب سوار المرأة . الشنف : ما يعلق في أعلى الأذن كالقرط .

أَسْكَنَهَا فِي قَمَرٍ مَظْلَمَةٍ      يَتَى يَصَافِحُ رَبُّهُ السَّقْفَا  
يَتَى إِذَا مَازَرَهُ أَحَدٌ      عَصَفَتْ بِهِ أَيْدِي الْبَلِي عَصْفَا  
لَا نَلْتَقِي أَبَدًا مَمَائِنَةً      حَتَّى نَقُومَ رَبَّنَا صَفَا  
لَبِستُ ثِيَابَ الْحَتْفِ جَارِيَةً      قَدْ كُنْتُ أَلْبَسُ دُونَهَا الْحَتْفَا  
فَكَأَنَّهَا وَالنَّفْسَ زَاهِقَةً      غَصَنَ مِنَ الرِّيحَانِ قَدْ جَفَا  
يَاقِبِرِ أَبِيقِ عَلِيٍّ مَحَاسِنَهَا      فَلَقَدْ حَوَيْتَ الْبِرَّ وَالظَّرْفَا

والمقدمة التي جاء بها ابن عبد ربه تثير العطف والإشفاق على تلك الجارية الضعيفة الحيلة ، مع سيدها الذي آثر الدنانير عليها . وقد استطاعت أن تهز مشاعره ، وتمطف قلبه ؛ فاستردها مشفقاً عليها ، واستبقاها متأثراً بعتابها الباكي الحزين . لكن الموت عدا عليها بعد أيام . ولا ندري إن كان ذلك من خشية الفراق ، أم من مرض قاتل .

وقد رثاها المولى ، فجعل رثاءه حديثاً إلى الموت ، مملوءاً بالحسرة الشديدة على حسنها الفاني ، وشبابها المحتضر . وعتاباً لهذا الموت الذي لم يرق للجهال الغض ، بل عصفت به ، فأسكنه جدتاً موحشاً ، وأسلمه إلى أيدي البلي تعبت به ماشاءت ، حتى تحيله تراباً . ويختم الرثاء بضراعة لا تجدى ، ونداء لا يفيد . إذ يقول :

يَاقِبِرِ أَبِيقِ عَلِيٍّ مَحَاسِنَهَا      فَلَقَدْ حَوَيْتَ الْبِرَّ وَالظَّرْفَا

وقد اختارها ابن عبد ربه مثلاً في رثاء الجوارى فأحسن الاختيار ؛ لما فيها من سهولة في التعبير ، وقدرة على إثارة الأشجان ، وحسن اختيار للمعاني التي دار حولها الرثاء .

وللمولى الطائي شعر يصف فيه محبة الآباء لأولادهم فيقول :

لَوْ لَا بُنَيَاتٌ كَرُغِبِ الْقَطَا      مُجِئِينَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ  
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ      فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْمَرَضِ

وإعسا أولادنا بَيْنَنَا أكبادنا تمشي على الأرض.  
إن هَبَّتْ الرِّيحُ على بعضهم أَشْفَقَتِ العَيْنُ من القَمَضِ (١)

وهو شعراثر ، يتردد صدهاء في الأجيال والأقطار ، وذلك لاتصاله بكل قلب ،  
ونعامة بكل نفس ، وإحساس الناس جميعاً بمعناه إحساساً عميقاً ، وفيه من السهولة  
والقوة ما ضمن له الخلود والذیوع .

### ٣ - الجل الشاعر : ( ١٧٠ - ٢٥٨ هـ )

وهو أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام ، الشاعر المصري المشهور ،  
المعروف بالجل .

تقدمت لهذا الشاعر أبيات في مدح القاضي محمد بن أبي الليث (٢) وذم أعدائه  
سنة ٢٢٧ هـ . وقال عنه ياقوت إنه كان « شاعراً مقلماً ، مدح الخلفاء والأمراء » .  
وإنه « قدم دمشق وافداً على أحمد بن المدبر ؛ وكان أحمد مقصد الشعراء ؛ فمن  
مدحه بشعر جيد أجزل صلته ، ومن مدحه بشعر رديء وجه به مع خادم له إلى  
الجامع ، فلا يفارقه حتى يصل إلى مائة زكوة ثم يصرفه ، فدخل عليه الجل  
وأنشده (٣) :

أردننا في أبي حسن مديحاً      كما بالمدح تُنتَجِعُ الوُلاةُ  
فقالوا أكرمُ الثَّقَلَيْنِ طراً      وَمنَ جَدْوَاهُ دَجَلَةُ والفِراتُ  
وقالوا يقبلُ الشُّعراءُ ، لكن      أَجَلُ صَلاتِ مادِحِهِ الصلاةُ

(١) نسبها ابن سعيد في المغرب ص ١٠١ إلى النعل الطائي ، وجاء ابن عبد ربه بالأبيات  
الثلاثة الأولى ونسبها إليه ، مع تغيير كلمة « جمن » إلى « خططن » ج ١ ص ٣٦٤ ،  
ولكن أياً تمام في الحاشية ج ١ ص ١٠٨ ينسبها إلى حطان بن العلي مع ثلاثة أبيات قبلها في  
الشكوى من الدهر .

(٢) ص ٢٠١ من هذا الكتاب . (٣) معجم الأدباء ج ١٠ ص ١٢١ .

فقلت لهم : وما يعني عيالي صلّاتي ؟ إنما الشأنُ الزكاةُ  
فيأمرُ لي بكسر الصادِ منها فتصبحُ لي الصَّلَاةُ هي الصَّلَاتُ  
وقد تجد في هذا الشعر تكلفاً وصنعة ثقيلة في تكرار الصلّات والصلاة ،  
وكسر الصاد لينال ما يتفنيه ، والتعبير عن ذلك بالزكاة . ولكنه في جملة شعر  
خفيف الروح لطرافة الموضوع ، وغرابة العقاب .

ويظهر من تاريخ الحسين بن عبد السلام أنه كان متكسباً بشعره مادحاً ،  
حراً تَحَلّياً أو مقياً . فقد مدح المأمون لما قدم إلى مصر ، ومدح الأمراء مثل  
عبد الله بن طاهر . فإذا حيل بينه وبين ممدوحه عتب أو هجا ، كمادة كثير  
من الشعراء .

روى ابن عبد ربه في العقد<sup>(١)</sup> « أن حسين بن الجمل بكر إلى باب سليمان بن  
وهب ، فحجبه الحاجب وأدخل ابن شَمَوَةَ وحمدويه ، فقال الجمل :

ولعمري لئن حَجَبْتَنَا عن الشيد      سخ فلاعن وجهه هناك وَجِيه  
لا ، ولا عن طمّامه التافه النز      ر الذي حوّلَه لِطَامُ بنيه  
بل حَجَبْتَنَا عن الخسف والمس      سخ وذاك التبريق والتّمويه  
فجزى الله حاجباً لك فَظّاً      كل خيرٍ عَنَّا ، إذا يَجْزِيهِ  
فلقد سرني دخولُ أخي شَم      وة دوني ، وبمّده حمدويه

وترى في هذا الهجاء لساناً حديداً ، وطمعاً في تلك الوجوه القبيحة ، واتهاماً  
بالبخل والشح وقلة الطمام . وترى فيه مغالطة الشعر عندما دعا للحاجب الفظ ،  
لأنه أحسن إليه فمنعه من لقاء تلك الوجوه .

(١) ج ١ ص ٤١ وقد اختصراً اسمه كما ترى

ولعله قد لقي من الرفض والحرم ما أثار نفسه ، فدعا إلى القناعة وقال :  
إذا أظمأنك أكف اللثام      كفتك القناعة شَبْعاً ورِيًّا  
فكن رجلاً رجُلُه في الثرى      وهامة هَمَّتِه في الثريا  
أيًّا لنائل ذي ثروة      تراه بما في يديه أيًّا  
فإن إراقة ماء الحيا      ة دون إراقة ماء الحيا

وربما كان شعره هذا أثرًا من آثار ضيق النفس بذل السؤال ، ورجوعها إلى  
رشدتها وتذكرها للمثل العليا ، والأخلاق الكريمة . وهو شعر غريب ممن كان  
على مثل صفاته ؛ إذ يقول عنه ابن يونس في تاريخ مصر<sup>(١)</sup> إنه كان « شرها في  
الطعام ، دنى النفس ، وسخ الثوب » وتلمح آثار الشره في قصيدته السابقة لما  
حجب عن طعام سليمان بن وهب .

وفي شعر الجمل هذا ما في شعر زمانه من عناية بالبديع ومحسناته ، وفي بعضها  
تكلف وثقل كما في شعره لابن المدبر ، وانظر إلى الأبيات الثلاثة الأخيرة تجدها  
ممتلئة بالجناس والمقابلة والاستعارة .

### (ب) الشعراء الزائرون :

لم تخل مصر من شعراء قدموا إليها مادحين ، يرجون خيراً من ولائها ،  
وشيثاً من ثمراتها ، « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم  
يسخطون » ولكن هذه الوفادة لم تصل إلى ما كان في عهد عبد العزيز بن مروان .

### ١ — من مدحوا يزيد بن حاتم

من الولاة الذين وفد عليهم الشعراء بمصر الوالي يزيد بن حاتم المهلبى ( من  
سنة ١٤٤ — ١٥١ ) .

وكان ربيعة الرقي ( الشاعر العراقي ) قد قدم مصر فأتى يزيد بن حاتم السلمي .

(١) قلا عن معجم الأدباء ج ١٠ ص ١٢٢

فلم يعطه شيئاً ، ثم عطف على يزيد بن حاتم الأزدي فشغل عنه ببعض الأمر ،  
فخرج وهو يقول (١) :

أَرَانِي ، وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ ، رَاجِمَا      بِخُفَىٰ مُحَنِّينِ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمِ

فسأل عنه : فأخبر أنه قد خرج وقال كذا - وأنشد البيت - فأرسل في

طلبه ، فأتى به ، فقال : كيف قلت ؟ فأنشده البيت . فقال : شغلنا عنك !

ثم أمر بخفيه فخلعتا من رجله وملئتا مالا . وقال : ارجع بهما بدلا من خفي حنين .

ولما عزل عن مصر ، ووليها يزيد بن حاتم السلمي قال ربعة :

بكى أهل مصرٍ بالدموع السَّوَاجِمِ      غَدَاةً غَدَا مِنْهَا الْأَعْرُثُ ابْنُ حَاتِمِ

وفيها يقول :

أَسْتَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى      يَزِيدِ سَلِيمِ وَالْأَعْرُثِ بْنِ حَاتِمِ

فَهَمُّ الْفَتَى الْأَزْدِيِّ إِتْلَافُ مَا لِهِ      وَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ

فَلَا يَحْسَبُ التَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ      وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه . فلما بلغ مصر وجده قد مات ،

فقال فيه :

لئن مصرُ قَاتَتْنِي بما كُنتُ أُرْتَجِي      وَأَخْلَفَتْنِي مِنْهَا الَّذِي كُنتُ أَمَلُ

فَأَكَلْتُ مَا يَخْشَى الْفَتَى بِمُصِيبَةٍ      وَلَا كُلُّ مَا يَرْجُو الْفَتَى هُوَ نَائِلُ

وَمَا كَانَ بَيْنِي لَوْ لَقَيْتُكَ سَالِمًا      وَبَيْنَ الْفَتَى إِلَّا لِيَالٍ قَلَائِلُ

وقصده محمد بن عبد الله بن مسلم - ابن المولى - ومدحه بقصيدة جميلة أولها :

وَإِذَا تَبَاعَ كَرِيمَةٌ أَوْ تَشْتَرَى      فَسَوَاكُ بِأَمْعَاهَا وَأَنْتَ الْمُشْتَرَى (٢)

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢ .

وزيد بن حاتم معدود من أجواد العرب الذين سارت بجودهم الركبان ، ويفهم من مقدمة هذه الأبيات الأخيرة أنه أقام بمصر بعد عزله وظل بها حتى مات .

## ٢ — أبو نواس بمصر :

ويحدثنا التاريخ الأدبي أن والياً بمصر اسمه الخصيب بن عبد الحميد<sup>(١)</sup> كان مقصد شاعر من كبار شعراء بغداد ، هو الحسن بن هانيء الملقب بأبي نواس . وقد سكت التاريخ السياسي فلم يتحدث عن الخصيب هذا ، لكن تاريخ الأدب خلد اسمه في قصائد أبي نواس التي قالها مدحا وهجاء في وفادته عليه .

روى أنه لما قدم أبو نواس على الخصيب بمصر ، صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح لهم . فلما فرغوا استنشد الخصيب فقال : ألا تنشدنا يا أبا علي . فقال أبو نواس : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يافكون ، فأنشده قصيدته الرائية التي أولها :

أجارة بيتينا أبوك غيورٌ وميسورٌ ما يرهبني لديك عسيرٌ  
حتى أتى علي آخرها ، فانفض الشعراء من حوله ، واهتز لها الأمير ، وأمر له بجائزة سنية .

ويقال إنه كان قد خرج إلى مصر في زى الشطار وتقطيعهم ، بطرّة قد صففها ، وكّمين واسمين ، وذبل مجرور ، ونعل مطبق . وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على الخصيب بهذه الصورة ازدراه واستخف به ، وكان تورّد عليه كتب الجلّة ممن يباب السلطان ، ووردت كتب أبي نواس فيها ، فقرأها ولم يستنشده ، فانصرف مهموماً ، وجاءه أهل الأدب ، فاستمعوا

---

(١) الخصيب بن عبد الحميد أمير مضر على الحجاج حوالي سنة ١٩٠ وإليه تنسب منية الخصيب .

شعره ، وكتبوه وأنشدوه للخصيب ، فاستحضره فأنشده (١) :

أجارة بيتينا أبوك غيورُ  
فإن كنت لاخلما<sup>(١)</sup> ولا أنت زوجة  
وجاورتِ قوما لا تراورَ بينهم  
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب  
وإني لطرف العين بالعين زاجر  
كما نظرت ، والريح سا كفة ، لها  
طوت ليلتين القوت عن ذي ضرورةٍ  
فأوفت علي علياء حين بدا لها  
تقلب طرْفاني حجّاجي مغارة  
ولما قال أبو نواس :

عزير علينا أن نراك تسيرُ  
تقول التي من بيتها خف مركبي  
بلى إن أسباب الغنى لكثير  
أما دون مصر للغني متطلبُ  
جرت فجري في جريهن عبير  
فقلت لها واستعجلتها بواذر  
إلى بلد فيه الخصيب أمير  
ذريتي أكثر حاسديك برحلة  
قال له الخصيب : إذا يكثر حسادها ، وتبلغ أملها ، وأمر له بألف دينار .  
ويقول فيها :

فأى فتى بعد الخصيب تزورُ  
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا

(١) عصر المأمون ج ٣ ص ٢٣٤ .

(٢) الحلم : الصديق .

(٣) ندور : نتوء العظم من موضعه .

(٤) شكير : الريش أول ما ينبت .

(٥) الضريب : الثلج أو الجليد .

(٦) الحجاج : العظم ينبت عليه شعر الحاجب . ذرور : ما ينذر في العين من الدواء .

فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونهُ  
فتى يشتري حسنَ الثناءِ بمالهِ  
ولم تر عيني سُوددًا مثلَ سُوددهِ  
وأطرقَ حياتُ البلادِ لِحيَّتهِ  
سموت لأهلِ الجورِ في حالِ أمنِهِمْ  
إذا قامَ غنَّتهُ على الساقِ حليَّتهِ  
فمن يك أمسى جاهلاً بمقالتي  
فما زلتَ توليه النَّصيحةَ يافعا  
إذا غاله أمرٌ فإمَّا ككفيتهُ

ولكن يصيرُ الجودُ حيث يصيرُ  
ويعلمُ أن الدائراتِ تدورُ  
يحل أبو نصرٍ بهِ وَيَسِيرُ  
خصيبيَّةَ التصميمِ حينَ تُسورُ<sup>(١)</sup>  
فأضحوا وكلُّ في الوثاقِ أسيرُ  
لها خطؤه عند القيامِ قصيرُ  
فإن أميرَ المؤمنين خبيرُ  
إلى أن بدافى العارضين قتيرُ<sup>(٢)</sup>  
وإما عليه بالكفاءِ تشيرُ

ويصف منازلَه بالطريقِ حتى يصل إلى القسطنطين ، ثم يقول :

زها بالخصيبِ السيفِ والرمحِ في الوغى  
جوادٌ إذا الأيدي كففن عن الندى  
له سَلَفٌ في الأعجمين كأنهم  
وإني جديرٌ إذ بلغتك بالمنى  
فإن تولني منك الجميل فأهله

وفي السلم يزهو منبر وسرير  
ومن دون عوراتِ النساءِ غيور  
إذا استؤذنوا يوم السلامِ بدور  
وأنت بما أملت منك جدير  
وإلا فإني عاذر وشكور

وقلدها كثير من الشعراء ، وسارت يذكرها الأحاديث في الأدب العربي ،  
وعدت من عيونهِ إلى الآن .

ولا تخلو وفادة أبي نواس على الخصيب من أخبار ؛ بعضها بعيد عن التصديق  
كالقصة التي سبقت هذه القصيدة ، وهناك رواية<sup>(٣)</sup> عن لقاء أبي نواس للخصيب  
في الشام بعد عزله ، وأن أبا نواس لم يعرف صاحبه ، فعرفه بنفسه ، فنزل عن دابته

(١) تسور : تشب .

(٢) قتير : شيب .

(٣) معاهد التنصيص ج ٢ ص ٢٢٢ .

وقبل يده ورجله ، وسأله عن تغير حاله ، ودفع إليه ما كان معه من ثياب وراحلة ونفقة ، فأقسم الخصيب ألا يأخذ شيئاً .

وكان أبو نواس يمتاز بشعره ، ويعرف مبلغ سحره . فقد روى أنه كان مع الخصيب يوماً في مجلس شراب . وماج الناس بسبب الأسمار ، وتظاهروا ، فقال أبو نواس : دعني أيها الأمير أسكنهم . فقال : ذلك إليك . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد المنبر وعليه ثياب مشهّرات ، فقال (١) :

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي      ألا فخذوا من ناصح بنصيب  
ولا تتبؤا وثب السّفاه فتركبوا      على حدّ حامي الظهر غير رُكوب  
فإن يك باقٍ إفاكُ فرعونَ فيكم      فإن عصا موسى بكفّ خصيب  
« وماكم أمير المؤمنين بحيةٍ      أكلوا لحيات البلاد شرُوب »

قال : فتفرق الناس ولم يجتمعوا بعده ، وصدق ظن أبي نواس في شعره .

وحكى عن إسماعيل بن أسباط (٢) قال : لما قال أبو نواس :

« منحتكم يا أهل مصر نصيحتي »

رأى الخصيب في المنام قائلاً يقول : يا خصيب ، ما فوق هذا المدح مدح . قال : فما جزاؤه ؟ فأخبره أنه يستحق ألفاً . فلما أصبح الخصيب صبح أبا نواس بألف دينار . فقال أبو نواس قصيدة أخرى في مدحه بدأها بمقدمة تقليدية فيها حديث عن السكر ، وعن الناقة التي حملته إليه (٣) ، ثم قال (٤) :

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ      فتدققاً فكلّا كما بَحْرُ

(١) الديوان ص ٧٨ .

(٢) معاهد التنصيص ج ٢ ص ٢٢٣ . (٤) الديوان ص ١٦٩ .

لا تصعدا بي عن مَدَى أَمَلٍ شَيْئاً ، فَالْكَأِ بِهٖ عُدْرُ  
ويحق لي إذ صرْتُ بَيْنَكَا أَلَا يَحِلُّ بِسَاحَتِي فَفَقْرُ  
النَّيْلِ يُنْعِشُ مَأْوَهُ مِصْرَا وَنَدَاكَ يُنْعِشُ أَهْلَهُ النَّعْمُ

ومدحه بقصيدة أخرى نونية تذكر فيها الكرخ وهو بمصر ، وذكر ما فيها  
من حانات وقصور كان يفد عليها للخمر ، أو للنائل النعم ، ثم يخاطب  
ابنته فيقول :

يَا ابْنَتِي أَبْشِرِي بِمِيزَةِ مِصْرٍ وَتَمَنِّيْ وَأَسْرِفِي فِي الْأَمَانِي  
أَنَا فِي ذِمَّةِ الْخَصِيبِ مُقِيمٌ حَيْثُ لَا تَمْتَدِّي صُرُوفُ الزَّمَانِ  
قَدْ عَلِقْنَا مِنَ الْخَصِيبِ خَبَالًا أَمْتَنَّا طَوَارِقَ الْحَدَثَانِ (١)

وغير ذلك من الأبيات .

وهجا الخصيب حين سخط عليه ، هجاء يكذبه مدحه فيه ؛ يقول :

خُسْرُ الْخَصِيبِ مَعْلَقٌ بِالْكَوْكَبِ يُجْتَمِعِي بِكُلِّ مُثَقِّفٍ وَمُشَطِّبِ (٢)

وقال فيه أيضا :

نَفْسُ الْخَصِيبِ جَمِيعُهُ كِذْبٌ وَحَدِيثُهُ لَجْلِيسِهِ كَرْبٌ  
تَبْكِي الثِّيَابَ عَلَيْهِ مُعْمُولَةٌ أَنْ قَدْ يَجْرُ ذِيوَاهَا كَلْبٌ (٣)

أما هجاؤه لهاشم بن حديج فقد تجاوزه إلى أجداده وبعض مواقفهم التاريخية ،  
ومنها ما فعله جده بمحمد بن أبي بكر إذ يقول له (٤) :

(١) الديوان ص ٢٩٣ .

(٢ ، ٣) الديوان ص ٨٢ ، والثقف : الريح . والشطيب : السيف .

(٤) الديوان ص ١٣٤ .

ياهاشم بن حُدَيْجٍ لَيْسَ نَحْرُكُمْ      بَقِيتُ صِهْرَ رَسُولِ اللَّهِ بِالسَّدَدِ  
أَدْرَجْتُمْ فِي إِهَابِ الْعَيْرِ جُنَّتُهُ      فَبَيْتُ مَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيكُمْ لِغَدِ  
إِنْ تَقْتُلُوا ابْنَ أَبِي بَكْرٍ فَقَدْ قَتَلْتُمْ      حُجْرًا بَدَارَةَ مَلْحُوبِ بَنُو أَسَدِ

وحُجْرُ المِشَارِ إليه هو والد امرئ القيس ، الذي قصر في الأخذ بثأره  
تقصيراً معيباً عند أبي نواس فقال فيه :

أَلْهَى امْرَأَ الْقَيْسِ تَشْيِيبٌ بَغَانِيَةٌ

عَنْ ثَأْرِهِ ، وَصِفَاتُ النَّوَى وَالْوَدِ

وهجوا أهل مصر جميعاً أو عاتبهم عتاباً قاسياً ، ولم يرض إلا عن أحمد بن  
حوى العذري الذي كان والياً على الشرطة سنة ١٨٩ هـ . فقال (١) :

دَمُ الْكَارِمِ بِالْفُسْطَاطِ مَسْفُوحٌ      وَالْجُودُ قَدْ ضَاعَ فِيهَا وَهُوَ مَسْطَرُوحٌ  
يَا أَهْلَ مِصْرَ لَقَدْ غَبْتُمْ بِأَجْمَعِكُمْ      لَمَّا حَوَى قَصَبَ السَّبْقِ الْمَسَامِيحُ  
أَمْوَالِكُمْ حَجَّةً وَالْبُخْلَ عَارِضَهَا      وَالنَّيْلُ ، مَعَ جُودِهِ ، فِيهِ التَّمَسِيحُ  
لَوْلَا نَدَى ابْنِ حَوْيٍّ أَحْمَدٌ نَطَقْتُ      مَنِ الْمَفَاصِلُ فِيكُمْ وَالْجَوَارِيحُ

وتجد في شعر أبي نواس بمصر كثيراً من خصائصه ، وشيئاً من أثر البلاد  
والرحلة والمدوح في شعره .

فأثر البلاد ظاهر في إشارات أبي نواس إلى تاريخها ، وبخاصة فرعون وموسى  
والعصا والحية والنيل والتماشيح . وما سمعنا بمثله هذا في غير شعره المصري .  
كما كان للتاريخ الإسلامي أثر في شعره عندما هجأ آل حديج بقتلهم لصهر رسول  
الله . وقد تردد اسم الحصيبي وهاشم بن حديج ومصر في شعره كثيراً .

### ٣ — أبو تمام :

وهو الشاعر الذي اختلف فيه ؛ ونسب إلى مصر . والمشهور أنه ولد في قرية « جاسم <sup>(١)</sup> » بالشام (سنة ١٩٠ هـ) وأنه عربي طائي ، ولكن قل أن سلم شيء من ذلك ولم يختلف فيه ، حتى دين أبيه . وهو خلاف لا يؤثر كثيراً في شاعرية أبي تمام ، والذين نسبوه إلى مصر لا يستطيعون أن يجدوا في شعره من أثر البلاد وتاريخها مثل ما وجدوا لأبي نواس .

قيل إنه جاء إلى مصر صغيراً وتربى بها ، وتعلم الأدب وحفظ الأخبار وروى الأشعار ، وأنشد شعره بجامع عمرو ، ومدح وهجا . ثم خرج من مصر ساخطاً ومدح وهجا قوما آخرين في بغداد وغيرها .

وفي ديوانه من أشعاره بمصر شيء كثير ، بعضها في مدح عيَّاش بن لهيعة يقول فيها <sup>(٢)</sup> :

رأيتُ لعيَّاشٍ خلائقَ لم تكن      لتكْمَلْ إلا في اللُّبابِ المهذبِ  
له كرمٌ لو كان في الماء لم يَنْفِضْ      وفي البرقِ ماشامَ امرؤُ بَرَقَ خُبابِ

إلى أن يقول :

وأنتِ بمصرٍ غايي وقرايتي      وببَنو أبيك فيها بنو أبي  
ولاغروا إن وَطَّأتَ أكنافَ مرتبي      لهملِ إخفاضي ، ورفَّهتَ مشربي  
فقومت لي ما عوجَّ من قصد همتي

وبَيَّضت لي ما اسودَّ من وجهِ مطلبي  
كما مدح المعتصم — أو المأمون — بقوله <sup>(٣)</sup> :

(١) على بعد ثمانية فراسخ من دمشق . (٢) الديوان ص ٢٤ .

(٣) ص ١١٢ .

فانتاش مصر من اللتيا والتي بتجاوزز وتعتطف وتتمد  
وقد أشار إلى تنقله في البلاد ومنها مصر فقال (١) :

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقتين وبالفسطاط إخواني  
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافيه بي أقصى خراسان  
خلفت بالأفق الغربي لي سكنا قد كان عيشي به حلواً بحلوان

وسبق له أبيات في انتصار عبد الله بن طاهر على ابن السرى (٢) . وفي رثاء  
عمير بن الوليد والى مصر سنة ٢١٤ (٣) .

وعاتب عياش بن طبيعة (٤) لأنه لم يكافئه على مدائحه ، ولم يحسن إليه بما أحسن  
فيه من أشعار .

وضاق رزقه بمصر ، فدعا لدمشق أن يجودها الحيا لجود أهلها ، وفدى بنفسه  
أرض الشام ، التي عدته عنها غربة النوى مكرها خمسة أعوام ، فقال (٥) :

أخسة أعوام مَضَتْ لغيره ؟

وشهران ، بل يومان ، تُكَلُّ من الثكلِ  
تواني وشيك النجج عنه ، ووُكَلَّتْ به عزماتٌ أوقفتُه على رجلِ

لقد طلّمت في وجه مصر بوجهه - بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهلٍ -  
وساوسُ آمالٍ ومذهبُ همةٍ - غيمةٍ بين المطية والرحلِ -

(١) الديوان ص ٣٢٣ .

(٢) الكندي ص ١٨٠ ، ١٨٣ .

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(٤) الديوان ص ٤٢١ .

(٥) الديوان ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .

نأيتُ ، فلا مالاً حويتُ ، ولم أقم فامتّع ، إذ جُفِعتُ بالمال والأهل  
وفي أبيات أبي تمام هذه من الثورة النفسية والألم المرير ما ليس في حاجة إلى  
التعليق . وكان ينتظر من عياش بن طيعة شيئاً كثيراً فلم يحقق أمله ، فهجاه في  
كثير من القصائد حياً وميتاً . ومن هجائه فيه ميتاً قوله <sup>(١)</sup> :

يا من أعرَضَ اللهُ عن العالم من بُغِضِهِ  
ويا من بعضه يشهد بد بالبغض على بعضه  
ويا أثقلَ خلق الله من ماشٍ على أرضه  
ومن عاف عليك الموت واستقدرَ من قبضه

وترى لهذا البيت الأخير صدى في قصيدة أبي الطيب المتنبي ، التي قالها في  
هجاء كافور وقومه وهو هارب من مصر ، إذ يقول :

ما يقبض الموتُ نفساً من نفوسِهِم إلا وفي يده ، من تنهها ، عود  
وهجا أبو تمام شاعراً من شعراء مصر اسمه يوسف السراج . واستكثر  
عليه أن يكون أديباً وهو سراج ، فقال له <sup>(٢)</sup> :

أيوسفُ جئتَ بالمعجبِ المعجيبِ تركتَ الناسَ في أمرٍ مُريبِ  
سمعتُ بكل داهية نَادٍ ولم أسمعَ بسراجِ أديبِ  
أما لو أن جهلكَ كانَ علماً إذاً لنفدتَ في علم الغُيوبِ  
فإلكَ بالفريبِ يدٌ ، ولكن تعاطيكَ الفريبَ من الفريبِ  
فلو نيشَ المقابرُ عن زُهَيْرِ لصرحَ بالمويلِ وبالنجيبِ  
متى كانت قوافيه عيالاً على تفسيرِ بقراطِ الطبيبِ

فكيف ولم يزل للشمر ماءً      يرفُّ عليه ريحانُ القلوبِ  
أرى ظلميكَ إنصافاً وعدلاً      وذنبى فيك تكفيرَ الذنوبِ

وقد كان هذا النقد ، الذي وجهه أبو تمام إلى يوسف السراج في شعره ، سهما صوبه عبد العزيز الجرجاني في الوساطة إلى أبي تمام نفسه ؛ فإنه أورد الأبيات الثلاثة التي قبل الأخير ، وعلق عليها بأن أبا تمام نفسه لم يتبع ذلك في شعره ؛ فاحتاج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطوليس (١) .

وهجا عيسى بن يزيد الجلودى لما انهزم في موقعة « النوية » أمام أهل الحوف سنة ٢١٤ . وقد تقدم بمض هذا الهجاء ، وهجا المطلب الخزاعي وكان مدحه (٢) .

وكذلك كانت حياته في مصر مدحا وهجاء كما كانت حياة أبي نواس . وكنت أود أن أنسب أبا تمام لمصر معتمداً على ما قيل من نشأته بها ، لولا أن هذه النشأة لم تترك أثراً كبيراً في شعر أبي تمام ، فيما عدا الموضوعات والأشخاص الذين هجأهم ومدحهم . والأثر الذي تركته فيه هذه الحياة بمصر أقل مما تركته في أبي نواس ، الذي جاء في زيارة قصيرة ثم رحل .

### ٣ — دعبل بن علي الخزاعي :

وهناك شاعر آخر له بمصر مدح وهجاء ، وهو دعبل بن علي الخزاعي المتوفى سنة ٢٤٦ هـ . وكان دعبل هجاء خبيث اللسان ؛ جاء إلى مصر طامعاً في نوال رجل من أقربائه ، وهو المطلب بن عبد الله الذي ولي مصر مرتين إحداهما سنة ١٩٨ والثانية سنة ١٩٩ هـ .

(٢) الديوان ص ٤٩١

(١) الوساطة ص ٢٣

أما وفاة دعبل عليه فقد انتهت روايتها في الأغاني<sup>(١)</sup> إلى دعبل نفسه . فقد روى أنه رجع من الحج ، إلى مصر ، فلقى بالطريق رجلا يقال له أحمد السراج ، وكان مع دعبل أخوه رزين ، وبدالهما من حسن أدب السراج ما عطف قلبهما عليه ، فتبرعا له بقصيدة من شعرها ينشدها ، ويأخذ عليها جائزة من المطلب الخزاعي . فلما وصلوا مصر ودخلوا على المطلب خيب السراج ظنهما — وكان أسبق دخولا عليه — فأنشده من شعره مدحا قال فيه :

إني استَجَرْتُ بِأَسْتَارَيْنِ مَسْتَهَامًا      ركنين ، مُطَلِّبًا وَالْبَيْتَ ذَا الْحُجْبِ  
فذاك لِلْأَجْلِ الْمَأْمُولِ أَلِمْسُهُ      وأنتَ لِلْمَاجِلِ الْمَرْجُوِّ وَالطَّلَبِ  
هذا ثنائى ، وهذى مصر سائحةً      وأنتَ أنتَ ، وقد ناديتُ من كَثَبِ

فصاح مطلب : لبيك لبيك . ثم قام إليه فأخذ بيده وأجلسه معه . وقال : يا غلمان ، اليمدّر . فأحضرّت . ثم قال : الخلع . فنشرت . ثم قال : الدواب . فأمر له من ذلك بما ملأ عينيه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه . وكان حسدنا له بما اتفق له من القبول وجودة الشعر ؛ وغيبنا بكتمه إيانا نفسه ، واحتيااله علينا أكثر وأعظم . نخرج بما أمر له به وخرجنا صفرا . وغاز ذلك دعبلا ؛ فهجا المطلب .

وقيل إن سبب غضب دعبل عليه من أول يوم أنه كان جاء إلى مصر أيام ثورة رجل من العلويين ، وكان المطلب قد وكل بالأبواب من يمنع الغرباء دخولها ، فممنع دعبل ، فأغلظ لمن منعه ، فتمنعه بالسوط وحبسه . فمضى أخوه رزين فأخبر المطلب ، فأمر بإطلاقه ؛ ودعا به فخلع عليه . فقال له : لا أرضى أو تقتل الموكل بالباب . فقال له : هذا لا يمكن لأنه قائد من قواد السلطان فغضب وهجا .

(١) ج ١٨ ص ٤٧ ، ٤٨ .

ثم ولاء المطلب أسوان ، ولما بلغه هجاؤه عزله . ومن هذا الهجاء قوله :  
تَلِصِقُ مِصْرُ بَكَ المِخْرِيَاتِ وَتَبْصُقُ فِي وَجْهِكَ المَوْصِلُ  
وَعَادَيْتَ قَوْمًا فَمَا ضَرَّهمْ وَشَرَّفْتَ قَوْمًا فَلَمْ يَنْبُكُوا  
شِعَارُكَ عِنْدَ الحُرُوبِ النِّجَا وَصَاحِبُكَ الأَخَوَرُ الأَفْشَلُ  
فَأَنْتَ إِذَا مَا التَّقَوَّا آخِرُ وَأَنْتَ إِذَا أَنهَزَمُوا أَوْلُ

وقال مجرد قبيلته من شهرتها القديمة في الكرم ، بسبب لؤمهم الحديث الذي  
أكسبهم مطلب إياه وكأنه يقول : تمارضا فتساقطا . وذلك إذ يقول :

اضرب ندى طلحة الطلحات مُتَّئِدًا

بلؤم مطلب فيتنا وكن حكما  
تخرجُ خِزَاعَةً مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ فَلَا تَعُدُّ لَهَا لُؤْمًا وَلَا كَرَمًا  
ولما عزله عن أسوان بسبب هذا الهجاء ، أنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له  
وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه ،  
وامنعه من الخطبة ، وأزله عن المنبر واصعد مكانه .

فلما أن علا المنبر وتجنح ليخطب ، ناوله الكتاب ، فقال له دعبل : دعني  
أخطب فإذا نزلت قرأته . قال : لا ، قد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه .  
فقرأه . ونزله عن المنبر معزولا .

أما مدحه في المطلب فقد روى الأغاني منه بيتين لفظهما قليل ، ومعناها كثير  
إذ مدحه بالجود ، ولام من يقصدون غيره ، وعجب منهم ، وقدم أسرته عند الفخر  
بالكثرة ، وقدمه يوم التفاخر بالواحد ، وذلك إذ يقول :

أَبْعَدَ مِصْرٍ وَبَعْدَ مُطَلِبٍ تَرْجُو الغِنَى ؟ إِنْ ذَا مِنْ العَجَبِ !

إن كانوا جئنا بأسرته وإن وآحدونا ، جئنا بطلب  
ولا نسي آيات دعبل التي شيع بها المطلب ساخرًا متهاكم<sup>(١)</sup> . عند ارتحاله  
من مصر إلى الحجاز .

هذا هو الشعر العربي في مصر زمن العباسيين ، وهؤلاء هم رجاله . والمصري  
منه شعر حفظته بعض كتب التاريخ والقضاء ، ونذر وجود شيء منه في كتب  
الأدب كما سبق . وأكثره مقطعات ومختارات تساق استشهاده فيحذف منها كثير ،  
ويستغنى عن أوائلها وأواخرها غالباً ، وقد لا تكون مرتبة كترتيبها في الأصل .  
وتحس من قراءة ما اختاره الكندي أن الشاعر ينتقل انتقالاً مفاجئاً ، وأن المعاني غير  
مسلسلة . ودليلنا على أن هذا الاختيار لا يتفق مع الأصل دائماً تلك الآيات التي  
جاء بها لأبي تمام في هجاء الجلودى ، فقد روى منها ستة آيات بدأت من العاشر  
ووراءه البيت العشرون . وتلك القصيدة الدالية في رثاء عمير بن الوليد فإنها أربعون  
بيتاً في الديوان لم يذكر منها إلا أربعة آيات غير متتامة .

وليس من العدل أن نطالب مؤرخاً برواية القصائد كاملة ، فليس ذلك من  
عمله ، ولكن الاقتصار على كتب التاريخ وحدها ، مع فوائدتها التي لا توجد في  
غيرها ، لا يصور الأدب في نواحيه المتعددة .

ولا بد أن يكون التعليق عليه محدوداً . فطالع قصائده غير معروفة ، والحكم  
عليها لا يعتمد على أساس من الشواهد ، والانتقال من هذه المطالع إلى الأغراض  
الأصلية غير معروف . وإن غلب على الظن أنه كان مع التمهيد وحسن الربط ،  
لا مفاجئاً كما كان في العصر الجاهلي مثلاً . وروى فيه حسن التخلص من المقدمة إلى  
الغرض .

وارتباط الآيات ، وحسن تأليف العبارات ، وحسن المعاني ولطفها ،

(١) ص ١٦٩ من هذا الكتاب ، الكندي ص ١٦٩ .

ويختلف الحال عن ذلك كثيراً في الشعر العباسي . فإنه كان دواوين كاملة ،  
فستجرت الفرص لدراسته دراسة واقية ، وعرفنا منه صلته بالشعر القديم ، ومدى  
بعده عنه واقترابه منه ، وخصائصه وبواعثه ومميزاته ، والعوامل التي وجهته إلى  
الحضارة ووصفها ، أو المدح والمبالغة فيه ، أو الفلسفة والعناية بها ألفاظاً ومعاني ،  
أو السياسة واشتراكها فيها ، أو البديع وغلبته عليه ، وغير ذلك .

وكان شعر الواقفين على مصر شعر مدح وهجاء . يمتاز بحسن البيان ، والبعد  
عن التكلف ، والبراعة في أداء المعاني المتشابهة بعبارات قوية جميلة . أما هذه المعاني  
فكان أكثرها مما شاع في المدح والهجاء . وقليل منها كان من وحي البلاد ،  
كهجاء أبي نواس لأهل مصر ؛ أو من وحي المهجو نفسه ، كقصيدة أبي تمام  
في يوسف السراج .

# الفصل العاشر

## شعر الطولونيين

كان للأدب العربي رعاة من الملوك والأمراء ، يعطفون على شعرائه وكتابه في زمن الأمويين والعباسيين ، وكان هؤلاء جميعاً أدباء ، يتذوقون الأدب الرفيع ، ويمجّبون بالأخبار الطريفة ، والروايات المستملحة ؛ إعجاباً بالأدب لذاته ، أو لماله من آثار سياسية أو خلقية أو حماسية .

وكان من هؤلاء في مصر عبد العزيز بن مروان ؛ الذي ازدهر الشعر في أيامه ازدهاراً عظيماً ؛ إذ مكّنه طول عهده في البلاد أن يرعى الأدب ويكون مقصداً للأدباء . وقد حدث هذا بمصر نادراً ، لا لقلة الولاة الأدباء الذين كانوا يعطفون على الأدب ورجاله . ولكن أقصر عهودهم ، وعدم استقرار البلاد . وظل كذلك حتى استقرت الأمور لبني طولون ، ثم للاخشيديين فتأثر الشعر بذلك كثيراً .

١ - في عهد دولتهم ( ٢٥٤ - ٢٩٢ )

وكان من المنظور أن يرقى ابن طولون بالشعر ، وأن يعرف قدره الأدبي والسياسي ؛ كما عرف فضل الكتابة في خدمة دولته . وكنا نظن خيراً بالشعر في عهده وهو الأديب الذي يقدر الفصاحة قدرها ، ويستخدم كتاباً مجيدين في دولته . ولكن الظاهر من تاريخه أنه لم يكن يرعى الشعر ولا يهتم به . ويؤكد هذا ما روى عنه من إهمال للبحثري ، حتى هجاه بعد مدحه .

وكان خمارويه يود أن تنافس القطائع حاضرتها ، بغداد حاضرة الخلافة ؛ وكان

زواج ابنته قطر الندى ، عاملاً يثير الشعر والخيال ، وكاد ما بلغه هذا الزواج من أهبة وإسراف في مظاهر الترف يفوق المروى في ألف ليلة ولكن أين الشعر الذي قيل فيه ؟ ثم تنازع أصراء بنى طولون بعده حتى ذهبت ريجهم سنة ٢٩٢ هـ .

والشعر الباقى من هذه الدولة كلها قليل محدود الأغراض لا يتجاوز المدح والهجاء ، وقليلاً من الأبيات في بعض الحوادث ؛ لأن النزاع بين الطولونيين والعباسيين خلق عداوة بين القطرين ، فلم يكن من السهل أن يفد على الطولونيين شعراء الحاضرة وهم يومئذ أشهر الشعراء ، وما كانت الدولة هادئة مطمئنة تستطيع أن ترمي الأدب ، ومجتذب الشعراء وذلك للخلافات الداخلية بين الطولونيين بعد خمارويه .

ولكنه لم يعد شعراء يمدحون أو يهجون أو يصفون ، بل إن المقرئى<sup>(١)</sup> نقل عن القاضي أبى عمرو عثمان النابلسى في كتاب « حسن السيرة » في اتخاذ الحصن بالجزيرة « أنه قال : رأيت كتاباً قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون ، وقال : فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، كم يكون شعرهم ؟ مع أنه لم يوجد من ذلك الآن ديوان واحد ! وفى هذا الخبر ما فيه من المبالغة فإن الباقى من شعر الميدان قليل وكاه فى رثائه . أو وصفه أو الاعتبار به وبمن أنشئوه .

وبقى عندنا شعر متصل بالسياسة والحوادث الجارية ظهر فى مناسبات أكثرها متصل بالتاريخ . ومن غريب الصدق أن يكون أقدم ما بقى منه هجاء ، فقد أمر أحمد بن طولون ببنيان المسجد على جبل يشكر فى صفر سنة ٢٥٩ ، وأمر أيضاً ببنيان المارستان للعرضى .

فقال محمد بن داوود يهجوهم ويستثير الناس عليه<sup>(٢)</sup> :

ألا أيها الأغفال إيهياً تأملوا      وهل يوقف الأذهان غير التأمل

(٢) السكندى ص ٢١٦

(١) الخطط ج ١ ص ٢٢٧

الم تعلموا أن ابن طولون نعمةٌ      تُسِيرُ مِنْ سُفُلِ الْبَيْمِ وَمِنْ عَلِيٍّ  
ولولا جنایات الذنوب لما علت      عليكم يد العليح السخيف المجهول

فيا ليت ما رستناه نيط بإسئته      وما فيه من عليح عُتِلَ مَقَلَلِ  
فكم ضجة للناس من خلف ستره      تضح إلى قلبٍ عن الله مُغْفَلِ

قضى في شعره توجيهاً للناس إلى الواجبات ، ودعوة لهم إلى الثورة عليه ، وذلك إذ جمعه نعمة شاملة ، وجعل هذه النعمة بما كسبت أيديهم ، وأخذ من إصلاحه ومنشأته النافعة سخيرية وموضع هجاء ، فدمه ودم القاتلين على مستشفاه ، وأسف في هجائه .

وكان أبو أحمد الموفق يكره ابن طولون ، فتقدم إلى موسى بن بغا في صرفه عن مصر ، فسار حتى نزل الرقة . وبلغ ابن طولون أنه سائر إليه ، وأنه يجد في محاربه ، فابتدأ ببناء حصن الجزيرة سنة ٢٦٣ مقللاً له وحرمة . وبني كثيراً من المراكب الحربية وأطاقها بالجزيرة ، ولكن موسى أقام بالرقة عشرة شهور ثم اضطرب أمر أصحابه ، وتوفي في صفر سنة ٢٦٤ .

وقال محمد بن داوود<sup>(١)</sup> :

لما ثوى ابنُ بغا بالرقتين ملاً      ساقيه زرقاً إلى الكعبين والعقب  
بني الجزيرة حصناً يستجيبُ به      بالعسف والضرب ، والصناع في تمب  
له مراكب فوق النيل راكدةٌ      فما سوى القار ، للنظار ، والخشب  
يرى عليها لباس الذل مذنبت      بالشط ممنوعةً من عنزة الطلب

فما بناها لغزو الروم محتسباً لكن بناها غداة الزَّوْعِ للهرب  
وهذه فرصة عرضت له لم يهملها ؛ فهجا ابن طولون ، وذم حصنه ومراكبه ،  
ورماه بأنه بناها للهرب لا للدفاع والغزو . وكان لا يتورع عن اللفظ القذر كما ثبت  
الأول من هذه الأبيات .

وخرج العباس بن أحمد على سلطان أبيه سنة ٢٦٦ هـ ، واضطر أن يذهب إلى  
إفريقية للحرب ، وكانت خاضعة لسلطان إبراهيم بن الأغلب ، فبعث إليه ابن الأغلب  
بجيش ، فبأمر العباس الحرب بنفسه وحسن بلاؤه . وقال العباس يومئذ (١) :

لله دَرِيٌّ إِذْ أَعْدُو عَلَى فَرَسِي	إلى الهياج ونارُ الحرب تستمرُّ
وفى يدي صارمٌ أَفْرِي الرُّوسَ به	في حده الموتُ لا يُبْقِي ولا يَدْرُ
إن كنتِ سائلةً عني وعن خَبْرِي	فها أنا الليثُ والصَّمَمِصَامَةُ الذِّكْرُ
من آلِ طُولُونٍ أَصْلِي إن سَأَلْتِ فما	فوق لفتخر بالجود مفتخرُ
ورثت مجد أبي عنه ، وورثني	مجداً أناف به آباؤه الغررُ
لو كنتِ شاهدةً كَرِي « بَلْبِدَةَ » إِذْ	بالسيفِ أَضْرَبُ والهَامَاتُ تَبْتَدِرُ (٢)
يدعون لا أين ، والعباس يقدمهم	كأنهم حُجْرٌ والليث مقننر
إذاً لعابنتِ مِنِّي ما تسيرُ به	عَنِّي الأحاديثُ والأنبياءُ والخبرُ

وهو نخر شاعر فارس بشجاعته وبآبائه الأجواد .

ولكنه أصيب هو وأصحابه إصابة بليغة ، ورجع هارباً إلى برقة .

ورأى بعض الشعراء في أعمال ابن طولون ما هو جدير بالمدح فمدحه :  
فإنه لما هرب المعتمد من بغداد سنة ٢٦٩ ، أرسل إليه أخوه الموفق ، صاعد

(١) ص ٢٥٤ سيرة ابن طولون للبلوي (٢) لبدة : مكان المعركة .

ابن مخلد وإسحاق بن كنداج ، فظفرا به ، ورداه إلى سر من رأى . فعقد الوراق لإسحاق على مصر . وعلم ابن طولون بهذا وهو بدمشق ، فكتب إلى أهل مصر من هناك يخبرهم بما حدث للمعتمد ويطلب منهم خلع الوراق وجهاده .

وقال قعدان بن عمرو يمدحه بالدين والشجاعة وحسن القيادة ، ويمدح الخليفة معه ، ويحث الناس على الخروج لنصرة الخليفة<sup>(١)</sup> :

طال الهدى بابن طولون الإمام كما  
قاد الجيوش من الغسقاط يقدمها  
في جفيل ، الدنيا في مقاربه  
يسمو به من بني سام عطارفة  
لو أن روح بني كنداج معلقة  
حاط الخلافة والدنيا خليفتنا  
يا أيها الناس هبوا ناصرين له  
يزهو به الدين ، عن دين وإسلام  
منه على الهول ماض غير محجام  
مكلمين بين رايات وأعلام  
بيض ، وأسود أسود من بني حام  
بالمشترى لم يقته ، أو بهرام  
بصارم من سيوف الله صمصام  
مع الأمير يد لهم الخيل في اللام

وهذا مدح سياسي في غايته ، فالتناء على الوالى وأفعاله ، والدعوة إلى نصرة الخليفة ومن يدافع عنه يحمل في طياته تأييداً لسياسته ، وتبشيراً بحسن سيرته .

وقال قعدان بن عمرو مرة ثانية ، يستنهض الناس لنصرة الخليفة ، ويدعوهم أن ينضموا إلى ابن طولون في دفاعه عنه :

من مبلغ مضر الشام وما حوت  
ما بالكم هضم جناح سنانكم  
مصر ومن هو منهم أو منجد  
بتوا كل من فعلكم لا يحمده

أَتَى، وكيف يطيبُ من أحوالكم<sup>(١)</sup> ، خفض المعيشة والإمامُ مقيدُ !  
حزان أفرِدَ من بَنِيهِ وأهله بأبي وأمي المستنظام المفردُ !

وقال منصف<sup>(٢)</sup> بن خليفة الهذلي يمدح أفعاله ، ويشير إلى سعة ملكه ،  
وإخلاص أهل مملكته له ، ودفاعه عن الخليفة دفاعاً مجيداً<sup>(٣)</sup> :

يا عُمرَةَ الدينِ الذي أفعالهُ غررُ بها كل الوري تتعلَّقُ  
أنت الأميرُ على الشامِ وتغرِّها والرَّقَّتَيْنِ وما حواه الشرقُ  
وإليك مصرُ وبرقّةٌ وحجازُها كلُّ إليك فؤاده متشوّقُ  
هتاك الخِلافة صاعدٌ وخليله إسحاقُ لِعِبا، والحسودُ الأخرقُ  
أسيافُنا بيضُ النونِ فليتها ينَجِّيع من خذل الإمام تُخَلِّقُ<sup>(٤)</sup>  
تُمسى وتُصبح ضارباً من دونه يمهّد منه الختوفُ تفرِّقُ

وهو شعر سياسي كسابقه يرمي الشاعر من ورأه إلى بيان فضل ابن طولون  
على الخليفة ، وتبرير حربه مع الموفق ، ورضا الناس عن سلطانه في البلاد  
التي يحكمها .

وقال الوليد بن عبيد البحرى ، قصيدة طويلة في مدح أحمد بن طولون  
ومنها<sup>(٥)</sup> :

فأصبحتُ في بغدادَ لا الظلَ واسعَ ولا العيشَ ظلَ في غمضارته رطِبُ

(١) في الكندي ( يذيب . . . الكم ) فأكملتها بما يمكن أن يتم به المعنى .  
(٢) في سيرة ابن طولون للبلوى ص ٣٠٠ أنه من شعراء الشام . وله قصيدة نونية  
هناك في معنى هذه القصيدة :  
(٣) الكندي ص ٢٢٨ .  
(٤) النجيع = الدم . تخلق = تعطر .  
(٥) ديوان البحرى ج ٣ ص ٧٧ . والمشهور أنه « الوليد بن عبادة »

أمدح عمال الطَّسَاسِيحِ رَاغِبَا

إِلَيْهِمْ ، وَلى بِالشَّامِ مُسْتَمْتِعٌ رُغْبٌ (١)

وعند أبي العباس لو كان دانيلاً

نواحي الفناء السهل والكنف الرحب

وكانت بلائاً نبتى عنه ؛ والغنى ، غنى الدهر ، أدنى ما يُنَوَّلُ أو يجبو

ثم يصف الخارجين عليه ويندمهم فيقول :

وكانوا ثمودَ الحِجْرِ حَقَّ عَلَيْهِمْ وَقُوعَ العَذَابِ ، وَأُخْصَى لَهُمْ سَقْبٌ (٢)

وما شك قوم أوقدوا ناراً فتنه

كأن لم يروا « سيما الطويل » وجمعه

ولو لم يحجز لؤلؤٌ بفراره

ويقول عن هؤلاء الخارجين على ابن طولون :

مخاذيل لم يستر فضائح فعلهم

أخاف كآني حاملٌ وزرَّ بعضهم

وما كان لي ذنب فأخشى جزاءه

(١) الطَّسَاسِيحُ = النواحي : رغب = متسع .

(٢) السقب ولد الناقة وهو الذي أنذر ثمود بالهلاك . فكأن خصام كانت نذير هلاك كما كان السقب لثمود .

(٣) سيما الطويل : كان حاكم على أنطاكية . قتل سنة ٢٦٥ في معركة بينه وبين ابن طولون . سيرة البلوى ص ٩٦ .

(٤) كان لؤلؤ مولى لابن طولون ثم غدر ، وانضم إلى الموفق

وتاريخ هذه القصيدة سنة ٢٦٩ هـ لما خرج ابن طولون إلى الشام . وكان الشاعر يطمع في عطاؤه على هذا المدح . ويظهر أن ابن طولون لم يعطه شيئاً فهجاه ولامه على تعرضه لهذا المهجاء ، ورماه بالجهل فقال من قصيدة طويلة :

ولولا غُلُوُّ الجهل ما عُدَّ هَيِّنًا      تكبُّدُ سُخْطِي واضِطِّلاءُ حَرِيقِي  
ثم يقول فيه هاجياً :

وعاهرة أدَّت إلى عَـشِيرِ عَاهِرِ      مَسَاهِرَةِ كَلْبٍ في الكلابِ عَرِيقِ  
لَيْلِيُخِ أَوْ طُولُونِ يُعْمَرِي ، ففقدحت      على اثنتين : زوجٍ منهما وعشيقٍ<sup>(١)</sup>  
وهكذا الشعراء يسرفون في المدح والمهجاء .

وارتحل ابن طولون من أذنة إلى المصيصة ، فأقام بها أياماً ، وعرضت له علته التي كان منها حقه ، فأغذَّ في السير إلى مصر ، والعملة تزيد عليه حتى بلغ الفرما ، فركب في الليل إلى الفسطاط ، فدخلها يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ ، وظلت العملة تأتي عليه شيئاً فشيئاً حتى مات في ١٠ من ذي القعدة سنة ٢٧٠ ، فحزن عليه المعتمد واشتدَّ وجده ، وقال يرثيه<sup>(٢)</sup> :

إلى الله أشكو أسي      عمَّاني كوقع الأسَلُ  
على رجلٍ أروعٍ      يُرَى فيه فضلُ الرَّجُلِ  
شهابٌ خبا وقُدَّه      وعارضُ غيثٍ أفلُ  
شكت دولتي فقده      وقد كانت زينَ الدَّوَلِ  
إذا أمَّه القاصدُونَ      حباؤهم جميعَ الأملِ

وهذا رثاء عام يدور حول فضل ابن طولون وكرمه ومنزلته في الدولة ، وهو

(١) يلبخ = كان زوجاً لأم أحمد بن طولون بعد موت أبيه .

(٢) سيرة ابن طولون للبلوي ص ٣٥٨

أشبهه بالحديث ، وكان أولى بالخليفة أن يذكر فضله عليه في تثبيت ملكه ، ولكن منعه عن الخلافة من أن يشير إلى شيء من ذلك .  
وقال ابن داود يهجوّه بعد موته ويفحش (١) :

عَرَّجَ عَلَى الْيَحْمُومِ فَانزَلَ بِهِ      فَاسْلَحْ عَلَى قَبْرِ ابْنِ طُولُونَا (٢)  
وَيَخَاطِبُ هَذَا الْقَبْرَ فَيَقُولُ :

يَا حِقْرَةَ النَّارِ الَّتِي أَضْرَمْتَ      وَظَلَّ فِيهَا الرَّجْسُ مَدْفُونَا  
لَا تَجْمَلِي لِبَسَةِ جِسْمَانِهِ      إِلَّا الْأَفَاعِي وَالْتِمَائِينَا

ويرى أن الذين فقدوه وأصيبوا به هم إبليس والشياطين ، وهم الذين يعزون فيه لأنه كان ولياً لهم ، ويفسد في الأرض مثلهم فيقول :

فَعَزَّ إبْلِيسَ بِهَا أَوْلَا      وَعَزَّ مِنْ بَعْدِ الشَّيَاطِينَا  
وَقُلْ لَهُمْ : قَدْ كَانَ يَكْفِيكُمْ      وَيَهْتِكُ الْمَعْرُوفَ وَالْدِينَا  
ثُمَّ مَضَى غَيْرَ قَقِيدٍ ، وَلَا      كَانَ حَمِيداً مُعْتَرَهُ فِينَا  
وقال أيضاً :

مَضَى غَيْرَ مَفْقُودٍ وَمَا كَانَ عَمْرَهُ      سَوَى نَقْمَةٍ لِلخَلْقِ شَتْمَاءَ صَيِّمٍ  
لَقَدْ زِيدَ فِي الْيَحْمُومِ بِالرَّجْسِ لَعْنَةً      وَلَمْ يُسَقِّقْ بِالرَّجُوسِ تَرْبُ الْمُقْتَمِ  
وَلَمْ تَبْكِهِ الْأَرْضُونَ ، لَكِنْ تَبَسَّمَتْ      سروراً ، وَلَوْلَا مَوْتُهُ لَمْ تَبَسَّمِ  
يَبْشُرُهُ إبْلِيسُ عِنْدَ قَدُومِهِ      عَلَيْهِ بِأَحْسَى بُقْمَةٍ فِي جَهَنَّمِ  
لَقَدْ طَهَّرَ الْأَرْضُونَ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ      وَمِنْ وَجْهِهِ ذَاكَ ، الْكُرْبِيِّ الْمَوْرَمِ  
فَلَا سَقَيْتِ أَجْدَانَهُ صَوْبَ مُزْنَةٍ      وَأَنْى فِيهَا شَرُّ أَوْلَادِ آدَمِ !

(٢) اليعموم إسم الجبل المشرق الذي كان فيه قبره

(١) الكندي ص ٢٣١

وإعمل ابن داود كان موتورا أو ساخطا أو محروما أو مأجورا ، فحمل  
هذه الحملات العنيفة على ابن طولون في حياته وبعد مماته ، وهي بعيدة عن تصويره  
على حقيقته ، ولكنه الشعر والشعراء .

ومن شعر هذا العصر قصائد للكاتب جعفر بن جدار بعيدة عن التاريخ  
والسياسة فتخف وترق .

ومن ذلك أبيات في صديق له يمدحه ويماتبه ويطمع في خيراته<sup>(١)</sup> :

يا ابن المقفع في البياء ن ويا إياساً في الذكاء  
يا ناظراً في المشكلات العضلات ، ويا ضيائياً  
إيها ، جعلت فداك ! فميم طويتني طي الرداء ؟  
ورغبت عما كنت ترغب فيه من لطف الإخاء  
من بعد أني كنت عندك وابن أمك بالسواء  
فوحق كفك ، إنها كف كأخلاف السماء  
لأخلى لك والهوى ولأصبرن عن اللقاء  
ولأشكونك ما استطعت إلى حفاظك والوفاء  
ولأصبرن على رقيبك في ذرى درج العلاء  
فهنالك أجنى ما غرست إليك من ثمر الرجاء  
وقال في مغنية جميلة<sup>(٢)</sup> :

جاءت بوجه كأنه قرُّ على قوام كأنه عُصْنُ

(١) اسمه « جدار » أحياناً . قتله ابن طولون سنة ٢٦٧ لأنه عداه مسؤولاً عن ثورة  
العباس على أيه : معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٤ .

(٢) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٥ . وله قصيدة في الغزل أزهقها باليدع فتقلت به  
( العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٦ ) .

ترنو بعين إذا تعابها      حسبت أن في جفونها وسن  
حتى إذا ما استوت بمجلسها      وصار فيه من حسنها ون  
غنت فلم يبق في جارحة      إلا تمنيت أنها أذن

وفي هذه الأبيات حسن تعبير عن إعجابه بهذه الغنية ، ومدح لجمال صوتها ،  
ودليل على فطنة الشاعر واستغراقه ، ولهذا تمنى أن تكون كل جارحة فيه أذنا ليكون  
لها حظ التمتع والسرور ، وينال من ذلك النعم الجميل أكبر قسط ينعم به  
الجسد والروح .

ومن شعره في ثقلأ زاروه فأكلوا ، واستولوا على الباقي وهم خارجون<sup>(١)</sup> :

زارني زورٌ تكلمهم      وأصيبوا حينما سلكوا  
أكلوا حتى إذا شبعوا      حملوا الفضل الذي تركوا

وفي سنة ٢٧٢ هـ خرج أبو الجيش خارويه إلى دمشق وهزم إسحاق بن  
كنداج ، وتبعه حتى سر من رأى ، فقال القاسم بن يحيى المريعي<sup>(٢)</sup> يمدحه ،  
ويصف كثافة جيشه وهزيمة عدوه :

أنا أبو الجيش الأمير بيئته      فشرّد عنا الجور وافتقر المسر  
فإن تك أرض الرقين به اكتست      ضياء وإشراقا ، لقد أظلمت مصر  
فسائل به إسحاق إذ سار نحوه      بجيش كمرض النيل يقدمه النصر  
تباعدت الأقطار منه كثافةً      ففي مشرق قطر وفي مشرق قطر  
فأبلس إذ قيل الأمير بيئته

وأضحى ضعيف العقد إذ عقد الجسر<sup>(٣)</sup>

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٦ .

(٢) المريعي من شعراء مصر المشهورين ، كان مختصا بخدمة خارويه (المغرب ص ١٠٢)

(٣) أبلس : يئس وتعجب . بلس : بلد بشط القرات .

وفا رأى الجيش ابن كنداج مقبلا  
فولى شريداً ذا ارتياع كأنه  
لئن مرَّ إسحاقَ النجاة بنفسه  
فلا يُغَبِّطُنْ بالعيش من بعد هذه  
أرته المنايا الحمرَ أعلامه الحمرُ  
بكل بلاد ضائرُ ماله وكرُ  
لقد ساءه في جمعه القتلُ والأسرُ  
فقد كَسَّرَتْهُ كسرةً مالها جَبْرُ

وافتقار العسر في البيت الأول غريب . وفي الشعر كثير من البديع ، وزينته  
بلا تكاف ولا ثقل .

ويبلغ خمارويه أن محمد بن ديوداد المعروف بابن أبي الساج خارج إليه  
فلقية خمارويه فهزمه بثنية العقاب من أرض دمشق سنة ٢٧٤ ، فقال القاسم بن  
يحيى المريعي (١) :

فتوح الأمير نجومٌ تلوحُ  
تسير لها في جميع البلادِ  
إذا حاد عن أمره حائدُ  
نصحنا لشر بني ديودادِ  
ولم يكن الفدر مستقبحا  
تعاطى نطاحَ كباش الحروبِ  
أئن كان ولي سلينا صحيحا  
أباح حماء فتى لم يزل  
إذا هو لم يسترح من عدوِّه  
وإن همَّ بالسير لم يثنه  
فليس تقاس إليها فتوحُ  
ركائب تغدو بها وروحُ  
أناح له الحتف منه مُتبيحُ  
بتحذيره لو أطيع النصيحُ  
وفي الفدر شين وعار قبيحُ  
فغودر وهو صريع بطيحُ  
فما القلب منه سليم صحيحُ  
يحوط حمى وحمى يستبيحُ  
فليس إلى لذةٍ يستريحُ  
سنيحُ يَمُنُّ له أو يريحُ

(١) الكندي ٢٣٨ .

وفي البيت الأول معنى لطيف وتشبيه غير مألوف ، وهو تشبيه الفتوح  
بالنجوم . وقال الوليد بن عبيد البحرى :  
وقد رأيت جيوش النصر مُنَزَّلَةً      على جيوش أبي الجيش بن طولونا  
يوم الثانية إذ ثنى بكرته      في النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا  
مظفر لم يزل يلتقى بطلمعته      كواكب السعد والظير الياميننا  
عشى قريباً من الأعداء ، لو وقفوا      بالصين من بعدها ، ما استبعد الصيننا  
ومات الموفق سنة ٢٧٨ .

ثم توفى المعتمد سنة ٢٧٩ ، وبويع للمعتضد بن الموفق بالخلافة فبعث خمارويه  
إليه بالهدايا ، وكتب إلى خمارويه في ربيع الأول سنة ٢٨٠ بولايته هو وولده  
ثلاثين سنة من الفرات إلى برفه ... على أن يحمل إليه في كل عام مبلغاً .  
وبعث إليه برسوله ومعه الخلع ، وسيف وتاج ووشاح ، وعقد المعتضد على  
قطر الندى بنت خمارويه سنة ٢٨١ ، ثم خرج خمارويه إلى دمشق وقتل بها سنة  
٢٨٢ هـ ، وحمل إلى الفسطاط فدفن بها فكانت ولايته اثنتي عشرة سنة .  
ثم وليها أبو العساكر جيش بن خمارويه في ٩ ذى القعدة سنة ٢٨٢ .

ووليها بعده هارون ، وثار عليه عمه ربيعة والى الاسكندرية ، ثم قدم بجيش  
إلى متبويه ( إمبابة ) وعدى النيل ، ثم هزم وأسر وضرب ألف سوط ثم مات  
بعد أيام .

وثار دميانة والى الاسكندرية وبعث المكتفى محمد بن سليمان الكاتب ، إلى  
مصر ، فخالفه دميانه ، وأطاعه الحسين بن أحمد الماذرائى ، والتقى جيش هارون  
بجيش دميانه فى تميمس ، وذهب هرون إلى المعركة ، ولكنه كان يلهو ويعبث .  
فانهز عمّاه شيبان وعدى إحدى سكراته فقتلاه فى صفر سنة ٢٩٢ .

وولى البلاد بعده عمه شيبان ، وكان على يديه ذهاب ملك بني طولون ، ودخل البلاد محمد بن سليمان من قبل المكتفى بالله سنة ٢٩٢ .

وأمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع ، ونهبت الفسطاط ، وأخرج من مصر بني طولون ومواليهم ومن يمت إليهم « فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر ، نخلت منهم الديار ، وعفت منهم الآثار ، وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الدال بعد العز ، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونصرة الملك ومساعدة الأيام »<sup>(١)</sup> .

### ٣ — الشعر في أعقاب الطولونيين :

ووقف الشعر من الطولونيين بعد زوال ملكهم موقفين :  
أحدها شامت فيهم فرح بما أصابهم ، مرحب بمن أتى بعدهم ، ممجد لفتوحهم  
وما كسبوا من نصر مبين .

والثاني شعر حزين باك يرثى دولتهم ويتفجع لما حل بهم ويشير الأشجان  
لنكبتهم .

وهو في الحالتين شعر موعظة واعتبار ، يذكر بصروف الأيام ، ويدعو إلى  
التفكير في أحداث الأزمان .

ومن الشعر الأول ما قاله أحمد بن محمد الحبشى يتشفى ويمدح القائد الفاتح<sup>(٢)</sup> :

الحمد لله إقراراً بما وهبها	قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا <sup>(٣)</sup>
الله أصدق هذا الفتح لا كذب	فسوء عاقبة الثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها	وفتح الظلم والإظلام والكربا
لا ريب ، رب هياج يقتضى دعة	وفى القصاص حياة تذهب الريبا

(١) (٢، ١) والكندى ص ٢٤٨ .

(٢) الشعب : التأم واجتمع .

رمى الإمام به عذراء غادره  
محمد بن سليمان أعزهم  
سرى بأسد الشرى، لو لم يرُوا بشرا  
فافتض عذرتها بالسيف واقضيا  
نفسا ، وأكرمهم في الذاهبين أبا  
أضحى عمرينهم الخطى لا القضيا

إيها علوت على الأيام مرتبة  
هارت بهارون من ذكراك بقعته  
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم  
وكم ترى تركوا من جنة أنف  
أبا على ترى من دونها الرتبا  
وشيب الرعب شيباناً وقد رغبا  
كأنها من زمان غاب زهبا  
ومن نعيم جنى من عذره غضبا

وكان هذه القصيدة من وحي أبي تمام في فتح عمورية . وأظهر ما تجد ذلك  
الوحي في القافية البائية ، والبحر « البسيط » .

أما الاقتباس من القرآن الكريم والعناية بحسنات البديع ، فمن الصفات  
التي كانت تغلب على الشعر في هذا العصر ، ثم أزهقته في المصور التالية .

وقال الحبيشى لأبي على الحسين بن أحمد الماذرائى :

هنيئاً لمصرٍ قد فتحت رتاجها  
وما الفتح إلا فتح رأيك لا الذى  
وكنت وشيخان غداة لقيته  
كفيت الإمام المكتفى ما ينوبه  
وما زلت ترى آل طولون قبلها  
وقلدت ما قلده بتحكيم  
تجمع يوم الجمع من كل معلم  
كموسى وفرعون غداة المعظم  
ولم يك يرجوه بكل مرجم  
وقد خالفوا السلطان ، منك بصيلم

وقال ابن أبي يعقوب شامتا هاجيا :

الدار بعد تفرق الأظمان  
لم تبد من حزن على أربابها  
مسرورة بتفرق السكان  
إذ فى الترحل راحة الجيران

رحلوا فلا تزلوا بروض حرهم  
وعداهم سَكِيلُ الغمام الداني  
وتمسّمهم سَطوة الرّحمن  
وأكفّ أيديهم عن الإحسان  
وأحقها بهم الأركان  
فأثابهم بمثوبة الكفران  
ماذا أريحت مصر منه وما إلى  
أرض العراق ، مضى من البهتان !  
ويتسم هذا الشعر بالبعد عن المقدمات والدخول في الموضوع ، أو براعة  
الاستهلال وهي التي تلحظ في الإشارة إلى الموضوع من أول بيت .

ثم يصرح بالعبارة ، ولا يخفى الشماعة بهم والرضا عما أصابهم فيقول :  
إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم  
وانظر إلى تلك القصور وما حوت  
وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة  
ياقتل هرون اجتثت أصولهم  
لم يقن عنهم بأس قيس إذ غدا  
وعدية البطل الكمي وخزرج  
ذقت إلى آل النبوة والهدى  
فارتع وعجج بمراتع الميدان  
واسرح بزهرة ذلك البستان  
تنبيك كيف تصرف المصران  
وأشبت رأس أميرهم شيبان  
في جحفل لب ، ولا غسان  
لم ينصرا بأخيها عدنان  
وتمزقت عن شيعمة الشيطان

عظمة ملكهم وعمارتهم :

وكان عز بنى طولون عزيزا ، ومجدم عظيما ، ورخاؤهم عميما ، ونعيمهم موفورا  
وملكهم كبيرا ، وكانت قصورهم مشيدة ، وصروحهم ممردة ، وجنائهم ناضرة ،  
ورياضهم عاطرة .

واقراً بعض ما كتبه صاحب النجوم في وصف ديارهم وعزهم قال<sup>(١)</sup> :

ولما ملك خمارويه الديار المصرية ، بعد موت أبيه أحمد بن طولون ، أقبل على عمارة قصر أبيه ، وزاد فيه محاسن كثيرة ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه ، المجاور للجامع ، فجعله كله بستاناً ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم ، وأنواع الورد . وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ؛ وأجرى فيها الماء المدبّر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء ، فينحدر إلى فساقى معمولة ، ويفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان . وغرس في أرض البستان من الرياحان الزروع في زى نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة ، يتماهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، لئلا يشكلك ذلك على القارىء ، وحمل إلى هذا البستان النخل من خراسان وغيرها ... وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحو ذلك شيئاً كثيراً .

وعمل في هذا البستان مجلساً له سماه « دار الذهب » ، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد في أحسن نقش ، وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف صُوراً بارزة من خشب ، معمول على صورته وصور حظاياها ، والمغنيات اللاتي تغنيه في أحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفي آذانها الأخراس الثقال ، ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا القصر من أعجب ما بنى في الدنيا .

وجعل بين يدي هذا القصر فسقية ملاءها زئبقاً . وسبب ذلك أنه اشتكى إلى

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٣ .

طيبه كثرة السهر وعدم النوم ، فأشار عليه بالتكبير ، فأف من ذلك وقال : لا أقدر على وضع يد أحد على ، فقال له الطيب : تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل البركة المذكورة ، وطولها خمسون ذراعاً في خمسين ذراعاً عرضاً ؛ وملاها من الزئبق ، فأنفق في ذلك أموالاً عظيمة ، وجعل في أركان البركة سككا من فضة ، وجعل في السكك زناير من حرير محكمة الصنعة في حلق من فضة ، وعمل فرشاً من آدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدته ، ويلقى على تلك البركة الزئبق ، ويشد الزناير الحرير التي في حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية ، وكان يرى لها في الليالي القمرية منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق .

قال القضاة : ولقد أقام الناس مدة طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة .

ثم بنى خمارويه في القصر أيضاً قبة تضاهي قبة الهواء سماها « الدكة » وجعل لها الستر الذي يقى الحر والبرد فيسدل حيث شاء ، ويرفع متى أحب ، وكان كثيراً ما يجلس في هذه القبة ليشرق منها على جميع ما في داره من البستان والصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة .

ثم بنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه . وبنى أيضاً في داره المذكورة داراً للسياح ، وعمل فيها بيوتاً ، كل بيت لسبع ... وكان من جملة هذه السياح سبع أزرق العينين يقال له « زُرْبِق » قد أنس بخمارويه ، وصار مطلقاً في الدار لا يؤذى أحداً . وراتبه على عادة السياح ، فلا يلتفت إلى غذائه بل ينتظر سحاط خمارويه ، فإذا نصبت المائدة أقبل « زربق » معها وربض بين يدي خمارويه ، فيبقى خمارويه يرمي إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة ، والقطعة الكبيرة من اللحم

ونحو ذلك ، مما على المائدة ... وكان إذا نام خمارويه جاء « زريق » وقعد ليحرسه ، فإن كان قد نام على سريريه ربيض بين يدي السرير ، وجعل يراعيه ما دام نائماً ، وإن نام خمارويه قعد قريباً منه وتفطن لمن يدخل أو يقصد خمارويه ، لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة ، وكان في عنق زريق طوق من ذهب ، فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائماً ، لمراعاة زريق له وحراسته إياه ؛ حتى أراد الله إنفاذ قضائه في خمارويه ، كان بدمشق وزريق بمصر ، ولو كان زريق حاضراً لما كان يصل إلى خمارويه أحد . فما شاء الله كان .

فلا عجب أن بكى الشعراء ، واعتبروا ، ووعظوا ، وامتلا شعراً بالزفرات والحسرات على ما فعلته الأيام بآل طولون وما شادوا من قصور وما كان لهم من ملك كبير . ومن هذه القصائد قول إسماعيل بن أبي هاشم (١) :

قف وقفةً بفناء باب السَّاجِ	والقصر ذى الشرفات والأبراجِ
وربوع قومٍ ازعجوا عن دارهم	بمد الإقامة أيمًا إزعاجِ
كانوا مصايحاً إذا ظلم الدجى	يسرى بها السارون في الإدلاجِ
وكان وجوههم إذا أبصرتها	من فضة مصبوغة أو عاجِ
كانوا الثريا لا يرَامُ حَمَامُ	في كل ملحمة وكل هياجِ
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم	علماً بكل نسيّةٍ وفجاجِ
وعليهم ما عشت لا أدعُ البكا	مع كل ذى نظره وطرف ساجِ

وقال سميد القاص (٢) يبكي أيام ابن طولون ، ويرثى له ، وللبلاذ والدين والدنيا التي أصيبت جميعاً بفقده ، وجمل هذا البكاء مقدمة للحديث عن عظيم الآثار التي شيدها ، وعن دولته التي أسسها وانظر إليه يقول :

جرى دمه ما بين سحرٍ إلى تحيرٍ ولم يجر حتى أسلمته يدُ الصبرِ

(١) الخطط ج ١ ص ٣٢٣ والكندى ٢٥٢ .

(٢) الكندى ص ٢٥٣ . خطط القرظي ج ١ ص ٣٢٣ .

وباتَ وقيداً للذي خامر الحشاً  
 وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى  
 تتابع أحداثٍ تحيِّفنَ صبره  
 أصاب على رغم الأنوف وجدعها  
 طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها  
 فبادوا وأضحوا بعد عزٍ ومنعةٍ  
 بينُ كما أنَّ الأسيرُ من الأسرِ<sup>(١)</sup>  
 بيت على جمرٍ ويضجى على جمر  
 وغدرٌ من الأيام ، والدهرُ ذو غدُر  
 ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر  
 بفقدِ بنى طولون ، والأنجمِ الزُّهر  
 أحاديث لا تخفى على كل ذى حجر

ثم يبدأ الحديث الخاص ، ويتجه إلى مدح ابن طولون خُلُقاً وخُلُقاً  
 بما يليق بأمير عظيم الأفعال ، على الهمة فيقول :

وكان أبو العباس أحمد ماجداً  
 كأن ليالى الدهر كانت ، لحسنها ،  
 يدل على فضل ابن طولون همة  
 جميل الحياء لا يبيت على وتر  
 وإشراقها في عصره ، ليلة القدر  
 محلقة بين السماكين والغفر<sup>(٢)</sup>

ويستشهد بالآثار ، وهي شاهد عدل ، ناطق في صمته بلسان مبين ، ومنها ذلك  
 المسجد الذى بناه ابن طولون سنة ٢٥٩ عند المكان المسمى تنور فرعون :

فإن كنت تبغى شاهداً ذا عدالة  
 فبالجبل الغربى خِطَّةٍ يشكرُ  
 يدل ذوى الأبواب أن بناءه  
 بناه بأجرٍ وآسٍ وعمرٍ عمر  
 بعيد مدى الأقطار ، سامٍ بناؤه  
 يخبر عنه بالجبل من الأمر  
 له مسجدٌ يفتى عن المنطق الهذر  
 وبانيه لا بالضنين ولا الغمر<sup>(٣)</sup>  
 وبالمرمر المسنون والجص والصخر<sup>(٤)</sup>  
 وثيق الباني من عقود ومن جذر

(١) الوقيد والوقود : الخطب وشبهه . (٢) الغفر = ثلاثة أنجم صغار .

(٣) الضنين = الشحيح . الغمر = الحامل الذى لم يجرب الأمور .

(٤) آس = نوع من الشجر . العرعر = شجر السرو . المسنون = المصقول .

فسيحُ الرحابُ يَحْسِرُ الطرفُ دونه  
وتَنسُورُ فرعونَ الذي فوق قُلَّةِ  
بني مسجداً فيه ، يفوق بناؤه  
تحال سَنًا قنديلُه وضياءَه

وعينُ معينِ الشربِ ، عينُ زكية  
كأن وفود النيل في جنباتها  
فأرفأها مستنبطاً لمعينها  
يمر على أرض المافر كلها  
قبائل لا نوء السحاب يمدها

ولا تنس مارستانه واتساعه  
وما فيه من قوَامِه وكُفَاتِه  
فلاميت القبورِ حسنُ جهازه

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملاً  
ترى أراً لم يبق من يستطيعه  
مأزُ لا تبلى وإن بادَ ربُّها  
لقد ضمَّنَ القبر المقدَّر ذرعه

ثم انتقل إلى أبنائه وما أصابهم به الدهر حتى وهي عقدهم فتنازرت جواهره .  
قال :

وقام أبو الجيش ابنُه بعد موته  
كما قام ليثُ الغاب في الأسكَل السَّمَر

أنته المنايا وهو في أمن داره  
كذاك الليالي من أعارته بهجة!  
وورث هرون ابنه تاج ماجد  
وقد كان « جيش » قبله في محله  
فقام بأمر الملك هرون مدة  
وما زال حتى زال والدهر كاشح  
يذكرهم لما مضوا فقتابوا  
فن بيك شيئاً ضاع من بعد أهله  
ليبيك بني طولون إذ بان عصرهم  
وورد كتاب المكتفي بولاية الحسين بن أحمد الماذراني على الخراج وجهل إليه  
النظر في أمر بني طولون وضياعهم .

### ثورة ابن الخليج :

ولما خرج محمد بن سليمان أخرج معه جماعة كثيرة من بقاياهم ، ومنهم محمد  
ابن علي الخليج وجماعة ، فثاروا وعادوا إلى مصر وأثاروا فتنة بها ، فأرسل المكتفي  
إليهم رجلاً يقال له أبو الأغر سنة ٢٩٣ فهزمه جيش ابن الخليج .

فقال إسماعيل بن أبي هاشم (١) :

أميرنا يابن الهليل الفرر  
صدورنا . وقيت من كل حذر  
شفيت من عدونا أبي الأغر  
إذ جاء في الشوك إلينا والشجر

في جَحْفَلِ كُوجِ بِحَرِّ قَدَزِ خَرِّ      يتيمه أهل البوادي والحضر  
صبرت إذ لا قيته وما صبر      كمرَّ في أسرع من لمح البصر  
يقطر منه بوله قطر المطر      أحدث فوق سرجه وما شمعر  
شفيتنا من تركهم مع الخزر      ثم عفا أميرنا لما قدر  
وهو رجز سهل بعيد عن التكلف مع قوة عبارته . وتماسك أجزاءه  
ووضوح صورته .

وقال أحمد بن محمد الحبشي<sup>(١)</sup> في أبي الأغر وابن الخليج .

غضبتَ لمصرَ وما نالها      وشردتَ بالحوفِ من غالها  
تلافيها بمد إدارها      وأقبلتَ تطلبُ إقبالها  
وكادت تووِّه شوقاً إليك      وتظهرُ بالشوق بلبالها  
وما شوقها كان من طبعها      ولكن ربك أوحى لها  
لقد فرَّجَ اللهُ كربَ النفوسِ      وبلغنا فيك آمالها  
ولما رأيناك في مصرنا      منحننا الإمارة إجلالها  
وما زلتَ تطلبها همّةً      وتركب بالسيف أهوالها  
وتملمُ نفسك أن الأمور      رأوا عليها وإما لها  
تمنَّوا لِقَاكَ فلما رأوك      رأوا للمنية إطلا لها  
وصرُّوا يطعمون في كل شيء      رأوه المنايا وإزالها  
وكان أبوك خليج العُفَّةِ      وبحر الثغور التي عالها  
به كانت الروم في أمنها      تفزعُ للذنب أطفالها

وقد خلت هذه القصيدة من المقدمات التقليدية ، وابتدأت بالحديث في الموضوع ولعل هذا الموضوع ذاته هو الذي نفر من تلك المقدمات . ثم بلغ ابن الخليج مسير أبي شجاع فاتك المتضدى إليه ، ومسير دميانة في المراكب ، ونزل أبو شجاع ومعه بدر الحماني بالنويرة ، وعسكر ابن الخليج بباب المدينة ، وسار في ثلاثة آلاف من أصحابه ليلا ليبيت بهم فاتكا فضلوا الطريق ، وأسفر الصبح قبل أن يبلغوا غايتهم ، والتقى الجمعان فهزم أصحاب ابن الخليج وذلك يوم الخميس ٣ رجب سنة ٢٩٣ واستتر ابن الخليج في منزل رجل يقال له ( تريك ) .

قال سعيد القاص لبدر الحماني (١) :

حالت معارفهم إلى إنكارٍ	وغدا الخميس لهم بيومٍ بوارٍ
وتقاطموا وتداروا وتنافروا	وتلاعنوا فيها كأهل النار (٢)
وأتوك بين مُعذِرٍ في عذره	خجلٍ وبين مصرح الإقرار
وترعزت تلك الرماح فصورت	ركن القطم في حفير هارٍ
طلعت نجومٌ ، في الرماح بروجها	فسقطن إذ طلعت نجوم قدار
لما أنجلي ذلك الغبار رأيتهم	صرعى وقد لبسوا بريم غبارٍ
فاسعد بنصر الله والفتح الذي	عظمت به النعمى على الأبرار

ودخل دميانة في مراكبه إلى الفسطاط ، وأقبل النوشري والحسين بن أحمد الماذراني ومن كان معهم إلى الفسطاط فدخلوها في ٥ رجب سنة ٢٩٣ ، ودلهم « تريك » على ابن الخليج فأخذ وقيد ، بعد أن أقام منتزياً ٧ أشهر و ٢٠ يوماً . ودخل فاتك الفسطاط في عسكره يوم الخميس ١٠ رجب سنة ٢٩٣ ، وأمر

(١) شرحه ص ٢٦١

(٢) إشارة إلى سورة الأعراف « كلما دخلت أمة لعنت أختها » أو « من » « إن

ذلك لحق ، تخاصم أهل النار » . وليس في الشعر ضعف .

دميانة بالخروج ، وأخرج معه ابن الخليفة في ٦ شعبان سنة ٢٩٣ . ثم طيف بابن الخليفة وأصحابه ببغداد ، واجتمع الناس لهم هناك ، وكان يوماً مذكوراً .  
ثم أمر الحسين بهدم الميدان فابتدىء في هدمه في شهر رمضان سنة ٢٩٣ وبيعت أنقاضه ودر كانه لم يكن .  
وحمل الوفاء بعض الشعراء على البكاء ، وظهر في الشعر العربي لأول مرة قصائد متعددة في آثار دولة زائلة ، وهذا شعر جديد في معانيه ، محزن في نغماته ، متنوع في أناته وزفراته .

قال محمد بن طشويه :<sup>(١)</sup>

من لم ير الهدم للميدان لم يره  
لو أن عين الذي أنشاه تبصره  
كانت عيون الوزى تفتى لهيبته  
ابن الملوك التي كانت تحل به  
وإن من كان يحميه ويحرسه  
صاح الزمان بمن فيه ففرقه  
وأخلق الدهر منه حسن جده  
دككت مناظره واجتث جوسقه  
أوتهب إعصار نار في جوانبه  
كم كان يؤوى إليه في مقاصره  
كم كان فيه لهم من مشرب غدق

تبارك الله ما أعلاه وأقدره<sup>(٢)</sup>  
والحادثات تماديه ، لأ كبره  
إذا أضاف إليه الملك عسكره  
وإن من كان بالإتقان دبره  
من كل ليث يهاب الليث منظره  
وخطرب البلي فيه فدعثره  
مثل الكتاب محالصران أسطره  
كأننا الحسف فاجاه فدعثره  
فماذ معروفه للعين منكره  
أحوى أذن غضيض الطرف أحوزه  
فعب طرف الردى فيه فكدره

(١) الكنى ص ٢٦٣

(٢) صوابه « ما أعلى وأقدره » ليسعيم الوزن

أين ابن طولون بانيه وساكنه      أماته الملكُ الأعلى فأقبره  
ما أوضح الأمر لو سحت لنا فكر      طوبى لمن خصه رُشد فذكره!

وقال أحمد بن إسحاق الحكر<sup>(١)</sup> :

وإذا ما أردت أعجوبة الدهر — تراها فانظر إلى الميدان  
تنظر البثَّ والهموم وأنوا      عا توات به من الأشجان  
يعلم العالمُ المبصر أن الدهر — فيما تراه ذو ألوان  
أين ما فيه من نعيم ومن عيد      ش رخي ونضرة وجنان  
أين ذاك المسك الذي ذيفَ بالعمه      بهر بحتاً وعلَّ بالزعفران  
أين ذاك الخز المضاعف وال      وشى وما استجلبوا من الكتان  
أين تلك الثقيان تشدو على ال      فُرش بما استحسنوا من الأخان  
دور الدهر آل طولون في هـ — وة قفر مسكوتها غير دان  
وأعاض الميدان من بعد أهليه — ذئاباً تموى بتلك المغاني

وقال سميد القاص<sup>(٢)</sup> :

وكان الميدان ثكلى أصيبتْ      بحبيبٍ صباح ليلة عرس  
تنفشى الرياح منه محلا      كان للصون في ستور الدمقس  
ولفرش الإضريح والبُسطِ الدير      باج في نعمة وفي لين مسّ  
ووجوه من الوجوه حسان      وخدود مثل اللآلي مُلس  
كل كحلاء كالغزال ونجلا      رداح من بين حور ولُمس

(١) روى هذا الشعر في المخطوط ج ١ ص ٣٢٥ منسوباً إلى أحمد بن إسحاق الحكر .  
وهو شاعر نحوي مصري ترجم له ياقوت باختصار في معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٢٦ ومات سنة ٣٠١ .  
(٢) الكندي ص ٢٦٦

آل طولون كنتم زينة الأَرْضِ فَأُخِجِي الْجَدِيدَ أَهْدَامَ كُبْسِ  
وَكأنه يفتنى آثار البحترى فى إيوان كسرى بجرأ وقافية وعبارات . ولا شك  
أن سينية البحترى هى التى أوحى إليه بهذه الأبيات .

وقال ابن أبى هاشم<sup>(١)</sup> :

يا منزلا لبني طولون قد دثرا سقاك سوب الغواذى القطر والمطرا  
يا منزلا صرت أجفوه وأهجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا  
بالله عندك علم من أحببنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا  
ولكن المنزل لم يجبه ، ولم يبق إلا بعض آثارهم تشهد بما كان لهم من عز وسلطان .  
حرب مع الغرب :

وكانت المغرب نائرة على الخلافة ، وأراد المقتدر بالله أن يخضعها ، وجعل ذلك  
إلى والى مصر ، أبى منصور تسكين ، فأرسل من قبله أحد عماله فسار إلى برقة  
ومنها إلى «سرت» ولكن رجلا من البربر من كتامه اسمه «حباسة» قاد المغاربة  
إلى اسكندرية فدخلها فى سنة ٣٠٢ (السبت ٨ رمضان) ، فقدم القاسم بن سبيا  
إلى مصر مددا لتسكين ، ثم قدم أبو على الحسين بن أحمد الماذرائى ، وأبو بكر محمد  
ابن على بن أحمد الماذرائى إلى مصر على تديرها ، وقدم معهما أحمد بن كيبلغ .  
وسار حباسة إلى مشتول ، والتقى بالمصريين فى يوم خميس وسبت من  
جمادى الآخرة سنة ٣٠٢ .

قال نافع بن محمد بن عمرو<sup>(٢)</sup> :

الأشقَّ جيب الصبر إن كنت موجعا ولا يُلف لاح فيك للعذل مطمعا

(١) خطط القرينى ج ١ ص ٢٣٥

(٢) السكندى ص ٢٧١

لما دهم الإسلام من فجح حادث  
نصرع إخوان على الدين صرّعوا  
فاتوا كراما ما استضيّموا ، أعزّة  
ألم ترهم يوم الخميس وقد غدا  
وقد صاح فيهم بالنفير أميرهم  
فصادمهم في الناكثين فأبدوا  
فولى بخزى طوقته كقامة  
ألوف أباد القتلُ جمّ عديدهم  
ترى القوم صرعى في الخلاف جوائما  
وطيف بهام الفاسقين على القنا  
وكانت لحزب الكفر إذذاك عطفة  
فصلى على تلك النفوس مليكها

تهدم له أركانه أن تدمعنا  
لنصرة دين الله ، يالك مصرعا !  
يلاقون في الله الأسنة شرعا  
عدوهم فيمن أعدّ وجما  
خاءوا سراعا حاسرين ودراعا  
وكان حمة الدين أعلى وأمنعا  
وقد سقيت كأسا من الموت مُترعا  
فأمسوا طعاما للكلاب ومرتعا  
كأعجاز نخل بالبيع تقلعا  
وبضع من لحاتمهم ما تبضعنا  
فقتل من أشياعنا من تسرعا  
وعوضها أبقى ثواب وأنفعا

وليس من شك في أن هذا الشعر قيل بعد الواقعة بقليل ، كما يدل على ذلك  
تعيين يوم الخميس ، وتدرك أنه شعر يختلف عما سبقه من شعر الحوادث ، فهو  
شعر ديني حماسي . شعر يخشى أن يتصدع الإسلام لمصرع من ماتوا في الدفاع  
عنه ، ويصف أعداءهم بالفسق والخروج على الدين وأنهم حزب الكفر ، وانظر إلى  
ما فيه من إنصاف اقتضى أن يصف ما فعله أعداؤه بأشياعه ، وترجم على من قتل  
من رجاله ، وسأل الله لهم حسن الثواب .

# الفصل الحادي عشر

## الشعر في عهد الإخشيديين

حاول محمد بن طنج الإخشيد أن يستقل بمصر وما يتبعها من بلاد الشام ، وأراد أن يكون له فيها ملك متوارث ، كما كان للطولونيين ، وقد نجح في ذلك (١) وساعده على الاستقلال ضعف الخلافة ، واستبداد القواد والوزراء الأتراك بأمورها ، وكثرة الفتن والثورات في حاضرتها وولاياتها .

وكان هذا الاستقلال سبباً في استمرار النهضة بالنواحي الأدبية التي بدأت تتأقلم من عهد الطولونيين . وكان من آثارها ظهور كتاب وشعراء مصريين ، وزيادة العناية بالنقد والرواية ، ووفادة العلماء والأدباء على هذه البلاد للتعلم أو التعليم ، وطلب الغنى والجاه فيها ، والاستقرار بها إذا طاب لهم المقام . وكان لتشجيع الأمراء ورجال الدولة أثر كبير في هذه النهضة ، فكان الإخشيد ممدحاً لفضله وأعماله ، وكان كافور أديباً أريباً محباً للعلم ، وألف الكندي له كتاب فضائل مصر (٢) وكان محباً للأدب حريصاً على المدح والإثابة عليه ، وكان الوزير جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابه فاضلاً محباً للأدب حريصاً على المدح ، معنياً بالعلم والحديث خاصة .

(١) تولى محمد بن طنج أمر مصر سنة ٣٢٣ ، ومنحه الخليفة لقب الإخشيد سنة ٣٢٧ ومات سنة ٣٣٤ ، وهي السنة التي صار الأمر فيها للبويهيين ببغداد ، وأخذ البيعة قبل موته لابنه أبي القاسم أونوجور ، فبايعه القواد وكان أونوجور صغيراً فاختر أبو المسك كافور قياً عليه ، فاستبد بالأمر وظل صاحب السلطان في البلاد حتى مات أونوجور سنة ٣٤٩ ، وولى بعده أخوه أبو الحسن علي بن الإخشيد ، وكان صغيراً أيضاً ، فبقي السلطان لكافور ، ثم مات أبو الحسن سنة ٣٥٥ فاستأثر كافور بالأمر حتى مات سنة ٣٥٧ ، خلفه صبي من الإخشيديين اسمه أبو الفوارس أحمد بن علي ، ثم استولى عليها الفاطميون سنة ٣٥٨ هـ .

وكان في البلاد شعراء في زمن الإخشيديين ، نعد منهم صالح بن مؤنس ،  
ومحمد بن الحسن بن زكريا ، ومهلل بن يموت ، وعبد الله بن أبي الجوع ، وسعيد  
ابن فاخر المعروف بقاضي البقر ، والحسن بن علي الأسدي ، وصالح بن رشدين ،  
والعباس البصرى ، وأبا هريرة عبد الله بن أبي العصام . كما وفد عليها شعراء من  
الأقطار المجاورة ، كأبي الفتح كشاجم ، وأبي الطيب المتنبى .

وظهر في البلاد شعر متنوع الأغراض والأساليب ، ولكنه كان في جلته  
مطبوعاً بطابع الروح المصرية ، ومتصلاً بالبيئة التي نشأ فيها ، ومتأثراً بالحياة التي  
عاشها شعراؤه . وترى فيه المدح ، لرغبة أولئك الرؤساء فيه ، وحرصهم عليه ،  
ومجازاتهم للشعراء إذا مدحوا . كما ترى فيه الهجاء إذا سخط الشاعر على هؤلاء  
الرؤساء والسادة ، أو ضاق ذرعه بغير هؤلاء من الأصدقاء أو الأعداء . وترى فيه  
الوصف الجميل لمناظر البلاد ومنتزهاتها التي كانت مشهورة عندئذ ، وللأديرة وما يحيط  
بها من جنات ، وما يتصل بها من لهُو ومرح وشراب وصيد ، وما يكون بها من  
متع وراحة نفس .

ولا يخلو مثل هذا الشعر المرح من عبث أحياناً ، ومن مبالغة قد تخرج  
صاحبها على حدود الأدب أو الدين ، ولكن بعض الشعراء كانوا يجدون من  
الحرية والتسامح ، وكان فيهم من ضفد الدين ، أو الرغبة في التظرف ، ما يجعل  
مجاوزه هذه الحدود أمراً يسيراً .

وإذا رجعت إلى هذا الشعر وجدت فيه من المدح شعراً سهلاً كتلك الأبيات  
التي مدح بها صالح بن مؤنس جعفر بن الفرات وأهله ، فقال فيهم<sup>(١)</sup> :

قد مر عيد وعيد ما اخضر لى فيه عود

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٧٢ .

وكيف يخضر عودي والماء منه بيمد  
يا من له عددُ الحمد كلها والعديد  
آل الفرات ندام على الفرات يزيد  
وأنت فضلك فيهم عليك منه شهود  
وكل يوم لغيري من راحتك مُدود  
هل لي إلى الرزق ذنب فكان منه صدود  
ما الناس إلا شقي في دهرنا وسعيد

وكان أبو القاسم بن أبي العفيرة الأنصاري ممن يعارض المتنبي ، وقد يحضر  
بجلسهما كافور وبعض الوزراء ، كأبي بكر بن أبي صالح الروزباري ، وأبي الفضل  
جعفر بن الفرات . وكان لأبي القاسم مدائح في الوزير أبي بكر<sup>(١)</sup> . كقوله :

أما الثناء فصادر بك وارِدُ بادٍ بما تسدى إلى وعائد  
لك يا أبا بكر إلى صنائعُ أيقظن أحوالي وجدى راقد  
أوليتني نعمتا متى أنكرتها شهدت على مواهب وفوائد  
ثم يشير إلى كثرة مدائحه فيه فيقول :

وقصائد لي فيك لولا أنها كلم شهدت بأنهن مشاهد  
ولهن في عين الولي شواهد تترى ، وفي عين العدو جلامد

ومن الهجاء قصيدة قالها كشاجم في هجاء غلام له اسمه كافور ، وعرض فيها  
بكافور الإخشيد ؛ إذ يقول :

حكيت سميك في برده وأخطأك اللون والرائحة<sup>(٢)</sup>

(١) بتيمة الدهر للشعالي ج ١ ص ٣٧٣ (٢) ديوان كشاجم ص ٣٣

وقال صالح بن مؤنس قصيدة في هجاء عبد الله بن أبي الجوع رواها الثعالبي في بئيمة الدهر<sup>(١)</sup> ، وستأتي بعض أهاجي المتنبي في مصر وفي كافور .

### رثاء الأخشيد :

ولا يخلو شعرهم من رثاء :

إذ كان الرثاء وما زال مظهرأ من مظاهر الوفاء للموتى ، أو التقرب إلى الأحياء من ذوى قراباتهم ، أو مشاركة في حزن عام عند فقد العزاء .

وكان موت محمد بن طفج الإخشيد مثيراً لشاعرية بعض الشعراء فرثاه جماعة ، منهم محمد بن الحسن بن زكريا<sup>(٢)</sup> ، في قصيدة لامية تحدث فيها عن موطن العبرة في الموت ، وأنه مدرك كل امرئ أينما كان ، والدنيا فانية ، والمنون دائرة لا مفر لأحد منها ، ثم قال :

فجعتنا بواهب لا نراه      يخلق الوجه عنده بابتدال  
فجعتنا بمن حى حرمة الإس      لام من حادثٍ ومن ختال  
فجعتنا بالباسل البطل السا      مى غداةً الوغى إلى الأبطال

ويشير إلى كرمه وحرصه على المدائح بقوله :

أين من يشتري المدائح والشك      ر بأسنى وفدرٍ وأوفى نوال  
قطع الموت وصلنا منه كرها      والردى قاطعٌ لسكل اتصال

ثم ترحم عليه وسقى جدته . ثم خرج من الرثاء إلى مدح ابنه فقال :

إن خبأ بدره فقد لاح للام      ة ، لما خبا ، طلوعُ الهلال

(١) ج ١ ص ٣٤٧

(٢) نهاية الأرب للنويرى ج ٥ ص ١٨٤

نوره مُشرقٌ مضيءٌ مدى الدهر منيرٌ وليس ذا اضمحلال  
ورثاه رجل آخر من شعراء مصر اسمه مهلهل بن يموت فقال (١) :  
أى عز مضي من الإسلام ! أى ركن أضحى حديث الهدام  
ذاق مَوْتًا محمد بن طُفَّجٍ هو ليث الشرى وغيث الغمام  
ويستمر في الرثاء ولا يأتى بمعنى جديد إلى أن يقول واصفًا سعة ملكه .  
فَقَدَّتْكَ الفسطاط ووجد أمدى الدهر ومن بعدها بلادُ الشَّامِ  
فَجُمِعَتْ بِثَرِبٍ ومكَّة والبيد ت إلى زمزم ، أجل ، والمقام  
ويعتبر بمن مضي من الملوك السالفين الذين دهمتهم حوادث الأيام .

ثم ينتقل إلى تعزية ابنه أبى القاسم وتشجيعه فيقول :

أي هذا الأمير ، بل يا أبا القا سم يابن السמידع القمقام (٢)  
ارضَ حَكمَ الإله في الملك الما ضى وسلمٌ لنا فِذِ الأحكام  
وهَنَّاكَ الذى بَلَغْتَ من الأمرِ وما حَزَّتْهُ بحسن انتظام  
ما كمثل الذى رُزِيتَ ولا مثل الذى قد ملكت في ذا العام  
أنت مثل الإخشيد فأنهض بما مَلَّكَتْ بالجد منك والإعترام  
وأورد النويرى قصيدة عينية العتنبى في رثائه وتهنئة ابنه أبى القاسم فقال :

هو الزمان مَشَتْ بالذى جمعا فى كل يوم ترى من صرفه يدعا  
لو كان مُمتنع تغنيه مَنَعْتُهُ لم يصنع الدهر بالإخشيد ما صنعا

ثم أشار إلى نكبة الإسلام فيه فقال :

لله ما حل بالإسلام حين تَوَى ! لقد وهى شعب هذا الدين فانصدعا

(١) شرحه ص ١٨٦ (٢) السמידع القمقام : السيد الشريف .

وجاء بأعذار عن عدم سعي اللحد إليه فقال : إنه لم يستطيع ذلك ، لأنه  
يجهل قدر من حل فيه ، ثم أعظم مصيبته عند معتفيه ومنتجميه ثم قال :  
لئن مضيت حميدَ الأمرِ مُفْتَقِدًا      لقد تركت حميدَ الأمرِ مُتَّبِعًا  
وهنا تخلص من الرثاء إلى مدح خلفه أبي القاسم ، ومضى في المدح فقال :  
أعطت أبا القاسم الأملأُ بدمعها      ولو آبت أخذت أسيافه السياما  
وانقاد أعداؤه ذلاً لهيئته      وظل متبوعهم من خوفه تباعا  
أضحت به همُّ العلمان عاليةً      كأن مولاهم الإخشيد قد رجعا  
ولم يكن الإخشيد مجهولاً في البلاد التي كان ينزلها المتنبي ، وقد عرفه وكرمه  
من قبل . فكان رثاؤه له تقديراً وجزاء .

والمتنبي أقوى هؤلاء الشعراء في رثائه<sup>(١)</sup> ، وليس في شعرهم جميعاً من جديد حتى  
التخلص من الرثاء إلى التهنية فإنه قديم في الأدب العربي ؛ فقد دخل عبد الله بن همام  
السلولي على يزيد بعد موت معاوية فقال<sup>(٢)</sup> :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا مقة      واشكر حباء الذي بالملك حابا  
وكثر الجمع بينهما لما تقضى به النجامة وحسن التعزية ، وكان ذلك أكثر عند  
رثاء ذوى السلطان .

\* \* \*

---

(١) وكان الإخشيد بالشام في بعض السنين وبعثه خير المتنبي ، فاستدعاه وأكرمه ، وقال  
أشدنى فصيحات اللذائبة في ابن القصيصي ، ( علي ابن إبراهيم النخعي ) فأشده ، حتى بلغ  
إلى قوله .

فلما جثته أعلى محلى      وأجنسى على السبع الشداد  
تبسم قبل تسليمي عليه      وألقى كيسه قبل الوساد

فقام الإخشيد ، ولم يجلس له حتى يفرغ ( المغرب ص ٣٥ ) .

(٢) نهاية الأرب ج ٥ ص ١٨٥

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ١٣٢

ومن الرثاء قصيدة طريفة في موضوعها دقيقة في معانيها حرص فيها قائلها على أن تكون ذاتية لا يشرك الميت فيها أحد ، وهي التي قالها عبد الرحمن الخشاب المصري النحوى ، في أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى ، المؤرخ المصري المتوفى سنة ٣٤٧ ، قال (١) :

بثت علمك تصنيفاً وتقريباً      وُعدتَ بعد لذيذ العيش مندوباً  
أبا سعيد ، وما نألوك إن نشرت      عنك الدواوين تصديقا وتصويبا  
ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه      حتى رأيناك في التاريخ مكتوباً  
نشرت عن مصر من سكانها علماً      مبشجلاً بجبال القوم منصوباً  
كشفت عن فخرهم للناس ما سجت      ورُقِّقُ الحمام على الأغصان تطريباً  
حُجِّبَتَ عنا ، وما الدنيا بمظهرة      شخصاً ، وإن جل ، إلا عاد محجوباً  
كذلك الموت لا يُبقي على أحد      مدى الليالي من الأحباب محجوباً

### شعر الأديرة وما يتصل بها :

وكان في البلاد كثير من الأديرة بعضها قريب من القسطنطين وبعضها بعيد عنها ، وكانت مواقعها جميلة على النيل أو في سفوح الجبال ، وكان يحيط بها جنات من نخيل وأعناب ، وحدائق فيها أنواع الزهر ، وكان فيها قصف ومرح . فكثر الشعر المصري في وصف هذه الأديرة وما يتصل بها ، وصفاً يمزجه الشاعر بما كان من مقامرات وسكرات ، ومجالس أنس ولهو ، وطرب ورياضة ، وتمتع بالصيد والقنص ، وقد يذكره ممزوجاً بالحسرة على الزمن الماضي أو الشباب الذاهب . ومن هذه الأديرة التي اشتهرت في الشعر المصري : دير القصير ، ودير نهيا ، ودير طمويه ، ودير سينا ، ودير مارحنا .

(١) الأدب العباسى للأستاذ نجاشى ص ٥٠٩

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن دير القصير شاعر مصري اسمه أبو هريرة  
ابن أبي العصام قال :

كم لي بدير القصير من قَصْفٍ      مع كل ذي صبوة وذى ظَرْفٍ (١)  
ولأبي الفتح كشاجم قصيدة يحن فيها إلى هذا الدير ، ويذكر ما كان له من  
مآرب ومشارب ، وأيام سرور ولهو ، ويحكي معه جنات حلوان والنخلات فيقول :

سلام على دير القصير وسفحه      جنات حلوان إلى النخلات (٢)  
منازلُ كانت لي بهن مآربُ      وكانت مواخيرى ومُنْتَرَهَاتِي  
إذا جثها كان الجياد مراكبي      ومنصرَفِي في السُّفْنِ منحدرات  
فأقنص بالأسجار وحشَى عَيْنِهَا      وأقتنص الإنسَى في الظلمات  
ممي كلُّ بسام أغرَّ مَهْدَبِ      على كل ما يهوى النديمُ مُوَاتِي  
ولحمانُ مما أمسكته كلابنا      علينا ، ومما صيد في الشبكاتِ  
إذا ما شئت باشرت طبخه      على كثرة من غلجتي وطُهَاتِي  
وصفراءُ مثل التبر يحمل كأسها      شديدُ فتور الطرف واللعظات  
كأن قضيبَ البان عند اهتزازه      تعلم من أعطافه الحركات  
هنالك تصفو لي مشاربُ لذتي      وتصحب أيام السرور حياتي

وكان هذا الدير على رأس جبل مشرف على النيل قرب حلوان في طريق  
الصعيد ، في غاية النزاهة والحسن ، وبه صورة مريم البتول ، وفي حجرها السيد  
السيح ، في غاية إتقان الصنعة . وكان أهل مصر ينتابونه ، ويتزهون فيه لقربه  
من القسطنطينية (٣) .

(٢) ديوان كشاجم ص ١٩

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٦١

(٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٥٠٢

وفيه يقول محمد بن عاصم المصري من أواخر دولة الإخشيد<sup>(١)</sup> :  
إن دير القصير هاج أدكارى      كهُوَ أيا مِنا الحِسانِ القِصارِ  
وكأنى إذ زُرُّهُ بعد هجر      لم يكن من منازلِ وديارى  
إذ صعودى على الجيادِ إليه      وأنحدارى فى المُنشآتِ الجوارى  
منزلاً لست مُخَصِّباً ما بقلبى      ولنفسى فيه من الأوطارِ  
منزلاً من علوه كسماءِ      والمصاييحُ حوله كالدرارى  
كم شرِّبنا على التصاورِ فيه      بصفارِ حُثوثَةٍ وكبارِ  
صورة من مصور فيه ظلَّت      فتنة للقلوب والأبصارِ  
لا وحسن العينين والشفة اللـمياء منها      وخذها الجُلْدنارى  
لا تخلفُت عن مزارى ديراً      هى فيه ، ولو نأى بي مزارى  
فسقى الله حلوانَ فالنجدَ      فدير القصير صوبَ العِشارِ  
كم تنهت من لذآذة نوى      بنعير الرهبانِ فى الأسحارِ  
والنواقيس صائحات تنادى      حىَّ يا نائماً على الإبتكارِ

ودير طمويه فى الغرب بإزاء حلوان ، والدير راكب البحر ، حوله الكروم  
والبساتين والنخل والشجر ، وهو تزده عامر أهل ، وله فى النيل منظر حسن ، وحين  
تخضر الأرض يكون فى بساطين من البحر والزرع ، وهو أحد منتزهات أهل  
مصر المذكورة ، ومواضع لهوها المشهورة<sup>(٢)</sup> .

ولابن أبى عاصم المصرى فى هذا الدير<sup>(٣)</sup> .

واشرب بِطَمُويِّهِ من صهباء صافية      تزرى بجمر قُرى هيتِ وعاناتِ

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العبرى ج ١ ص ٣٦٣

(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٧١ نقلاً عن الشاشى . (٣) خطب المقرئى ج ٢ ص ٥٠٤

على رياض من النوار زاهرة  
كأن بت الشقيق المصفري بها  
كان نرجسها من حسنه حدق  
كأنما النيل في صر النسيم به  
منازل كنت مفتونا بها شغفا  
إذ لا أزال ملما بالصَّبوح على  
تجرى الجداول فيها بين جنات  
كاسات خمر بدت في إثر كاسات  
في خفية يتناجى بالإشارات  
مستلثم في دروع ساربات  
وكن قدما مواخيري وحاناتي  
ضرب النواقيس صبًا بالديارات

وكان دير مارحنا على شاطئ بركة الحبش ، وكان بقره جميزة يجتمع الناس عندها ويشربون ، وكان يذهب إلى هذا الدير شاعر مصري ظريف ماجن ، اسمه العباس ابن البصري من شعراء أبي القاسم أونوجور بن الإخشيد وكان مقرباً إليه ويركب معه ، ويلبس طيلساناً أزرق يتشبه بالقضاة ، وكان مليح المجالسة لطيف النادرة . وللعباس شعر في وصف الأديرة كقوله في دير « نهيا » بالقرب من الجميزة (١) :

يا للديارات الملاح وما بها  
أيام كنت وكان لي شوق بها  
يا دير « نهيا » ما ذكرتك ساعة  
والدهر غَضٌّ والزمان مساعد  
يا « دير نهيا » إن ذكرت فإني  
من طيب يوم مرَّ لي بتشوق  
وأسير شوق صباقتي لم يطلق  
إلا تذكرت الشباب بمفرقي  
ومقامنا ومبيتنا بالجوسق  
أسمى إليك على الخيول السبق

ثم يصف صيد الطيور وما صاده منها فيقول :

وإذا سئلت عن الطيور وصيدها  
فالفر فالكروان فالفارور إذ  
وجنوسها فاصدق وإن لم تصدق  
يشجيك في طيرانه التَحَلُّق

(١) الديارات لأبي الحسن الشاشني ورقة ١٣٠

أشبهتَ حربَ الظيرِ في غيظانه  
والزَّمجُ الغضبانُ في رهطِهِ له  
ورأيتَ للباريَّ سَطوةَ مويرِ  
كم قد صبوتَ بغيرتِي في شِرتِي  
وخلمتَ في طلبِ المجونِ جبايلِي  
ومهاجرِ ومكاسرِ ومنافرِ  
لو عينَ التفاحِ حمرةَ خده  
يا حاملَ السيفِ الغداةَ وطرفه  
ارفقَ بعبدِكَ لا تطلِ أشجانَه

لما تحرقَ منه كلَ محرقِ  
ينحطُ بينَ مُصرَعِدِ ومُبرقِ  
ولغيره ذلَّ الفقيرِ الملقِ  
وقطعتُ أوقاتِي بِرَمِيِ البُنْدُقِ  
حتى نُسِبتُ إلى فِعالِ الأخرقِ  
قلقَ الفؤادِ به وإن لم يقلقِ  
لصبا إلى ديباجِ ذاكِ الرونقِ  
أمضى من السيفِ الحسامِ المطلقِ  
وارفقَ به يا صاحبَ الشَّعرِ النقي

وهذا شاعر آخر من شعراء الإخشيديين هو عبد الله بن محمد بن أبي الجوع  
الذي صادق التنبي وروى عنه . وكان من كبار علماء اللغة في مصر .

كان هذا الشاعر يستبق اللذات ويهرع إليها في شعبان قبل أن يدركه  
الصوم<sup>(١)</sup> . ويدعو إخوانه إلى حفلةٍ مريحة فيها خمر ونساء وورد وغناء فيقول :

شعبان قد صار نَضوا  
وليس ذلك منّا  
فبالمودة إلّا  
حتى تقومَ فنزُفوا  
من بعد تقديمِ جدِي  
له ثلاثون يوماً  
لما انتزعتُ حشاه

ولم نُفد فيه لهُوا  
جهلاً ، ولا كان سهوا  
بكرتَ للقصفِ عدوا  
ما خرَّقَ الدهرَ رَفوا  
مُسَمَّنَ ظلِ يُشوي  
يجبوا إلى الضرعِ حَبوا  
عوضتُهُ البقلِ حَشوا

وقد عنيت بِجَامٍ مَلَأَهُ لَكَ حَلَوَى  
وقهوة بنتِ كَرَمٍ صَفَتْ من الذمِّ صفوا  
ما شُعمِشتَ قَطًّا إِلَّا سَطَّتْ على الهَمِّ سطوا  
جَنَّبَهَا كلَّ وَغْدٍ يَمحو المحاسن محوا  
إلا إذا ما اقْتَصْنَا عَذْبَ الخلائق حلوا

وشادِنِ ذى دلال يشدو فيلهيك شدوا  
إما غنَاءً وإما عجائباً عنه تروى  
حتى تظل بما فيهِ من وقاركِ خلوا  
وعندنا لك ورْدٌ يحدو المسرة حدوا  
ريحانُهُ لا يُوازَى لوناً وعطراً وسروا  
فما اعتذارك في أن تُفنى زمانك صحوا  
وأنت بعد قليل بالصوم ، والله ، تُطوى

والناحية اللفظية في هذه القصيدة رشيقة خفيفة مرصعة ، وهي قصيدة جميلة بما فيها من سهولة ورقة وحسن تल्पف وإغراء بالطعام والشراب والغناء والريحان . وترى في هذا الوصف الخاص مقدمة لما كثر في شعر الفاطميين والأيوبيين والمماليك من تعرض للحياة الخاصة في مثل هذا الأسلوب .

وله من قصيدته التي تقدمت في وصف « دير نهيا<sup>(١)</sup> » : أبيات في الربيع :

أو ما ترى وجه الربيع وقد زهت أنواره بنهاره المتألق  
وتجاوبت أطياره وتبسمت أشجاره من ثغر زهر مُورق

لم يَنْفُدها طل الرِّذاذِ بيرده حتى تفتَح كل جفن مطبِق  
والبدر في وسط السماء كأنه وجهٌ مليحٌ من قناع أزرق  
وللساعر صالح بن موسى في وصف الربيع وآثاره وأزهاره :

أو ما ترى حسن الريا ض وما اكتسين من الزهر  
وجه الربيع وجبذا وجه الربيع إذا ظهر  
الوشى يُنَشِرُ والملا حفُ والطارِفُ والحبر  
هذا البنفسجُ في الحدَا دِ بغير حُزنٍ قد ظهر  
وأتى البهَارُ بِصُفْرَةٍ فلكل حسنٍ قد بهر  
وكانَ آذِرِيُونَهُ كاساتُ حمرٍ تُبْتَدَرُ  
وكانما المنثورُ عِقْدُ دُ في جوانبه انتثر  
والأقحوان فضاحك عن عسجد فيه درر  
وشقائق النعمان كالـ أعلامٍ تمَّ لمن نظر  
وتوردَ الورد الذكـى وفاح مسكا في السحر  
وتجاوبُ الطيرُ الفصو نَ بكل لحنٍ مشهر  
فغرودُ حسن الفينا ءِ شدا وآخرُ قد زحمر  
وتسرقت أنفاسنا بنسيم أنفاس السحر

وقد ترى شاعراً يقدم كتاباً إلى صديق له فيجعل التقديم شعراً ، كما فعل

الحسن بن علي الأسدي لما بعث « كتاب الأنيس » إلى صديق له : (١)

قد بعثنا بمؤنس لك في الوحـ مدة يدعى كتاب الأنيس

فيه ما يشتهي الأديب من العلد      هم وفيه جلاء هم النفوس  
فيه ما شئت من بدور معان      ضاحكات إلى وجوه شمس  
والنفيس البهي ما زال يهدى      كل حين إلى البهي النفيس

وأثر من هذا المهد نوع من الشعر الذي سميناه الشعر القضائي . ومن ذلك  
أبيات قيلت في هجاء القاضي أبي بكر بن الحداد سنة ٣٢٤ والظمن في أحكامه (١) :

قولوا لحدادنا الفقيه      العالم الماهر الوجيه  
وليت حكماً بغير عهد      وغير عقد نظرت فيه  
ثم أبحث الفروج لما      وقعت فيها على البديه  
هذا فعال حملت فيه      وزرك مع وزرٍ من بليه  
وهل ترى ذا ولست فيه      يجازر من مخالفه  
أنكرت حالاً من ابن عمرو      ما أنت فيه ومرتضيه  
وخنت عهداً ، والله ربي      لناقض العهد مبتليه  
والمكر في الناس داء سوء      والمعجب أيضاً لمرتديه

وكانت ولايته من جهة الإخشيد ، وكان رجلاً فاضلاً عالماً فلما رميت الرقاع  
في المسجد تتضمن الظمن فيه ، ومنها هذه ، أجاز جماعة من المصريين عنها .  
ومدحه شاعر اسمه أحمد بن محمد بن أبي الكحال بقصيدة يقول فيها :

كالشافعي تفقهاً والأصم      سي تفكهاً ، والتابعي زهداً

ومدحه محمد بن موسى المعروف بسبيويه بقصيدة فيها :

ما يضر البحر أمسي زاخراً      أن رمى فيه صبي بحجر

وولى قضاء مصر رجل يسمى عبد الله بن أحمد بن شعيب ، ويعرف بابن  
وليد . وكان القاضي محمد بن بدر يكرهه ولا يثق بأحكامه ولا يكتبه ، فقال فيه  
من قصيدة طويلة<sup>(١)</sup> :

لو كنت تخشى قضايا المعادي لما      ألقيت في كل أمر فاضح علما  
أعنى عن الرشد في كل الأمور فقد      أصبحت في الدين بين الناس متهما  
يا ابن الوليد تدبر ما أتيت به      ولا تكن للهوى مستكلا عما  
لو كنت تسمع قول الحق معتمدا      أو كنت تخشى عذاب الله معتصما  
لما استمنت بحماد اللعين ، وما      رأيت أنت له في صالح قدما  
جمته كاتباً يفضي الأمور ولم      يحس في العلم قرطاساً ولا قلما  
وقد تولى جماعة من المصريين هجاءه أيضاً .

ولكن هذا الشعر كله — على ما في بعضه من جمال ورقة وطرافة — ترك  
الميدان لشعر المتنبي الذي روى الدهر قصائده معجباً بها ؛ في مصر وفي غيرها  
أكثر من ألف عام .

### المتنبي في مصر :

كان المتنبي في حلب شاعر سيف الدولة ، وكان يتعالى على الشعراء ويدل  
بنفسه وأديه على الأمراء ، فكثير حاسدوه ، وملئوا نفس سيف الدولة ،  
فسخط عليه . وأحس المتنبي أن حلب لم تعد المنزل الكريم الذي كان ينزله من  
قبل ، ففارقها إلى دمشق غضبان أسفاً .

وكانت شهرة المتنبي الأدبية تملأ الآفاق ، فلما وصل إلى دمشق أراد ابن ملك

(١) ملحق الكندي ص ٥٧٠

اليهودى — حاكمها من قبل كافور — أن يمدحه أبو الطيب ، فأبى ، وتركها إلى الرملة ؛ حيث الأمير الحسين بن طنج الإخشيد ، فمدحه ، ثم مدح أبا القاسم العلوى بعد تمنع وإباء .

### حرص كافور على المتنبى :

وكان كافور يقدر أدب المتنبى ، ويعرف فضله فى الإشادة بسيف الدولة ، ونشر اسمه فى الآفاق . فما إن أحس بالففور بينهما ، وبانتقال المتنبى إلى دمشق حتى طلبه من ابن ملك . فلما ارتحل إلى الرملة طلبه من أميرها الحسين بن طنج الإخشيد .

### مدحه وهجاؤه لكافور :

وجاء المتنبى إلى كافور بمصر فنزل عنده منزلاً كريماً ؛ ولكنه جاء وفى نفسه أشد الأسف لفراق سيف الدولة ، والتبرم بالأعداء الذين أوقفوا بينهما ، والسخط على الأصدقاء الذين لا وفاء عندهم ، وكان كبير الآمال طامعاً فى الحكم . فقدم على كافور راجياً أن يهب له ضيعة أو ولاية ؛ ولهذا نرى أكثر شعره فى مصر يدور حول هذه الأغراض : الحنين إلى المهد القديم ، والأمل فى المستقبل الباسم عند كافور ، والشكوى من الأيام والناس لما لقي منهم ، والفخر بنفسه وبأصله . وقد تجد ذلك كله فى أول قصيدة مدح بها كافوراً ، لما وفد عليه سنة ٣٤٦ . وهى التى مطلعها :

كنى بك داءً أن ترى الموت شافيا      وحسبُ النسايا أن يكسُن أمانيا  
تمنيتها لما تمنيت أن ترى      صديقاً فأعيا ، أو عدواً مُداجيا

ومنها :

حَبَّبْتُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مِنْ نَأَى  
وَأَعْلَمُ أَنْ الْبَيْنَ يَشْكِيكَ بَعْدَهُ  
وَتَحَدَّثَ عَنْ خَيْلِهِ الَّتِي سَارَتْ :

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارَكَ غَيْرُهُ  
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ  
ثُمَّ يَخَاطِبُهُ فَيَقُولُ :

أَبَا كُلِّ طَيْبٍ ، لَا أَبَا الْمَسْكَ وَحَدَّهُ  
وَيَسْأَلُهُ مَا يَرِيدُ فِي قَوْلِهِ :

وغيرُ كثيرُ أن يزورك راجلُ  
فقد تهب الجيش الذي جاء غازياً  
فيرجع ملكاً للمراقين والياً  
لسائلك الفرد الذي جاء عافياً

ويقول صاحب الصبح المنبئ<sup>(١)</sup> إن أبا الطيب سأل كافوراً أن يوليه صيداء من بلاد الشام ، أو غيرها من بلاد الصعيد فأبى ، وألح أبو الطيب ، فقال لكافور في شوال سنة ٣٤٧ هـ :

أَبَا الْمَسْكَ هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالَهُ  
وَهَيْتَ عَلَى مَقْدَارِ كَسْبِي زَمَانَنَا  
فَإِنِّي أَعْتَيْتُ مِنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ  
وَإِنِّي أَعْتَيْتُ عَلَى مَقْدَارِ كَفَّيْكَ إِنْ تَطْلُبُ  
فَجُودُكَ يَكْسُونِي وَشَغْلُكَ يَسْلُبُ  
إِذَا لَمْ تَنْطُبْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً

ولا تخلو قصائده بعد ذلك من هذه المعاني أو أكثرها ، وقد يضيف إليها هتافاً أو استبطاءً ، ولكن كافوراً اكتفى بالمال الذي كان يهب له ، والتكريم الذي كان يخصه به . ولم يعطه ضيعة ولا ولاية . فامتنع النبي عن مدحه زمناً ، وضاق ذرعاً

(١) هامش المكبري ج ١ ص ١١٥

به وبمن حوله ، وما لقيه منهم من جفاء وإعراض ، وحبسه كافور عن الرحيل ،  
فاحتال حتى خرج من مصر في يوم العيد سنة ٣٥٠ بعد أن قال في هجاء كافور  
قصيدة دالية مقذعة مطلعها :

عيدُ بآيةِ حالِ عدتِ يا عيدُ      بما مضى أم بأمر فيك تجديدُ

وطعن فيها كافورا طعنات جارحة إذ يقول .

إني نزلت بكذابين ، ضيفهمُ      عن القيرى وعن الترحال محدودُ  
جودُ الرجال من الأيدي ، وجودهمُ      من اللسان ، فلا كانوا ولا الجودُ !  
ما يقبض الموتُ نفساً من نفوسهمُ      إلا وفي يده من تنبها عودُ  
من كل رِخْوٍ وكاءِ البطنِ منفتقِ      لا في الرجال ولا في النسوان معدودُ  
أكلما اغتال عبد السوء سيدهُ      أو خانه فله في مصر تمهيدُ !  
صار الخصى إمام الآقين بها      فالحرُّ مستعبدٌ ، والعبدُ معبودُ  
نامت نواطيرُ مصر عن شمالها      فقد بِشَمْنٍ وما تفنى العناقيدُ  
العبد ليس لحر صالح بأخٍ      لو أنه في ثياب الحرِّ مولودُ  
لا تشتري العبدَ إلا والعصا معه      إن العبيدَ لأنجاسُ مناكيدُ  
إلى آخر هذه القصيدة .

وهجاء ، وذم أهل مصر معه ، وحرص على قتله ، فقال :

ساداتُ كلِّ إنسانٍ من نفوسهمُ      وسادةُ المسلمين الأعبدُ القُزْمُ  
أغايةُ الدين أن تُحفوا شواربكم      يا أمةً سخَّكت من جهلها الأممُ  
ألا فتى يوردُ الهنديَّ هامتهُ      كما تزولُ شكوكُ الناسِ والهم!

ويقول في مصر وما فيها من المضحكات وانقلاب الأوضاع كارتفاع الوزير ابن  
الفرات وكافور ، اللذين سادا وخضعت لهما الرقاب .

وكم ذا بمصرَ من المضحكاتِ      ولكنه ضحك كالْبُكا  
بها نَبَطِيٌّ من أهل السواد      يُدرِّسُ أنساب أهل العُلا  
وأسود مشْفَرُهُ نصفُهُ      يقال له أنت بدرُ الدُّجى !

أراد بالنبطي الوزير ابن الفرات . وأراد أن يثير أهل البلاد على كافور ووزيره .  
فأتهمه بقتل مولاه بعد خيانتة ، وعجب أن يكون ذلك مبرراً للحكم في مصر ،  
وتحدث عن أصله الذي لا يرفعه إلى أى مقام ، بله الإمارة ، وحرص عليه علانية  
« كما تزول شكوك الناس واتهم » .

### بعض خصائص المدح والهجاء عنده:

ويظهر أن المتنبي اعتمد كثيراً على اسم كافور وأصله وجسمه ولونه في مدحه  
وهجائه له ، كما كان يحاول ذلك في أكثر مدحه وهجائه ، وتراه يحسن الانتفاع  
بذلك إلى حد كبير ، فيجمل أبا المسك « أبا كلَّ طيبٍ لا أبا المسكِ وُحده » .  
ويرى أن كنيته بأبي المسك ليست من ذلك المطر الأسود ولكنها من عاطر الثناء عليه :

وَمِيسِكَ يَكْنِي بِهِ لَيْسَ بِالْمَسْكِ      ولكنه أَرِيحُ الثناء

وأن سواد الجلد ليس أمراً إذا قيس ببياض النفس وصفائها :

إنما الجلدُ ملبسٌ ، وأبْيَضاضُ النَّفْسِ      خَيْرٌ من ابيضاضِ القَبَاءِ

بل جاوز المتنبي هذا الحد ، فجعل السواد أمانة الملوك ، ولكن من

لهم به !

مَنْ لَبِيضُ الْمُلُوكِ أَنْ تَبْدَلَ الْأَسْوَدُ      يَلُونِ الْأَسْتَاذِ وَالسَّحْنَاءِ

ولكنه حين يسخط ويقسو على كافور يذيقه العذاب الأليم من هذه العيوب  
فيجمله — فيما رأينا — « رِخْوَ وكاءِ البطن » ، لا يمد في الرجال ولا في النسوان  
ويجمله « أمة حبلى » « وأسود مشفره نصفه » ، ويفكر عليه أن يصل إلى  
أى فضل أو مكرمة لأنه وضع الأصل :

من عَمَّ الأسودَ المحصى مَكْرَمَةٌ      أقومُه البيضُ أم أبأوه الصَّيدُ  
أم أذنه في يد النخاسِ داميةً      أم قدره وهو بالفلسين مردود  
ويصغره بتصغير اسمه ، فيقول :

أولى اللثامِ كَوَيْفِيرٌ بمعدرة      في كل لؤم ، وبمضُ العُذْرُ تفنيدُ  
وذاك أن الفحولَ البيضَ عاجزةٌ      عن الجميل فكيف الحصىة السود  
ويسخر منه فيقول :

ويعجبنى في النمل رجلاك إننى      رأيتك ذا نَمَلٍ إذا كنتَ حافيا  
وإنك لا تدري ألونك أسود      من الجهل ، أم قد صار أبيض صافيا  
ويجمله غاية في إثارة الضحك وطرده أحزان الشكالى ، فيقول له :

ومثلك يؤتى من بلادٍ بعيدةٍ      ليضحك رباتِ الحدادِ البواكيا

أما أصل كافور فكان موضع عناية أبي الطيب مدحاً وهجاءً ، وكان يبدع  
حينما يغالط على طريقة الشعراء ، فيجعل أفعال كافور تعنى عن النسب فيقول :

وينيك عما ينسبُ الناسُ أنه      إليك تناهى المكرُماتِ وتُنسبُ  
وأى قبيلٍ يستحقك قدره !      مَعْدُ بنِ عدنانِ فذاك وَيَمْرُبُ

ثم هجا أصله فرده أسفل سافلين ، وذمه وذم كل عبد معه إذ قال : « إن العبيد

لأنجاس منكيد » وقال : « العبد ليس لحر صالح بأخ » ، وشعراً كثيراً في رقه ،  
وبعده عن المكارم لضمة أصله ، وبطء نسبه .

وكان هذا الاعتماد على اللون والاسم والأصل والجسم إبداعاً من المتنبي  
في عصر ساد فيه البديع ، ولسكنك لا تحس بشيء من التكلف في تلاعب المتنبي  
بإسم كافور أو لقبه أو لونه ، إذ أنه كان يرى بعقله وذكاؤه مواطن المدح والذم في هذه  
النواحي ، فيصوغها صياغة فريدة تبمدها عن التكلف والثقل .

### حساده بمصر :

وكان لأبي الطيب حساد بمصر نقدوا أدبه ، وحرفوا معانيه ، وتبعوا عثراته ،  
ومن هؤلاء : الوزير جعفر بن الفرات الملقب بابن حنزابه ، ومحمد بن موسى الملقب  
بسيويه المصري ، والشاعر صالح بن مؤنس ، وكان أصل هذا الحسد أو العداوة  
أن المتنبي أبي أن يمدح هذا الوزير فسخط عليه ، وأثار خوف كافور منه . فكان  
سبياً في حرمانه أن يقال ضيعة أو ولاية كما كان يرجو .

أما سيويه المصري فكان نحويّاً أديباً ناقداً ، ولعل ابن حنزابه أثاره على  
المتنبي فكان يتلمس أخطائه ويذمها . ومن ذلك أنه عاب عليه قوله :

أبا المسك هل في الكأس فضل أنا له فإني أغنى منذ حينٍ وتشربُ  
وعد ذلك استهانة بكافور واتهاماً له بالبخل ، وعد من قلة الذوق أن يقول

المتنبي لكافور :

وما طربني لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

وقال إنه جعل الأمير كالفرد يتراحم الناس عليه ليطربوا برؤية الأعيه .

ويُجْهَل المتنبي بالنحو لأنه رفع الفعل ( أطرب ) والواجب أن ينصب لأنه

معطوف على « أرى » .

وروى أن سيويه كان يقول : مدح الناس المتنبي لقوله :  
ومن نكيد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بدء  
ولو قال : « من مداراته أو مداجاته بد » لكان أحسن . وقيل إن المتنبي  
اجتاز به فقال له : بلغني أنك أنكرت على قولي : « عدواً له ما من صداقته بد »  
فما كان الصواب عندك ؟ فقال له : إن الصداقة مشتقة من الصدق في المودة ،  
ولا يسمى الصديق صديقاً وهو كاذب في مودته ، فالصداقة إذاً ضد العداوة ،  
ولا موقع لها في هذا الموضع . وجاءه بشاهد من الشعر . فتبسم المتنبي وانصرف  
وسيويه بصييح عليه : أبكم الرجل وجلال الله (١) .

وقول المتنبي قول شاعر يتصرف في اللغة أكثر من حدود القواميس .  
ولا أظنه كان يمجز عن الرد على سيويه ، وأن يخرج البيت على أن المراد بالصداقة  
آثارها كالتبسم والتلطف والمجاملة الخ ، ولكن المتنبي أهمله هنا كما أهمل ابن خالويه  
وأمثاله في الشام ، وأظن ابتسامته بعد ما سمع نقد سيويه كانت ابتسامته استهزاء .  
على أن المدح الذي يشمل من اللعاني ما يجرح كافوراً أو يحقر من شأنه كان  
أشد فعلاً في نفس كافور ، كالبيت المتقدم ، « وما طربني لما رأيتك بدعة » .  
وقوله :

ولله سر في علاك ، وإنما كلام العدا ضرب من الهديان  
وكذلك كان إكثار أبي الطيب من الإشارة إلى سواده في مدحه ؛ مهما أجاد  
في ذلك .

وكان المتنبي يمحرم من يعجب به ويروي شعره من الأدباء ، كأبي علي صالح  
ابن رشدين الكاتب الشاعر . يقول فيه صاحب يتيمة الدهر (٢) « أحد أئمة  
الكتاب ، المهرة في سائر الآداب ؛ صحب المتنبي وروى شعره » .

(١) الصبح المنبي ص ١١٨ وما بعدها على هامش المكبري ج ١

(٢) ج ١ ص ٣٥٧

ومنهم عبد الله بن أبي الجوع الأديب الكاتب الشاعر « أحد رواة المتنبي الأديباء ، وأصحابه العلماء ، ومن عمهر في لغة العرب ، وأجاد أنواع الأدب<sup>(١)</sup> » .  
وسبق له بعض الشعر الجميل .

### وصف مصر :

ويؤخذ على المتنبي أنه فتح عينيه على جمال الريف المصرى ، وعظمة النيل ، وضخامة الأهرام ، فلم تحرك مشاعره هذه المناظر ، ولم تثر خياله تلك المعجائب ، ولم يؤثر عنه إلا بيت واحد في الأهرام ، قاله عرضاً في رثاء فاتك أبي شجاع : وهو  
أينَ الذى الهرمان من بنيانه ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصراع؟  
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ، ويدركها الفناء فتتبع  
والحق أنه كان منصرفاً عن هذا كله ، كما انصرف عما رأى بالشام من جمال المناظر وسحر الطبيعة ، لأنه كان مشغولاً بأشياء آخر ملكت عليه قواده وشعوره ؛ كطلب المال والولاية ، فانصرف إلى المدح والهجاء والفخر وشكوى الزمان وسوء الحظ ، ولو أنه انصرف إلى شيء من وصف الطبيعة والآثار لجرى لسانه بالسحر الحلال ، كما فعل عندما وصف شعب بوان ، عرضاً ، وهو ذاهب إلى مدح عضد الدولة .

### وصف الحمى :

وقد أثرت ظروفه الخاصة في شعره ، ومن ذلك قصيدته التى يصف فيها الحمى لما أصابته بمصر ، وصفاً يبدأ بعد من عيون الشعر العربى ، واستقلت القصيدة به إلا قليلاً من الأبيات التى لم تخل من شكوى أو حكمة أو شبه ذلك ؛ فإنه شكا فيها النفاق

وشك في الود . ولعل الدافع إليها كان الشكوى من الزمان ، والرغبة في الفخر  
أكثر من وصف الحمى حيث يقول :

فلما صار ودُّ الناس خِيبًا      جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامٍ  
وصرت أشك فيمن أصطفيه      لعلمي أنه بعضُ الأنامِ  
ومنها :

ولم أر في عيوب الناس شيئًا      كنتقص القادرين على التمام  
ويبدأ حديثه عن الحمى وما فعلت به فيقول إنها أقعدته وألزمته الفراش ،  
واستمع إليه وهو يقول :

أقت بأرض مصر فلا ورائي      تحبُّ بي الطي ولا أمانِي  
وملّسني الفراشُ وكان جنبي      يملُّ لقاءه . في كل عام  
قليلٌ عائدي ، سقيمٌ فؤادي      كثيرٌ حاسدي ، صعبٌ مرأى  
عليلٌ الجسم ، ممتنع القيام      شديدُ السكر من غير المدّامِ  
وكانت تزوره غبا ، وتضنيه ليلا ، وتوسمه سقاما ، وتفرقه في عرقه ، وكان  
يخشى موعدها ، ويكره صدقها ، ويحس بذلك كله في نفسه ، فينطلق به لسانه  
مصبوغاً بصيغة أدبه من قوة التعبير ، وضخامة الألفاظ ، وحسن التعليل وجمال  
الخيال فيقول :

وزائرتي كأنَّ بها خيَاءً      فليسَ تزورُ إلا في الظلامِ  
بذلت لها المطارفَ والحشايا      فعافتها وباتت في عظامي  
يضيقُ الجلدُ عن نَفْسِي وعنِها      فتوسعه بأنواع السقامِ  
وانظر إلى التعليل الغريب لما يصيبه من عرق الحمى عند انتهاء نوبتها إذ يقول :  
إذا ما فارقتني غسلتني      كأنَّ عاكفان على حرامِ  
كأن الصبح يطردها فتجري      مدامعها بأربمة سجامِ

أراقبُ وقتها من غير شوق      مراقبةَ الشُّوقِ المُستَهامِ  
ويصدقُ وعدُّها ، والصدقُ شرٌّ      إذا ألقاك في الكُربِ العِظامِ  
ويعجب من وصولها إليه على رغم الشدائد التي تراحت ، وكانت جديرة أن  
تحول بينها وبينه فيقول :

أبنتَ الدهرِ ، عندي كلُّ بنتٍ      فكيفَ وصلتِ أنتِ من الرِّحامِ !  
جرحتُ مُجرَّحاً لم يبق فيه      مكانٌ للسيوف ولا السِّهَامِ  
ثم يحرص على أن يتخلص إلى الفخر والشكوى فيقول :

يقول لى الطبيب أكلت شيئاً      وداؤك في شرابك والطعامِ  
وما في طِبِّهِ أنى جَوادٌ      أضراً بجسمه طول الحمامِ  
ثم يقول :

فإن أمرض فما مرض اصطياري      وإن أُحَمُّ فما حُمٌّ اعتزاي  
وإن أسلم فما أبقى ، ولكن      سلمتُ من الحمامِ إلى الحمامِ  
وزى كثير من الأبيات التي تسير مسير الأمثال في هذه القصيدة ، كما نرى بعض  
المعاني المتأثرة بالفلسفة في صورة أدبية قوية كالبيت الأخير .

### صلاته بأبي شجاع فاتك .

وهناك وال آخر مدحه المتنبي بمصر ، ورثاه بعد موته ، وصدقه المحبة في شعره  
مادحاً ورائياً ، هو أبو شجاع فاتك ، الذي كان مولى للاخشيد مع كافور . وكان يحكم  
الفيوم ويقوم بها ، واشتدت به العلة فقدم مصر للتداوى سنة ٣٤٨ ، وأبو الطيب  
فيها . وكان يسأل عنه قبل أن يراه ؛ ثم التقيا ، وأهدى إليه فاتك هدايا متتابعة  
كانت أولها ألف دينار . فاستأذن أبو الطيب كافوراً في مدحه فأذن له ، فدحه

بقصيدة من خير قصائده مطلعها :

لا خيلَ عندك تهديها ولا مالُ      فليُسعِدِ النطق إن لم يُسَمِدِ الحال .  
واجيزِ الأمير الذي نَماءُ فاجئُهُ      بغيرِ قولٍ ، ونمىَ الناسَ أقوال .  
وكان فاتك يلقب المجنون لشجاعته فقال فيه .

وقد يلقبه المجنون حاسده      إذا اختلطن وبمض العقْل عَقَّال

إذا العدى نشبت فيهم مخالبه      لم يجتمع لهم حلم ورثبـال

وظل المتنبي وفيآله بعد موته فرثاه بعد أن ترك مصر سنة ٣٥٠ في القصيدة

العينية التي مطلعها :

الحزن يقلق والتجمل يردع      والدمع بينهما عصي طيِّع

وهي من المراثي الفارقة . ورثاه بأبيات في قصيدة أخرى قالها بعد خروجه

من بغداد سنة ٣٥٢ مطلعها :

\* حتام نحن نساىى النجم فى الظلم \*

وقد ضرب مثلا عظيما فى الوفاء بهذا الرثاء .

ثم يأتى الفاطميون إلى مصر وتستقل عن العباسيين استقلالاً يظهر أثره فى

أدب العصر التالى .

# الفصل الثاني عشر

## المؤثرات في هذا الأدب

يتأثر الأدب بمؤثرات متعددة تطبعه بطوابع خاصة ، وتزاحم هذه المؤثرات أحياناً ، وتتعاون أحياناً ، ويختلف بعضها ، كما يتغلب بعضها ويكون صاحب الأثر الأول . والمؤثرات التي يُحتمل أنها أثرت في هذا الأدب ، أو كان يجب أن تؤثر فيه هي :

### ١ - البيئة :

وتقصد بها مصر بنهرها العظيم ، وواديها الخصيب ، وزروعها الناضرة ، وجناتها الظليلة المثمرة ، وصحرائها الشاسعة ، وجبالها الكثيرة ، وهوائها الجميل ، وجوها المعتدل .

وهذه البيئة لم تترك في الأدب العربي إلا آثاراً قليلة كرسالة عمرو في وصف البلاد ، وهي أقوى ما أثر ، على الرغم من أنها لم تكن مقصودة لذاتها - وهناك أبيات ثلاثة قالها ابن قيس الرقيات في « حلوان ذى الكروم » وما حولها ، وأبيات له في وصف السفن التي غدت من الكريون « إلى حلوان تستبق<sup>(١)</sup> » . وقد تجد بعض أسماء الأماكن المصرية ، واسم مصر نفسها ، يتردد كثيراً في الأدب ، والشعر خاصة ، ولكنه لا يتجاوز سرد الأسماء .

(١) ٧٨ ، ١٤٧ ، ١٤٩ من هذا الكتاب .

ولا نجد وصفاً أدبياً جميلاً لهذه البيئة ، أو أدباً من وحيها إلا في عهد الإخشيديين لما ظهر شعراء الأديرة الذين وصفوا ماحولها من متزهات؛ وتحدثوا عنها في الربيع فأكثرُوا الحديث عن أزهارها وأطيّارها ، ومزجوا ذلك بذكريات الأيام الجميلة التي استمتعوا فيها بالشباب والشراب والصيد واللهو في تلك المتزهات والأديار .

وأما النيل فكان وحيه ضعيفاً إلى الأديباء على الرغم من قوته وسحره ، وخيراته ووضوح آثاره واختلاف أحواله على مدى العام . ومن هذا الوحي الضعيف قول نصيب في مدح عبد العزيز بن مروان ، يشبهه بالنيل في الكرم والخير .

فبشر أهل مصر فقد أتاهم مع النيل الذي في مصر نيل  
وقول أبي نواس يقرن الخصب به في اليمن والبركة :

النيل ينعمش ماؤه مصرا      ونذاك ينعمش أهله الغمر  
وقوله في ذم أهل البلاد :

أموالكم حجة والبخل عارضها      والنيل مع جوده فيه التماسيح

وقد ترى أحاديث عنه في الكلام عن المعائب ، أو حين التحدث عنه جغرافياً كوصفه من منبعه إلى مصبه ، وهو وصف لم يقصد به الأدب .

## ٢ — الثقافة :

وشاعت في البلاد من أول الإسلام ثقافة إسلامية عمادها العلوم الشرعية واللسانية ثم شاركها الثقافة العقلية ، ولم يكن لهذه الثقافة في الأدب المحض ، بشعره ونثره ، أثر يذكر ، ولكن كان لها أثر قوي في مجالس العلم وكتب العلماء ، ومناظرات أهل المذاهب والعقائد ، يبدو في الموضوعات التي كان يدرسها أولئك العلماء ، وفي طرق البحث كالمنايا بالاستقصاء ، والاعتماد على المنطق المنظم والنصوص وراء المعاني الدقيقة ، والتماس الأسباب والملل . وغير ذلك مما يطبع مجالس العلم وأبحاث العلوم . وفي كتب الفقه عند الشافعية والمالكية والحنفية بمصر كثير من

هذه المجالس والمناظرات . وأمثلة للغة العلم والجدل . أوضحها استخدام ألفاظ وجل اصطلاحية محدودة المعاني دقيقة الاستعمال .

وإذا كان لمدرسة الاسكندرية ، أو لقوانين الرومان أثر في العقل العربي . والتشريع الإسلامى بمصر فقد كان ضعيفاً أيضاً تتلمسه تلمسا . وأكثر تأثرها بالفلسفة اليونانية كان عن طريق العراق .

ومن آثار الثقافة الإسلامية في الأدب ما تراه في اقتباسه لغة القرآن الكريم كقول المولى الطائى :

لا نلتقى أبداً معاينة حتى تقوم لربنا صفا

وقول الجيشى فى آل طولون :

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غاب ذهبها

وكم تركوا من جنة أنف ومن نعيم جنى من غدرهم غضبا

وقوله فى شوق البلاد إلى ابن الخليج :

وما شوقها كان من طبعها ولكن ربك أوحى لها

وقول سعيد القاص لبدر الحمأى المتغلب على ابن الخليج :

فاسعد بنصر الله والفتح الذى عظمت به النعمى على الأبرار

٣ — القمد :

وللنقد أثره فى الأدب فإنه يبصر الشعراء والكتاب بعيوبهم ، ويدعوهم إلى التجديد أو الإجابة . وكان بمصر نقد أدبى يخشى . ونسمع به لأول مرة فى عهد عبد العزيز ابن مروان عندما وفد نصيب عليه وأراد أن يصل بمدحه إلى مسامعه ، فحذره صاحبه المصرى أن ينتحل ؛ لأن الأمير أديب راوية وعنده رواية<sup>(١)</sup> خبراء .

وانظر إلى قول أمية بن أبى عائذ فى عبد العزيز<sup>(٢)</sup> :

تسير بمدحى عبد العزيز من ركبأن مكة والمنجدونا

(٢) الأغاني ج ٢٠ — ١١٥

(١) ص ١٣١ من هذا الكتاب

مَجْبَرَةٌ مِنْ صَرِيحِ الْكَلَامِ لَيْسَتْ كَمَا لَفَّقَ الْمُحَدِّثُونَ  
وَكَانَ امْرَأً سَيِّدًا مَاجِدًا بَصَنَّى الْعَمِيقَ وَبَنَى الْهَجِينَا  
وَكَانَ بِمِصْرَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ سَرَجُ الْغَوْلِ يَسْتَدْعِيهِ الشَّافِعِيُّ لِيُنَظِرَهُ وَيَذَاكِرَهُ ،  
وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَلِيًّا بِاللُّغَةِ ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ شَيْئًا مِنَ الشُّعْرِ إِلَّا عَرَضَهُ عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> .  
وَنَسْمَعُ بِهَذَا النِّقْدِ مَرَّةً أُخْرَى فِي هِجَاءِ أَبِي تَمَامٍ لِيُوسِفَ السَّرَاجِ الَّذِي عَابَ  
عَلَيْهِ مِيلَهُ عَنِ السَّهْلِ مِنَ الْمَعَانِي حَتَّى احْتَاجَتْ فِي فَهْمِهَا إِلَى فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ <sup>(٢)</sup> .  
وَالَكِنْ مَا أُرْ هَذَا النِّقْدِ فِي نَفْسِ السَّرَاجِ ؟

وَنَسْمَعُ بِمِثْلِ ذَلِكَ بِوَقَائِعٍ مَعِينَةٍ فِي النِّقْدِ عِنْدَمَا جَاءَ الْمُتَنَبِّيُّ إِلَى مِصْرَ ، فَأَنَارَ عَلَيْهِ  
ثَائِرَةَ سَيِّوِيَةَ الْمِصْرِيِّ وَصَالِحَ ابْنِ مَوْسَى وَغَيْرَهَا بِسَبَبِ مَا رَأَوْهُ مِنْ عَيُوبِ لَفْظِيَّةٍ  
وَمَعْنَوِيَّةٍ فِي شِعْرِهِ ، وَلَمْ يَتْرِكْ هَذَا النِّقْدَ أَيُّ أُرْ فِيهِ لِاعْتِدَادِهِ بِنَفْسِهِ .

لَكِنْ دِرَاسَةُ الْأَدَبِ وَنِقْدُهُ فِي مِصْرَ قَدْ تَرَكَآ أَثْرًا فِي الْأَدْبَاءِ وَتَوَجَّهًا لَهُمْ بِمَا  
كَانَ يَقُومُ بِهِ أَسَاتِذَةُ النُّحُوِّ وَرَوَاةُ الْأَدَبِ مِنْ ثَنَاءٍ وَذَمٍّ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ ، أَوْ بَعْضِ  
النُّصُوصِ وَكَانَ لَهُذَا النِّقْدُ وَالدِّرَاسَةُ مَجَالِسَ فِي الْمَسَاجِدِ أَوْ فِي بُيُوتِ الْخَاصَّةِ ،  
وَقد يَخْتَلِطَانِ بِدُرُوسِ النُّحُوِّ عِنْدَمَا يَسْتَطِرِدُ الْعَالَمُ مِنَ الشَّاهِدِ إِلَى بَقِيَّةِ الْقَصِيدَةِ  
أَوْ عِنْدَمَا يَنْقُدُ الْبَيْتَ أَوْ الْأَبْيَاتَ الَّتِي يَعْضُضُ لَهَا . كَمَا كَانَا يَتَّصِلَانِ بِرِوَايَةِ  
الْأَخْبَارِ وَالْأَشْعَارِ .

### ٤ — الاتجاه الأدبي العام :

وَنَذَكُرُ جَيِّدًا أَنَّ تَأْثِيرَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْعَامِ وَبِخَاصَّةٍ فِي حَوَاضِرِ الْخِلَافَةِ كَانَ لَهُ  
أَثْرُهُ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِمِصْرَ . فَالشُّعْرَاءُ الَّذِينَ رَحَلُوا إِلَى مِصْرَ كَانَتْ مَدَائِحُهُمْ لِعَبْدِ  
الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ مُتَقَارِبَةً ، وَكَانَتْ صُورَةٌ مِنَ الْمَدَائِحِ الْعَامَةِ الَّتِي كَانَ يَفْدِيهَا غَيْرُهُمْ  
مِنَ الشُّعْرَاءِ . وَيُقَالُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَدْحِ أَوْ الْهَجَاءِ الَّذِي رَأَيْنَاهُ مِنْ أَبِي نُوَاسٍ وَأَبِي  
تَمَامٍ وَدَعْبَلٍ ، وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الْأَسَالِيبُ وَالْمَبَارَاتُ .

(٢) ص ٢٢٤ من هذا الكتاب

(١) بغية الوعاة ص ٢٥٥

والأدب المحلى كان يتأثر بهذا الأدب العام كثيراً ، وانظر إلى مدحة المعلى لعبد الله بن طاهر ، وهجاء الحسين الجمل لابن وهب<sup>(١)</sup> .  
ولما شاعت المحسنات البديعية في العراق ظهر أثرها في مصر . وكانت الكتابة في العراق ذات أثر بعيد في الكتابة المصرية حتى في عهد الطولونيين والأخشيدين وتعميل ذلك يسير فقد كانت الحواضر وما زالت ذات نفوذ واسع على غيرها من أمصار الدولة ، في الأدب والثقافة والفنون ، ويقلدها النازحون عن هذه الحواضر إكباراً لها ولرجالها . فإذا ضعفت سيطرتها ظهر استقلال الأمصار بأدبها وظهرت فيه طوابع محلية خاصة تميزه من غيره .

#### ٥ - التاريخ الحديث :

أما تاريخ البلاد من الفتح الإسلامي ، فكان مسيطراً إلى حد كبير على أدبها ، وقد رأينا صداه في الرسائل والخطب ، وظل هذا الصدى قوياً فيما قيل من أشعار في الأحداث والفتن والحروب والمناسبات التاريخية ، كما بيناه في ثنايا الكتاب .

#### ٦ - التاريخ القديم :

ولكن لهذه البلاد تاريخاً قديماً ، وحضارة عظيمة عاشت آلاف السنين ، وكان لأهلها في هذه الآلاف من السنين علوم وفنون خلدها آثار لا تخشى البلى ، على سطح الأرض وفي جوفها . وكان للبلاد أدبها الذي نبقت أساطيره قبل الملك « مينا » ؛ وتنوع ، ونقش على الصخر ، وسطر على البردى .  
وكانت آثار البلاد كثيرة بعضها شامخ كالأهرام الكثيرة المتفرقة في أنحاء البلاد ، والمسلات الباسقات ، والمعابد والبرابي ، في الأقصر ، والكرك وندره وأخميم ، وغيرها من مواطن الآثار الفرعونية ، كما كانت الاسكندرية موطن الفن اليوناني والروماني ومن أشهر آثاره المنارة وعمود السوارى .

(١) ص ٢٠٩ ، ٢١٣ من هذا الكتاب .

وسمى العرب هذه الآثار بالمعجائب ، وعد الجاحظ منها عشرين عجبية ، فيما نقله عنه المقرئى<sup>(١)</sup> .

وما خفي من هذه الآثار في جوف الأرض كان عظيماً أيضاً ، ولم يسلم من العبث به وهتك أستاره منذ العهود القديمة . ولم يكف لصوص المقابر عن انتهاك حرمتها طلباً للذهب الذي كان يملؤها .

وليس غريباً أن نجد المصريين في الإسلام يطلبون الثروة من الكنوز الدفينة في هذه المقابر ، التي كانوا يسمونها « المطالب » ، وأن تروى عن ذلك قصص وأخبار . ونسمع بذلك لأول مرة في عهد عبد العزيز بن مروان : فإن المسمودي<sup>(٢)</sup> يحدثنا حديثاً عجيباً عن مطلب من هذه المطالب كشف في عهد عبد العزيز؛ وأنه أمد الباحث عنه بالمال ، لما أخبره بما فيه من المعجائب ، وكان منها ديك على عمود من الذهب، وعيناه ياقوتتان تساويان الدنيا ؛ وأن الرجال حفروا حتى وجدوا رأس الديك . « فبرق عند ظهوره لمعان عظيم كالبرق الخاطف » . وركب عبد العزيز إلى ذلك الموضع « فنظر إلى ما ظهر من ذلك ، فأسرع بعضهم فوضع قدمه على درجة منسبكة من نحاس تنتهي إلى ما هنالك ، فلما استقرت قدمه على المرقاة الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها ، فالتفا على الرجل فلم يدرك حتى جزأه قطعاً وهوى جسمه سفلاً . فلما استقر جسمه على بعض الدرج ... صفر الديك تصفيراً عجيباً ... وحرك جناحيه ، فظهرت من تحته أصوات عجبية قد عملت بالكواكب والحركات ، إذا ما وقع على بعض تلك الدرجات شيء أو ماسها تهافت ما هناك من الرجال إلى أسفل تلك الحفيرة . وكان فيها ممن يحفر ويممل وينقل التراب ، ويبصر ويتحرك ، ويأمر وينهى ، نحو ألف رجل ، فهلكوا جميعاً . فجزع عبد العزيز وقال : هذا ردم

(١) الخطط ج ١ ص ٣١ (٢) مروج الذهب ص ١٥٧ المطبعة الأزهرية

عجيب الأمر ، ممنوع النّيل ، نعوذ بالله منه . وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس فكان ذلك الموضع قبراً لهم .

وفي عهد الطولونيين كانت منطقة الأهرام وعين شمس موطن البحث عن هذه المطالب أو الكنوز ، وعثر فيها على توابيت وموميات وتماثيل جميلة الصنع . روى أن ابن طولون ركب يوماً إلى الأهرام<sup>(١)</sup> فجاءه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف ، وفي أيديهم مساح ومعاول فسألهم عما يعملون ، فقالوا : نحن قوم نطلب المطالب ، فأمرهم ألا يفعلوا ذلك بعد الآن إلا بإذنه ، ويكون معهم رجل من قبله . ثم ذكروا له أن في سمات الأهرام مطلباً قد عجزوا عنه ، فأمدهم بالنفقات الكثيرة اللازمة لاستخراجه ، فكشفوا عن حوض كبير عظيم مملوء بالدنانير ، وعليه غطاء مكتوب عليه ، فأحضروا من قرأه .

وروى السيوطي في حسن المحاضرة<sup>(٢)</sup> أن أحمد بن طولون لما ملك مصر حفر على أبواب الأهرام فوجدوا في الحفر قطعة مرجان مكتوباً عليها سطور باليوناني فأحضر من يعرف ذلك القلم فإذا هي أبيات شعر فترجمت ومما كان فيها :

ستفتح أقالى وتبدو عجائبي      وفي ليلة في آخر الدهر تنجم

ثمان وتسع واثنتان وأربع      وسبعون من بعد المئين فتسلم

ومن بعد هذا جزء تسعين برهة      وتلقى البرابي صخرها وتهدم

تدبر فعالي في صخور قطعها      ستبقى وأفنى قبلها ثم تعدم

فجمع أحمد بن طولون الحكماء وأمرهم بحساب هذه المدة فلم يقدرُوا على تحقيق ذلك ، فيئس من فتحها .

وروى أنه في عهد ابن طولون ، وجد الكثر المشهور بعين

(١) سيرة ابن طولون للبلوي ص ١٩٤

(٢) ج ١ ص ٩ وهامش السيرة المذكورة ص ١٩٥

شمس ، وآتى له منه ببيت وعلى صدره لوح ذهب مكتوب بالقبطية ، فقريء ، فإذا فيه : أنا أكبر الملوك ، وذهي أخلص الذهب ؛ فحمل ذلك ابن طولون على تعديل نسبة الذهب في نقوده .

وكان في عين شمس صنم على مقدار الرجل المعتدل الخلق ، من كذآن<sup>(١)</sup> أبيض ، حسن الصورة ، يخيل لمن استعرضه أنه ينطق ، ووصف لابن طولون فأحب رؤيته ، فخوفه خادم نصراني ثقة أن يراه ، لأنه ما رآه وال قط إلا غزل ، لكن ابن طولون ركب إليه في سنة ٢٥٨ ، فتأمله ، ثم أحضر القطاعين وأمرهم أن يجثوه من الأرض حتى درس وعفا خياله ، وذرى ما بقي حياله في الصحراء . وعاش ابن طولون بعده اثنتي عشرة سنة .

وترى رغبة القوم في حب المعرفة وكثرة الأسئلة عن أشياء تتصل بالنيل والآثار مما رواه المسمودي<sup>(٢)</sup> عن أحمد بن طولون أنه استدعى رجلاً قبطياً من الصعيد الأعلى عمره مائة وثلاثون سنة ، ليسأله عن أشياء من ذلك ، فجاءوا به سنة نيف وستين ومائتين . ووكل به ابن طولون من يسأله ، فسأله عن بحيرة تنيس ودمياط فأخبر أخباراً عجيبة ، منها أن بحيرة تنيس « المنزلة » كانت جنات وبساتين ، وأن البحر بين العريش وبين جزيرة قبرص كان ينسأ .

وسئل عن الأهرام فقال<sup>(٣)</sup> : إنها قبور الملوك . ثم سئل كيف بنيت الأهرام المملسة فأخبرهم ، فقيل له : « ما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابي لا تقرأ . فقال : دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول مصر الأمم فغلب على أهلها القلم الرومي ... على حسب ما ولدوه من الكتابة بين الرومي والقبطي الأول » .

(١) حجارة . سيرة ابن طولون للبلوي .

(٢) (٣) ج ١ ص ١٥٠

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٤٩

وكان لهذا العالم القبطي مجالس كثيرة<sup>(١)</sup> عند أحمد بن طولون .

وكان في عصر الإخشيد تنقيب وبحث .

قال المسعودي : « إن جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الأمم المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب يبعث الأفلام السالفة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام بأن فيه مطلباً عجيباً ، فأخبروا الإخشيد محمد بن طنج بذلك ، فأذن لهم في حفره وأباحهم استعمال الحيلة في إخراجها فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء ، وحجارة مجوفة في صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء ، والصور مختلفة : منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أعينهم من أنواع الجواهر كاللياقوت والزمرد والفيروزج والزربرد ، ومنها ما وجوهها ذهب وفضة ، فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا في أجوافها رمماً بالية ، وأجساماً فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية كالبرابي وغيرها من الآلات من المرمر والرخام . وفيه نوع من الطلاء الذي قد طلي منه ذلك الميت الموضوع في تمثال الخشب ، وما بقي من الطلاء متروك في ذلك الإناء ؛ والطلاء دواء مسحوق ، وأخلاق معمولة لا رائحة لها ، فجعل منه على النار فتأخ منه روائح طيبة مختلفة ، لا تعرف في نوع من الأنواع التي للطيب » .

« وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم ، وتباين صورهم ، وبإزاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر المرمر أو من الرخام الأخضر على هيئة الصنم ، على حسب عبادتهم للتماثيل ، وكان ذلك في سنة ٣٢٨ » .

ثم يقول المسعودى<sup>(١)</sup> :

وقد كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر إلى احمد بن طولون وغيره إلى هذا الوقت — وهو سنة ٣٣٢ — أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجوهر ، وما أصيب في هذه المطالب من القبور والخزائن .

وقد أدهشهم هذه الآثار الظاهرة والمستورة ، وحاولوا معرفة شيء عنها ، وقراءة ما كتب عليها ؛ وفسروا ما وجدوه مكتوباً عليها أحياناً ، واستعصى عليهم قراءة المکتوب فلم يترجموه أحياناً أخرى ، وكان تفسيرهم لهذه الآثار عجيبة ، بل قرروا أن ذا النون المصرى الإخيمى ، الزاهد ، كان ممن يقرأ عن هذه البرابي ، وأنه قال : رأيت في بعض البرابي كتاباً تدبرته . فإذا هو : « احذر العبيد المعتقين ، والأحداث المقربين ، والجند المتعبدين ، والتبسط المستعربين » . قال : ورأيت في بعضها كتاباً فتدبرته فإذا فيه : « يقدر القدر والقضاء يضحك » وزعم أنه رأى في آخره كتابة وتبينها في ذلك القلم الأول فوجدها :<sup>(٢)</sup>

تدبر بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعل ما يريد

وحين أورد المسعودى الحديث عن الأهرام وما عليها من الكتابة قال إن منها مكتوباً هو : « إنا بنيناها فمن يدعى موازتنا في الملك ، وبلوغنا في القدرة ، وانتهاءنا من السلطان فليهدمها ، وليزل رسمها ؛ فإن الهدم أيسر من البناء ، والتفريق أيسر من التأليف » .

ونرى من هذه التراجم شعراً وثراً لما كان على الأهرام أو غيرها من الآثار أن أكثرها من وحى الخيال ولسان الحال .

(١) ج ١ ص ١٥٨ .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٥٥ طبعة ١٣٠٢ هـ .

وعنيت كتب التاريخ بهذه الآثار والمعجائب كما عنيت بها كتب الخطط ،  
ووصفها المؤرخون ، وأبدعوا في وصفها ، ورووا كثيراً من قصصها وحكاياتها ،  
ونستطيع أن نعدّها من الأدب التاريخي أو من القصص المبنية على التاريخ ،  
أو نعدّها من أدب الوصف . ولكنها لم تكتب لتكون أدبا ، ومن هنا أهملها  
مؤرخو الأدب . وتركوها للتاريخ ، وكانت موضع تحقيق .

ولكن ما السر في عدم تعلق الأدب المحض بها ؟ وأنه لم تنسج حولها القصص  
الأدبية ؟ وما السبب في عدم وقوف شعراء العرب عليها كما وقفوا بآكين على الأطلال  
والدمن ؟ وما الذي صرفهم عن الاعتبار بها ، والاتعاظ بمن أنشئوها ثم تركوها ،  
وصاروا مثلاً الآخرين ؟ .

وما عذر الطولونيين ومن بعدهم في إهمال أدب الآثار القديمة ؟ لقد رأوا ما ظهر  
منها ، وكشفوا كثيراً مما بطن وكان عندهم المثال الذين يسرون على طريقته ؟ وهو  
سينية البحترى في إيوان كسرى ، وكانت قوية ومشهورة جداً ، لجودتها  
ولغرابتها موضوعاً وقافية . وكان عندهم من قبل البحترى أبيات كريب بن مجلد ،  
في وصف صنم في حمام زبان على شكل امرأة ، يبدو من وصفه أنه من آثار اليونان  
أو الرومان ، ومن هذه الأبيات<sup>(١)</sup> :

من كان في نفسه للبيض منزلة	فليأت أبيضاً في حمام زبان
عَبَل لَطِيف هَضِيم الكَشْح مَعْتَدِل	على ترائبه في الصدر ثديان
لا روح فيه ، ولا شفر يقليه	لكنه صنم في خلق إنسان

والجواب على ذلك أن هذا الأدب العربي المحض كان أسير التقليد فلم يتجه إلى  
وصف الآثار القديمة مع كثرة ما رأى العرب منها في مصر والعراق والشام

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١١٤ — ١٥٨ من هذا الكتاب .

والأندلس ، ولم يشغل الأدباء أنفسهم بوصفها أو الاتعاط بها ، ولم يتركوا شيئاً من الأدب حولها إلا نادراً .

ثم إن وقوف العرب على الأطلال والدمن كان وقوفاً تثيره ذكريات الأحباب وماضى الشباب ، وبلى الأطلال ، وارتحال أهل الديار .

أما هنا فالآثار ألتغاز وطلاسم لا يفهمون أسرارها ، ولا تتور عواطفهم عند رؤيتها ، ولا يتصل تاريخهم بها .

حقاً إنهم وقفوا على بعض الآثار التي شهدوا عزها وذلها ، ورأوا عظمتها وفعل الأيام بها . وظهر لنا من ذلك رثاء ابن شافع للدار المذهبة التي كانت لآل عبد العزيز ابن مروان<sup>(١)</sup> .

ومنه ما رأيناه من الشعر الذى قيل فى أعقاب الطولونيين فى الشماتة بهم ، واستقبال من أبادوهم ؛ أو فى البكاء لما أصابهم ورثاء دورهم وقصورهم ، والأسى على أيامهم ، والاعتبار بمصيرهم ، وقد يصحب ذلك وصف مجمل أو مفصل لهذه الآثار ، أو لأيام المجد والمظمة ، فيثير البكاء ويدعو إلى الاعتبار .

ومنه رثاء عمارة الجيني لدولة الفاطميين ، وما كان من شعراء الأندلس فى رثاء دولهم التي كانت تنهاوى واحدة بعد أخرى .

ولكن وقوفهم على تلك القصور والدور ؛ ورثاءهم لتلك الممالك والدول ، كان أشبه بالوقوف على الأطلال والدمن ، أثارته مشاهدة تقلبات الدهر ، ورؤية الآثار فى حالى اليسر والسر ، فكان ما أصابها على مرأى ومسمع منهم داعياً إلى بكائها ، والاعتبار بها . أما الآثار القديمة فيثير الحديث عنها إكبارها ، والإعجاب بفنها ، والدهشة لما تحويه من سحر وعبقرية وشبه ذلك .

وقد ظل الأدب العربى مقصراً فى هذه الوقفات على الآثار الخالدة ، حتى جاء شوقى فوقف على آثار القرائنة وآثار العرب بصفها ويرثيها ، ويتحدث عن عظمتها الماضية ، وعبرها الباقية ، فأبدع إبداعاً عظيماً .

# الفهرس

المقدمة :

الفصل الأول : الفتح الإسلامى لمصر : ١ - ١٩

معرفة العرب بها ، مسير عمرو إليها (٤) عوامل انتشار اللغة العربية بها :  
الإسلام (٥) هجرة القبائل (٨) كثرة العرب بمصر (١٣) أثر الهجرات فى  
اللغة (١٦)

الفصل الثانى : الخطب والوصايا : ٢٠ - ٥٣

(١) الخطابة : حاجة الفاتحين إليها (١٩) خطبة لعمرو (٢٠) فى الصلح بين  
عمرو والمقوقس (٢٤) خطب عتبة (٢٩) الخطابة بعده (٣٥) الخطابة العباسية (٤٠)  
من الطولونيين إلى الفاطميين (٤٣)  
(ب) الوصايا : الفرق بينها وبين الخطابة (٤٦) وصية قيس بن سعد (٤٧)  
وصايا مروان بن الحكم (٤٨) وصايا ابن طولون (٥١)

الفصل الثالث : القصص : ٥٤ - ٧٥

متى ظهر فى الإسلام (٥٤) وفى مصر (٥٥) صورته (٥٦) أول قصة . عمرو  
والكرة (٥٨) عمل المؤرخ والأديب (٦٠) قصص أخرى (٦٣) كتاب  
المكافأة (٦٦)

الفصل الرابع : كتابة الرسائل : من عمرو إلى ابن طولون ٧٦ - ١٠٢

(١) فى زمن الراشدين (٧٧) بين عمرو والخليفة . رسالة عمرو فى وصف  
مصر (٧٩) رسائل أخرى  
(ب) فى عهد بنى أمية (٩٠) نقل الديوان إلى العربية (٩٢)

(ح) في عهد العباسيين : الليث بن سعد (٩٧) رسالة العتصم (٩٩)

الفصل الخامس : الرسائل من ابن طولون إلى الفاطميين ١٠٣ - ١٢٧

ديوان الإنشاء (١٠٣) فضل ابن طولون على الكتابة (١٠٥) قصته مع

ابن عمار ورأيه في الكتاب (١٠٧) موقفه من الأدب (١١١) بينه وبين ابنه (١١٦)

الكتابة في مصر والعراق (١١٩) صفات الكتابة (١٢٠) ابن عبد كان (١١٩)

ابن نصير (١٢٢) رسالة الإخشيد إلى أرمانوس (١٢٤) التجيرى (١٢٦)

الفصل السادس : الشعر إلى آخر بني أمية : ١٢٨ - ١٦١

(١) إلى عبد العزيز بن مروان (١٢٨)

(ب) في عهد عبد العزيز (١٣٥) شعراؤه (١٣٥ - ١٥٢)

(ح) من عبد العزيز إلى العباسيين (١٥٥)

الفصل السابع : شعر العصر العباسي : ١ - ١٦٢ - ١٨٢

الشعر التاريخي ، صدى النزاع بين الأمين والمأمون (١٦٦) في ثورة ابن الجروى

والسرى بن الحكم (١٦٨)

الفصل الثامن : شعر العصر العباسي : ٢ - ١٨٣ - ٢٠٦

الشعر القضائي : القاضى المفضل (١٨٥) القاضى العمري (١٨٧) قضية

الحرس (١٨٩) قضية السباق (١٩٣) القاضى البكرى (١٩٥) الشعر في الخلافات

المذهبية (٢٠١) ابن القطاس (٢٠٣) ابن الليث والهمام (٢٠٤) صورة الجماعة في

الشعر (٢٠٦)

الفصل التاسع : الشعراء في عهد العباسيين : ٢٠٧ - ٢٢٩

(١) شعراء مصر : ابن عفير (٢٠٧) المعلى الطلائى (٢٠٨) رثاء جارية (٢١٠)

في محبة الأولاد (٢١١) الجمل وشعره (٢١٢)

(ب) الشعراء الزائرون ، من مدحوا يزيد الملهبي (٢١٤) أبو نواس (٢١٧)  
أبو تمام (٢٢٢) دعبل (٢٢٥) كلمة عن الشعر والشعراء (٢٢٨)

الفصل العاشر : شعر الطونيين : ٢٣٠ - ٢٥٧

١ - في عهد دولتهم : مدح وهجاء ونفر ورثاء . شعر ابن جدار في  
مغنية وفي ثقلاء (٢٣٩)

٢ - الشعر في أعقاب الطولونيين : في التشفي والشماتة (٢٤٣) عظمة ملكهم  
(٢٤٥) رثاء دولتهم والاعتبار بهم (٢٤٨) في حرب المغرب (٢٥٦)

الفصل الحادي عشر : الشعر في عهد الإخشيديين ٢٥٨

بعض الشعر (٢٥٩) رثاء الإخشيديين (٢٦١) شعر في وصف الأديرة وما يتصل  
بها (٢٦٤) دعوة إلى مجلس أنس (٢٦٨) شعر في الربيع (٢٦٩) شعر قضائي  
هجائي (٢٧١) التنبؤ في مصر (٢٧٢) حوص كافر عليه ، مدحه وهجاؤه له (٢٧٣)  
خصائص المدح والهجاء (٢٧٦) حساده بمصر (٢٧٨) وصف مصر ، ووصف  
الحجى (٢٨٠) صلته بأبي شجاع (٢٨٢) .

الفصل الثاني عشر : المؤثرات في هذا الأدب ٢٨٤ - ٢٩٥

البيئة (٢٨٤) الثقافة (٢٨٥) النقد (٢٨٦) التيار الأدبي العام (٢٨٧) التاريخ  
الحديث والقديم (٢٨٨) الآثار وصلتها بالأدب من عبد العزيز إلى الإخشيديين (٢٨٩)

# صواب الخطأ

وقعت أخطاء لم يمكن تجنبها . وهذا صواب أهمها :

الصفحة	السطر	الصواب
١٤	٥	اثنى عشر
١٧	٥	استعانها
١٨	٥	وهؤلاء
٤٣	٦	٢٦٩
٤٣	١٧	أمر الإخشيديين
٦٠	١٢	تأملت
٦٣	٢	عمرا والشماس
١٧٢	٧	ما زلت
١٧٧	١	وقال أبو تمام
٢١٤	٢١	يزيد بن أسيد
٢١٥	١٦	بمصيبه
٢٢٥	١٥	٤ - دعبل
٢٣٥	هامش	الوليد وكنيته أبو عبادة